هيلين ايليربي

الجانب المظلم في التاريخ المسيحي

ترجمه و قدم له:

أ.د.سهيل زكار



هيلين إيليربي

الجانب المظلم في التاريخ المسيحي



ترجمه وقدم له:

أ.د.سهيل زكار



هذا الكتاب ترجمة كاملة لـ:

The Dark side of Christian history
By
Helen Ellerbe

هذا الكتاب..

موقف على الحرية البشرية

والكرامة الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

أكثر الباحثون في الغرب الأوروبي قديماً وحديثاً، التعليق على نتائج معركة بلاط الشهداء حيث عجز المسلمون بعد هذه المعركة عن متابعة حركة الفتح داخل أوربا الغربية، وإنَّ هذا العجز أنقذ الحضارة الأوربية ومثلها الأخلاقية القائمة على مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية، فما مدى صحة هذه الأطروحة؟ وهل كان في أوروبا الغربية حضارة من أي نوع ومستوى؟، وهل امتلكت الكنيسة الكاثوليكية أية مثل أخلاقية سواء نظرية أو تطبيقية؟.

في الحقيقة إن إخفاق العرب في معركة بلاط الشهداء حرم أوربا من نور الهداية إلى الوحدانية، وزاد من غرقها في عصور الظلام وانعدام الحضارة، ثم إن الكنيسة الكاثوليكية افتقرت كلياً إلى المثل والأخلاق من جميع الجوانب، ولأن هذا ما حدث خلال العصور الوسطي، انطبع الغربيون بأخلاقيات، وسلوكيات، وآمنوا بأفكار وعقائد دفعوا هم ثمنها الباهظ خلال تلك العصور، لكن لأنهم جبلوا عليها وغدت شبه غريزة لديهم، دفعت الإنسانية ـ وما تزال تدفع ـ خلال التاريخ الحديث نتيجة للسياسات الغربية الثمن المرتفع لذلك دماً، وشقاء، وظلماً، واستغلالاً، واستعباداً، طرداً من الأوطان وحرماناً، والحال مازال مستمراً، ومثلما ادعى الغربيون القدماء من الصليبيين أنهم قدموا للحج إلى الضريح المقدس، وفي سبيل ذلك قتلوا بداية: أهل أنطاكية، ومعرة النعمان، والقدس، واستمروا يقتلون ويدمرون لمدة قرنين، ثم هم قدموا الآن باسم الديمقراطية والحرية، فقتلوا بوساطة الأسلحة الحديثة الآلاف من الأبرياء، وما يزالون يقتلون، وصدق الله تعالى في قوله الكريم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف 103/ 104/ 105].

وكثرت في العصر الحديث الأبحاث حول تاريخ أوربا في العصور الوسطى، وتناولت هذه الأبحاث الشؤون السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، وتحدثت عن تطور مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية، غير أنها لم تركز على الجوانب المظلمة من هذه الشؤون، وقليلاً ما وقفت عند القيم والمثل الأخلاقية الإنسانية مما شكل ثغرة واسعة.

وحديثاً حاولت الباحثة هيلين إيلربي سد هذه الثغرة، في كتابها "الجانب المظلم في التاريخ المسيحي"، الذي ترجمته من الإنكليزية، وأقدم له اليوم، وتعيش الكاتبة الآن في أمريكا. لكنها كانت قد ولدت في بيروت، ونشأت في المملكة العربية السعودية، وأمضت بعضاً من حياتها في ألمانيا وجاء ذلك بعد إكمالها لدراستها الجامعية.

وهذا الكتاب وثيقة بالغة الخطورة والأهمية، فيها تصوير علمي موثق لدور الكنيسة الكاثوليكية في الحياة الأوربية، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث، وهو دور نتج عن ظلام الشرك، وعلى هذا الأساس نمتلك شهادة لا تدحض على أن أوربا حرمت من الأخلاق والسعادة والهداية، وتخبطت بالظلام نتيجة لما حدث في معركة بلاط الشهداء، وسوف تظل هكذا ومعها الإنسانية، ما لم تعتنق الإسلام، لأن الدين عند الله الإسلام، ولا يصلح زمان ولا مكان بدون الإسلام.

وتطرقت الباحثة في كتابها الموثق إلى تطور تاريخ المسيحية، وليتها تعمقت فبحثت فيما ألم بالمسيحية منذ أن قام شاول اليهودي بإعادة صياغتها، فأبعدها عن جوهر التوحيد، وأغرقها بالغنوصية المتهودة فجعلها ديانة باطنية تأويلية، ومع ذلك فإنَّ حديثها عن تدوين الأناجيل الأربعة، واعتماد هذه الأناجيل من قبل مجمع نيقية عام 325م مهم وواضح، فقد ترأس هذا المجمع الامبراطور قسطنطين الكبير، وكان ما يزال وثنياً، فجعل من المسيحية أداة من أدوات العمل السياسي، ومطية لأهواء

الساسة ومطامعهم، وأسهمت أمه هيلانه بعد ذلك في إكمال مشروعه حين وضعت أسس طقوس المسيحية خاصة ما تعلق بالتثليث وعبادة الصليب.

وفي الحقيقة إن هذا موضوع بالغ الأهمية، أنا عازم - إن شاء الله - على التعامل معه بشكل علمي محض، لأنني أمتلك قناعة، وإيماناً أن الدين كان ومازال أهم القوى الفاعلة في حياة البشر، وأنَّهُ يحق للباحث الخوض في ميدان التأريخ الديني، مثلما يحق له البحث في ميادين التاريخ السياسيّ والاقتصادي، والفكري وغير ذلك كثير، وهذا الميدان هو الأكثر خصباً في أيامنا ولاسيما في الغرب الأوربي والولايات المتحدة، هذا ومقرر أن كل بحث لا يلتزم الحيادية، والروح الأكاديمية، لا يمكن عدّه بحثاً تاريخياً، والتعلل بأن الأبحاث في العقائد والديانات تثير الحساسيات والفتن هراء، وبعيدٌ عن الصحة، لا بل طالما هناك رغبات جامحة في التخلق بالحرية الفكرية والديموقراطية، فالبحثُ العلمي في مجال العقائد والديانات خير وسيلة نحو التخلق بالفكر الحر.

ومنذ قرون سعى رجال الاستشراق - وجلهم من رجال اللاهوت - إلى التعامل المغرض وغير النزيه مع الإسلام، في سبيل إقناع المواطن الغربي الباحث عن مخرج لما هو فيه، بالابتعاد عن نور الإسلام، ولهذا ركّز المستشرقون بدايةً على البحث عن تناقضات في العقيدة الإسلامية فأخفقوا فالتفتوا نحو الاهتمام بتاريخ الفرق وحركات الشقاق للوصول إلى محصلة، أنها دليل على التناقض، وأغفلت هذه الأبحاث مسألة أن الإسلام انتشر أولاً في البقاع الأقدم حضارة في التاريخ والكون، حيث جميع العقائد والديانات السماوية والوضعية مثل: المسيحية، واليهودية، والبوذية، والزرادشتية والمانوية، وعقائد الصابئة، والدهرية، والميثراوية، والغنوصية إلخ، ولأن الإسلام آمن بحرية العقيدة فقد دخل رجال دين هذه الديانات في معارك فكرية خصبة مع الفكر الإسلامي، فكان الإخفاق الكامل لهم، والنجاح المتواصل والمطرد للإسلام، لذلك لجأ بعضهم إلى العمل التآمري، والتمرد فكان ذلك ما اعتاد المستشرقون على تسميته بالتناقضات.

إن الإسلام أساسه القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وجميع أعمال بني البشر تقاس على معيار القرآن والسنة، وليس العكس هو الصحيح، العكس هو ما كان في سيرة شاول اليهودي، والامبراطور قسطنطين وأمه هيلانه والبابوات، ومحاكم التفتيش، والكتاب الذي أقدم له حافل بالشواهد الموثقة.

وراجت في أيامنا أحاديث طويلة عن صراع الحضارات، وقصد من هذا كله الصراع بين الإسلام وبين عقائد الغرب التي هي كلاسيكية وثنية - يهودية - مسيحية، ومنذ عام 1095م حين أعلن البابا أوربان الثاني عن قيام الحروب الصليبية، وهذا التيار الغربي العقائدي يصارع الإسلام بشتى وسائل القتل والتدمير والتضليل، وحصد ومازال يحصد الإخفاقات، ومقبول الحديث عن الحوار، وليكن هذا الحوار فكرياً حراً، من دون تهديد أو إكراه، وسوف نجد المحصلة الإسلام، وعندي أنه آن الأوان أن يتخذ المسلمون من أسلوب الحوار البناء أسلوباً للدعوة إلى الإسلام، والهداية إلى نور الوحدانية، وأن نطلب من الطرف المحاور لنا التوقف إلى الأبد عن إنشاء حركات إرهابية تتخذ القتل وسفك الدماء أسلوباً لها، لأن الإسلام حرص - ومازال - كل الحرص على الحياة الإنسانية الكريمة، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 32]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: 70]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: 13]، وفي حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً الناس: "إن الله قد حرم عليكم دمائكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم"، وكرر ذلك أكثر من مرة.

والمسلم لا يعرف في سلوكه الضغينة ولا الكراهية، ويتبع السيئة الحسنة، فتمحوها، والمسلم الصحيح هو الذي يضرب المثل الأعلى بالسلوك الأخلاقي القويم، ويحب الناس جميعاً، لأن هدفه الأسمى هداية البشرية إلى نور الوحدانية الخالصة، ومن استهدف الهداية كان سلاحه الوحيد هو المحبة والألفة والاعتدال،

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد واصفاً نبيه الكريم: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159].

ولقد بحثت مطولاً في تاريخ العقائد والديانات، وأنا منشغل منذ سنوات في تاريخ الحروب الصليبية، ولقد تبين لي من جملة كثير من الأمور أن المسيحية في بلاد الشام نزلت بها أقسى ضربة في تاريخها بسبب الحروب الصليبية في الشام الشمالي والجنوبي والساحلي، لأن الغربيين استهدفوا قتل المسلمين والمسيحيين الشرقيين الهراطقة، فضلاً عن هذا كان من حسن حظ المسيحيين عموماً الذين عاشوا في دار الإسلام، أنهم نجوا بفضل الإسلام من الاضطهاد الذي كان منتشراً قبل الإسلام، وأنهم لم يعانوا مثلما عانى الناس في أوربا خلال العصور، لأنهم نعموا بالحرية والأمن، والرفاه، والسمو الثقافي والمعرفي، وأتمنى على الكتاب المسلمين عرض تاريخ المسيحيين في ظل الإسلام، وتقديمه موثقاً إلى الغربيين وإلى بني البشر جميعاً، وبهذا العمل نكون قد أسهمنا بإكمال ما قدمته الباحثة في كتابها الذي توليت ترجمته، فهي قد أرخت للجانب المظلم في ظل الكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانتية، ونحن علينا أن نؤرخ للجانب المضيء في ظل حكم الإسلام.

وألحت المؤلفة في كل مكان من كتابها على النظام الطبقي الكهنوتي المتسلسل، أي النظام الهرمي ودوره في صنع الجانب المظلم، وقالت في آخر الكتاب: إنَّ نظام العناصر المتنوعة هو المقبول الآن علمياً في فيزياء الكم والمادة، وفي المعامل والمصانع والشركات، وجميع المجالات، فالعنصر الواحد لا ينتج طاقة، والطبقية الكهنوتية لا تسمح للعقل بالعمل، وهي ضد الحرية، وهي أساس الدكتاتورية والتمييز العنصري القائم على الجنس واللون، وبات من المقرر الآن في الكهرباء أن الطاقة والنور يتولد من اللقاء بين عنصري السالب والموجب، لا بين سالبين أو موجبين.

وفي الحقيقة إن نظام عمل العناصر المتنوعة هو نظام إسلامي، فنحن نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : 13]، فمن الذكر والأنثى جاء البشر ومثل ذلك جاء نور الكهرباء من السالب والموجب، وإنه إذا التقت العناصر المتنوعة لتتعارف في ظل التقوى، تنتج طاقات باهرة لصالح الإنسانية، وهذا ما حصل بعد قيام الإسلام، فكان من محصلاته حركة الفتوحات التي لا نظير لها، ثم الحضارة العربية الإسلامية، التي أسهم في إنتاجها مسلمون عرب، وفرس وترك وخراسانيون، وروم، وأفارقة، وديلم، كما شارك في صنعها غير المسلمين من مختلف الملل والنحل، وبوجود القرآن والسنة الصحيحة، والتجربة التاريخية، يمكن الآن معاودة العمل مجدداً.

لم يكن من السهل التعامل مع نص هذا الكتاب لكثافة معلوماته ودقتها، وأملي كبير أن يكون التوفيق قد حالفني، وأن تحصل الفائدة المرجوة منه، والحمد لله أولاً وآخراً، ومن الله جلت قدرته ألتمس دوماً الهداية والإرشاد، والعون والتوفيق، والأجر، سبحانه إنه على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على نبي الهداية، وسيد ولد بني آدم، المصطفى، وعلى آله وأصحابه ومن لزم بنهجه وسيرته.

سهيل زكار

دمشق 20 محرم 1426

2005/3/1

توطئة:

في حزيران 1995 روت صحيفة شيكاغو تريبون Chicago Tribune أن البابا جون بول الثاني، حث الكنيسة الكاثوليكة على إمساك الفرصة الموائمة الخاصة التي قامت مع حلول الألفية الجديدة بالاعتراف «بالجانب المظلم من تاريخها»، وكان قد تساءل في عام 1994 في رسالة سرية بعث بها إلى الكرادلة، ثم تسربت إلى الصحافة الإيطالية، قائلاً: «كيف يمكن للإنسان أن يبقى صامتاً تجاه الأشكال الكثيرة من العنف التي اقترفت باسم الإيمان، والحروب الدينية، ومحاكم التفتيش، وأشكال العنف الأخرى التي مورست ضد حقوق الأفراد».

لسوء الحظ بقي الكثيرون صامتين، وأصغيت منذ عدة سنوات، وأنا مصابة بالدهشة إلى واحد من معارفي، وهو يتحدث كيف أن الكنيسة المسيحية قد احتضنت أفضل ما أنتجته الحضارة الغربية، وكيف أنها جلبت السلام والفهم والمعرفة إلى الشعوب التي اتصلت بها، وقد بدا لي أنه غير عارف بماضي الكنيسة المظلم، لذلك عزمت على إعداد عرض موجز للتأريخ للجانب المظلم من التاريخ المسيحي، وهو عرض في سبيل المساعدة على توازن المفاهيم والمبادئ التي تولت تنظيم المسيحية، وكيف تعايشت مع مبادئها التي آمنت بها وعقائدها.

ولقد افترضت بأنني سوف أجد بسهولة جميع المعلومات الضرورية لهذا العرض في محالّ بيع الكتب، لكن ما لبث أن أصبت بالدهشة عندما تبينت أن الموجود حول الموضوع قليل جداً، ففي الوقت الذي - بكل تأكيد - كتب فيه المؤرخون حول الجانب المظلم من التاريخ المسيحي، فإن كلامهم قد بقي جله داخل الأكاديميات، وقليلون هم الذين كتبوا حول دور المسيحية في إيجاد عالم عاش فيه

الناس وهو يشعرون بالغربة والانسلاخ والبعد عن المقدسات، فلماذا على هذا نجد كثيراً من الناس يحثون في وقت واحد عن معان روحية أعمق، أو ليس هناك المزيد من المعلومات المتيسرة حول تاريخ المؤسسات التيّ من المفترض أن توصل إليهم مثل هذه الحقائق الروحية؟.

فمن دون فهم الجانب المظلم من تاريخ الديانة، يمكن للإنسان أن يظن أن الدين والجانب الروحي هما واحد، والشيء نفسه أي الجانب الروحي والدين هما واحد، ومع ذلك تمتلك الديانة المنظمة تاريخاً طويلاً جداً من البتر، وكبح الجانب الروحي، والعلاقة الشخصية والخاصة مع الرب المقدس، أو جل جلاله.

وهذا الكتاب هو ما نتج عن ذلك العرض الموجز، ومقصدي هو تقديم – ليس صورة كاملة للتاريخ المسيحي – بل الجانب المظلم منه فقط، الذي آذى الكثيرين جداً، وألحق ما لا يحد من المضار بالجانب الروحي، وأنا لا أنوي مطلقاً التقليل من شأن الأعمال الجميلة التي قدمها ما لا يحصى من الرجال والنساء في سبيل المساعدة الصادقة للآخرين، ومن المؤكد أيضاً انعدام النية في تقديم هذا الكتاب بمثابة دفاع أو عطاء لأي دين آخر.

هيلين إيليربي.

شباط 1996.

مُدْخَل:

تركت الكنيسة المسيحية تراثاً، ونظرة عالمية، غطت كل جانب من جوانب المجتمع الغربي، في كل من الناحيتين الدينية والدنيوية، ورعى هذا التراث: الجنس، والعرق، وعدم التسامح تجاه الفوارق، وانتهاك الأطر الطبيعية المحيطة، وأظهرت الكنيسة وعرضت في كثير من تاريخها عدم تقدير للحرية الإنسانية، والكرامة، وتقرير المصير ذاتياً، ولقد حاولت الإشراف والتحكم، واحتواء، وحبس الجانب الروحي، والعلاقة بين الفرد والرب، ونتيجة لذلك ساعدت المسيحية على إيجاد مجتمع الناس فيه غرباء ليس فقط عن بعضهم بعضاً، بل عن المقدس أيضاً.

وهذه المسيحية التي دُعيَتْ بالأرثوذكسية (المسيحية القويمة)، هي متجسدة بالإيمان بواحد ذكر، رب صاحب سلطان، يتطلب طاعة عمياء، وهو يعاقب المتمرد من دون رحمة، وتعتقد المسيحية القويمة بأن الخوف ضروري وأساسي من أجل تمتين ما اعتقدوه أنه نظام طبقي متدرج له السمة اللاهوتية، فيه يحكم الرب اللاهوتي فردياً من مكان شاهق، بعيداً جداً ونائياً عن الأرض وعن جميع بني البشر.

وفي الوقت الذي مثلت فيه المسيحية القويمة من مجموعات كثيرة من العقائد المسيحية، فإن المسيحيين الذين أداروا دفة السلطة السياسية، وقاموا بتبنِّيهمْ لمسيحيتهم، بتقديم الالتماس إلى الحكومة الرومانية، فربحوا سلطة لا نظير ولا سابق لها ومثل ذلك الامتيازات، وأصبحت كنيستهم تعرف باسم «الكنيسة» ومكنتهم السلطة التي حصلوا عليها حديثاً من فرض الطاعة لممارساتهم، والتنكيل بالذين رفضوا الطاعة، وإنه على كل حال طلب من الكنيسة أن توضح الذي هو عقيدتها وشريعتها وما تؤمن به، وأن تحدد تماماً ما الذي كان هرطقة والذي لم يكن،

وبفعلها ذلك اختارت بإصرار واستمرار العقائد والشرائع التي أيدت إشرافها وتحكمها بالفرد والمجتمع.

وما أنْ أخذت الكنيسة بزمام القيادة في أوربا، وما أن سقطت الامبراطورية الرومانية، حتى قامت هذه الكنيسة بإزالة جميع أنواع التعليم، والتقنيات، والعلوم، والطب، والتاريخ، والفن، والتجارة، وجمعت الكنيسة وكدست ثروات هائلة، وذلك عندما غرق بقية المجتمع في العصور المظلمة، ثم عندما قامت التغييرات الاجتماعية المثيرة بعد نهاية الألفية الأولى بجلب نهاية إلى حقبة العزلة قاتلت الكنيسة للحفاظ على تفوقها وسيطرتها، وحشدت حولها بازدياد المتمردين في المجتمع ضد الأعداء المتصورين، وأثارت الحروب ضد المسلمين، والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، واليهود، وعندما أخفق الصليبيون في إخضاع المتمردين، صرفت الكنيسة قواها ووجهتها ضد المجتمع الأوربي نفسه، حيث أقلعت بحملات وحشية ضد جنوب فرنسا، وأقامت محاكم التفتيش.

وكان الذي فعلته الحروب الصليبية، لا بل حتى قرون من محاكم التفتيش قليلاً في تعليم الناس فهماً صحيحاً للمسيحية القويمة، والذي فعل هو حركة الإصلاح الكنسي المضادة وأنجزته، ففقط خلال الإصلاح الكنسي تعلم سكان أوربا وتبنوا أكثر من القشرة الزائفة للديانة والتصور العام أن العالم المادي كان متجسداً مع حضور الرب، ومع السحر حل محله خلال الإصلاح الكنسي، اعتقاد جديد هو أن المساعدة اللاهوتية لم تعد ممكنة، وأن العالم المادي عائد فقط إلى الشيطان، ولقد كانت هناك ثلاثمائة سنة من الإحراق بالنار مورست ضد من تجرأ على الاعتقاد بوجود مساعدة لاهوتية، وأخيراً ضمن السحر عملية تحويل أوربا إلى المسيحية القويمة.

وبإقناع الناس بأن الرب يعيش منفصلاً عن العالم المادي، أرست المسيحية - ربما بدون فهم - الأساس للعالم الحديث، وهو عالم يعتقد أنه آلي، وغير محكوم بقدر، عالم الرب فيه بعيداً جداً، وهو خالق غير متجسد، وصار الناس يعزون

مشاعر عجزهم ليس إلى طبيعتهم الإنسانية المذنبة بقدر عزوه إلى عدم أهميتهم في مثل هذا العالم، ومتنت نظريات العلماء والفلاسفة مثل: اسحق نيوتن، ورينه ديسكارت Rene Descartes، وشارل داروين، عقائد المسيحية القويمة، مثل الاعتقاد بحتمية الصراع وضرورته من أجل التحكم والسيطرة، وتبرهن الآن أن مثل هذه العقائد - على كل حال - ليس فيها فقط معيقات جادة وجذب إلى الوراء، بل إنها أيضاً علمياً محدودة.

وكان للمسيحية القويمة أيضاً أثرها المدمر على العلاقة البشرية بالطبيعة، فعندما بدأ الناس يعتقدون بأن الرب أقصي عن العالم المادي وهو مزدر له، فقدوا احترامهم للطبيعة، وأيام العطل التي ساعدت الناس على دمج المواسم والفصول في حياتهم، تبدلت إلى إحياء ذكريات وفورة لحوادث توراتية لا علاقة لها بدورات الأرض وتبدل مفهوم تصور الوقت، ولم يعد أبداً مرتبطاً بدوران الفصول، وظهر علم نيوتن وهو يؤكد أن الأرض لم تكن سوى نتيجة حتمية للعملية الآلية لصراعات لا واعية، وقد أكد هذا أن الأرض تعوزها القداسة.

ويمكن للجانب المظلم من التاريخ المسيحي أن يساعدنا على فهم فصم ارتباطنا بالمقدس، ويمكن أن يعلمنا حول العبودية الأكثر غدراً وتدميراً: السيطرة على الناس من خلال الإملاء وكبح روحانيتهم، ويمكن لهذا الجانب المجهور من التاريخ أن ينير الأفكارَ والعقائد التي رعتْ تشويه الحقوق الإنسانية، وعدم التسامح مع الفوارق، وانتهاك قدسية المحيط الطبيعي، وما أن ندرك هذا حتى يمكننا منع مثل هذه العقائد من الاستمرار في إحداث مثل هذا الدمار مرة ثانية، وعندما نفهم كيف حدث وفصلنا عن المقدس، يمكننا أن نشرع ليس فقط في معالجة ندوب الجراحات، بل الشفاء من الغربة نفسها أيضاً، والمعافاة منها.

الفصل الأول

بذور الطغيان

(100 - 400م)

حصل الذين ابتغوا السيطرة روحياً، وأرادوا تحديد العلاقات الشخصية مع الرب على المكانة العالية خلال القرن الأول من التأريخ المسيحي، وكونت عقائدهم وشكلت الأسس العقائدية للجانب الأكبر من تاريخ الكنيسة المسيحية المظلم، وقد اعتقد هؤلاء المسيحيون الأرثوذكس، لدى اعتمادهم الإيمان بوجود قوة واحدة متفوقة، وآمنوا بأن الخوف والخضوع إلى سلطة لاهوتية متدرجة، أمراً لا مندوحة عنه، وهذا ما لم يوافق عليه جميع المسيحيِّين، وفي الحقيقة، إنه خلافاً للصورة المتوائمة للقرون الأولى للمسيحية، على أنها كانت زمناً من الوئام والوحدة، لم يتفق المسيحيون حول كل شيء شروعاً من طبيعة الرب، ودور الرجال والنساء، إلى السبيل الذي يمكن للإنسان أن يجد فيه التنوير.

ولعل أكثر الناس تمحوروا حول فئة المسيحيين الذين سوف ينتصرون، وسوف يطلق عليهم هنا اسم «المسيحيين الأرثوذكس»[1]، وهم الذين آمنوا بقوة متفوقة واحدة، والاعتقاد بأن الألوهية تجلت في شخص واحد، والإيمان برب واحد يختلف اختلافاً واسعاً عن الاعتقاد الواسع الانتشار بأن الألوهية يمكن أن تتجلى في عدد من الأشكال والشخصيات، وبما أن الناس يعتقدون بأن الرب يمكنه أن يمتلك

(1) إن استخدام اصطلاح الأرثوذكس في هذا الكتاب يشير إلى العقيدة التقليدية داخل جميع آفاق المسيحية، وليس تحديداً أية كنيسة أو أفق ديني.

وجهاً واحداً، لذلك هم يميلون إلى الاعتقاد بأن السوء أو انعدام الألوهية بين البشر، يمكنه أيضاً أن لا يمتلك سوى وجهٍ واحدٍ، وجميع الأجناس، والأعراق، والطبقات، أو العقائد هي منظمة بشكل أحسن أو أسوأ إحداها عن الأخرى، لا بل حتى الفكرة لموقفين مختلفين قائمين بوئام، أصبحا متباينين، أحدهما ينبغي أن يسيطر ويغدو متفوقاً على الآخر.

وفي داخل مثل هذا البنيان العقائدي تمّ فهم الرب أنه يحكم إفرادياً من أعلى ذروة الترتيب اللاهوتي، المؤسس ليسَ على الحب، بل على الخوف، وتحث التوراة مراراً وتكراراً الناس على أن يخافوا من الرب: «اخشَ الرب، ونفذ أوامره وحافظ عليها، لأن هذا هو الواجب الكامل للإنسان»[1]، «مبارك كل واحد يخاف من الرب»[2]، «اخْشَهُ فهو الذي بعدما قتل امتلك القدرة على أن يرمي في النار، نعم، إنني أقول لكم. خافوا منه واخشوه»[3].

وفي القرن الثالث لم يكن بإمكان رجل الكنيسة، الأب تيرتوليان Tretallian أن يتصور كيف لا يمكن للرب أن لا يطلب الخوف:

«لكن كيف يمكنك أن تحب، فمن دون بعض الخوف أنت لا تحب، ومن المؤكد أن مثل هذا الرب هو ليس أباك، الذي تتجه نحوهُ بحبك، فمن أجل الواجب ينبغي أن يكون هذا الحب ممزوجاً بالخوف، بسبب قدرته وقوته، وليس لأنه هو ربك الصحيح ومولاك الذي ينبغي أن تحبه لإنسانيته، وتخشاه مثلما تخشى أستاذك»[4].

وكان إيمان المرء حول رب له نفوذه وتأثيره على إيمان الإنسان حول المجتمع، وذلك حسبما جاء في الصلاة الربانية وتقرر: «من المتوجب تنفيذ إرادة الرب على الأرض، مثلما يجري تنفيذها في السماء»، ويعتقد المسيحيون الأرثوذكس بأن على الناس الخوف من حاكمهم الأرضي مثلما يخافون من الرب.

وفي القرن الرابع وصف القديس خريسوستون Chresostom الضرورة الحتمية للخوف بقول: *«إذا كنت ستقوم بتجريد العالم من القضاة، ومن الخوف الصادر عنهم، فإن البيوت، والمدن، والأمم سوف تتهاوى بعضها فوق بعض في فوضى لا يمكن ضبطها، لأنه ليس هناك أي واحد يضغط عليهم، أو يردعهم، أو يقنعهم أن يعيشوا بسلام من خلال الخوف من العقوبة»*[5]، وهكذا كان الخوف بالنسبة للأرثوذكس أمراً ضرورياً للحفاظ على النظام.

ووجد المسيحيون أنفسهم - حسبما ألح مرقيون في القرن الثاني على طبيعة الرب في أنه رحيم، وعفو ومحب - في وضع شاذ مع الأرثوذكس، وفي أعين المسيحيين الأرثوذكس، ينبغي أن يكون الرب مقطباً ميالاً إلى الغضب، ويطلب التمسك بالطاعة والنظام وبالمعاقبة، فقد كتب تيرتوليان:

«الآن إذا كان رب مرقيون مجرداً من مشاعر التنافس، أو الغضب، أو التدمير، أو الإيذاء، هو سيكون مثل شخص ممنوع من ممارسة السلطة القضائية، فأنا لا يمكنني الحديث عن أي نظام للطاعة - وأيضاً نظام للغفران المطلق - يمكن أن يوجد فيه»[6].

وقد اقترح الباحثون بأن السطر الأول في العقيدة المسيحية الذي جاء فيه: «إنني أؤمن برب واحد، هو الآب القدير، صانع السموات والأرض» قد كتب بالأصل لإبعاد المرقونيين واستثنائهم بالإلحاح على الطبيعة الوحدانية والقضائية الحكيمة للرب[7].

وركز المسيحيون الأرثوذكس تركيزاً كبيراً على السلطة الفردية للأسقف، وعلى المراتب داخل رجال اللاهوت، وعلى التميز بين رجال اللاهوت والعلمانيين، وذلك حسبما أعلن الأسقف الأنطاكي إغناطيوس Ignatiucs، الذي هو من القرن الأول، بأنه لا يمكن أن يكون هناك سوى أسقف واحد في الكنيسة[8]، حيث قال: *«وأسقفك يترأس في مكان الرب، وكاهنك في موضع. . . الرسل»*، ثم استطرد يقول: *«ومن دون هؤلاء ليس هناك كنيسة»*[9]، وعلى كل حال إن مثل هذه العقائد والميول، لم يتشارك بها جميع المسيحيين، فهذا أمر مؤكد، ويلح الأرثوذكس على المرتبة إلى حد أن واحداً من الغنوصيين المسيحيين كتب عنهم: «يريدون أن يأمر أحدهم الآخر ويقوده في مطامحهم العابثة، ويتشوقون برغبة عارمة وشبق إلى السلطة، أحدهم فوق الآخر، وكل واحد منهم يعتقد أنه متفوق كثيراً على الآخر»[10].

ولم يقبل جميع المسيحيِّين الإيمان بفرد متفوق، فقد فهم بعض المسيحيين الرب على أنه متعدد الوجوه، وله صفات ذكورية وأنثوية في آن واحد، واعتقد بعضهم بأن الألوهية هي مزدوجة الطبيعة: الجانب الأول هو غير المدرك، والعمق، والأب الرئيس الأول، في حين أنَّه في الجانب الآخر: النعمة، والصمت والرحم والأم

للجميع[11]، وفي إنجيل يوحنا الغنوصي العرفاني، ظهرت رؤيا للرب وهو يقول: «أنا الآب، أنا الأم، أنا الولد»[12]، وقد قال ثيودوسيوس، وهو معلم غنوصي: «كل واحد يعرف الرب من خلال تكوينه هو وشكله، ولكن ليس الجميع وفق الطريقة نفسها»[13]، ولتتبع جذور المسيحية الغنوصية من الأرثوذكسية، نجد أن الأسقف الأرثوذكسي الغنوصي إيرينايوس Irenaeus من القرن الثاني قد شجع المسيحيين على الاعتراف باللسان برب واحد هو الآب[14].

ومن دون الإيمان بفرد متفوق، تبع ذلك أيضاً، أن المسيحيين الغنوصيين أقدموا أيضاً على رفض النظام التسلسلي اللاهوتي، والأخذ بالترتيب الدقيق للمراتب داخل كنيستهم، وفي مقابل الغنوصيين الأرثوذكس لأنطاكية، الذين آمنوا بأن مراتب: الأسقف، والكاهن، والشماس، هي مرآة للمراتب السماوية[15]، لم يميز بعض المسيحيين حتى فيما بين رجال اللاهوت والعلمانيين، وكثيراً أكثر المراتب بين رجال اللاهوت، وقد وصف تيرتوليان الغنطوسيين بقوله:

«وهكذا فإن واحداً من الناس هو أسقف في أحد الأيام، وفي التالي واحد اخر، والرجل الذي هو اليوم شماس غدا هو قارئاً، والذي هو اليوم كاهن هو رجل علماني في اليوم التالي لأنهم يفرضون حتى على العلمانيين أعمال رجال اللاهوت ووظائفهم».

و:

«. . . . وبإمكان الجميع الوصول إلى المساواة، فهم يصغون بمساواة، ويصلون بالتساوي، وإذا صدف ووصل أحدهم. . . هم أيضاً يتشاركون بقبلة السلام مع جميع الواصلين»[17].

ولم يكن في داخل البناء العقائدي الأرثوذكسي مفهومٌ حول تقاسم السلطة والسيادة بين الجنسين الذكر والأنثى، وأن واحداً ينبغي أن يكون متفوقاً على الآخر، وكانوا يتصورون بأن الوجه الفردي للرب هو وجه ذكر، وعدّ المسيحيون الأرثوذكس سيادة الذكر امتداداً للنظام السماوي، فقد كتب القديس أوغسطين في أوائل القرن الخامس: «ينبغي أن نخلص إلى أن الزوج قد قصد به أن يحكم على زوجته مثلما يحكم الروح على الجسد»[18]، وحاول القديس بولص في رسالته الأولى إلى الكورنثيين أن يشرح السبب لهذه السيادة بقوله:

«لأن الرجل لم ينبع بالأصل من المرأة، بل عملت المرأة وخلقت من الرجل، ولم يخلَقِ الرجل من أجل المرأة، لكن المرأة خلقت من أجل الرجل»[19].

وإلى تاريخ متأخر هو عام 1977 ظل البابا بولص السادس يوضح بأن النساء ممنوعات من الدخول في سلك الكهنة «بسبب أن ربنا هو رجل»[20].

وتوجب على النساء بين الأرثوذكس أن يأخذن أدواراً تتسم بالخضوع، حيث قال القديس بولس في رسالته الأولى إلى تيموثي:

«على النساء أن يتعلمن بصمت مع الجميع الطاعةَ والخضوع، فأنا لا أسمح لأية امرأة أن تعلم رجلاً، أو أن تكون لها سلطة على الرجال، بل عليها أن تحافظ على الصمت»[21].

وعندما قام رهبان مسيحيون في القرن الرابع بتقطيع العالمة الكبيرة هايباتيا Hypatia حتى الموت بأصداف المحار، أوضح القديس سيرل Cyril ذلك وعلله، لأنها كانت امرأة مثيرة للاضطراب حيث تصدرت، على الرغم من أوامر الرب إلى تعليم الذكور[22].

وكان هناك - على كل حال - مسيحيون مبكرون، لم يعتنقوا لا فكرة بأن الرب كان حصراً ذكراً، ولا مفهوم سيادة الذكر، وهناك مجموعة مبكرة هي مجموعة الإيسينِّين - التي جرى الكشف عن كثير من كتاباتها في مخطوطات البحر الميت - قد آمنت أنَّهُ من القداسة امتلاك ملامح وتوجهات نسائية، فقد قال يسوع في إنجيل الايسينين للسلام: سوف أقودكم إلى ملكوت ملائكة أمنا»[23]، ويخبرنا نص غنوصي كيف أن حواء ابنة صوفيا (الحكمة) التي رغبت في أن يعطي الضوء الأول في العالم، الحياة إلى آدم قائلاً:

«. . . . قالت [حواء]: عش يا آدم، انهض وقف على الأرض، وعلى الفوْر صارت كلمتها فعلاً، لأنه عندما نهض آدم وقام، فتح على الفور عينيه، وعندما رآها قال: أنت سوف تدعين أم الحياة، بسبب أنك التي أعطيتني الحياة»[24].

ولم تتقبل جميع المسيحيات المبكرات أدوار الخضوع، في حين أنه لدى الغنوصيين سلسلة واسعة من الآراء، حيث تشير كثير من كتاباتهم إلى مريم المجدلية

على أنها واحدة من أكثر القادة أهمية للحركة المسيحية المبكرة، ويعتقد بعضهم أنها كانت أول من رأى قيامة يسوع المسيح، وأنها تحدت سلطة بطرس كجزء من ظهور المراتب اللاهوتية الكنسية، وقد ارتعب تيرتوليان تجاه دور المرأة بين الغنوصيين بقوله:

«... نساء الهراطقة لعوبات خليعات! ذلك أنهن جريئات بما فيه الكفاية للقيام بالتعليم، وبالمناقشة ولأن يعملن بكتابة التعاويذ، ولأن يقمن بالمداواة، لا بل يمكنهن القيام حتى بالتعميد»[25].

وكان هناك نقطة أخرى من نقاط الخلاف بين المسيحيين قد تعلقت بمعالجة طبيعة وصدق كيف يمكن للفرد أن يغدو ملهماً ومتنوراً كثيراً في مناقشاته المتمركزة حول قيامة المسيح، وحول فيما إذا كان جسد المسيح أم روحه، هو الذي قام، ويصر المسيحيون الأرثوذكس على أن جسد المسيح هو الذي قام[1]، ولكي نستخدم كلمات تيرتوليان: «عاني جسده وتألم مع دم، جسده الذي بنيَ مع العظام، ونسج مع العروق، وتخللته الأعصاب»[26]، وقد آمنوا بما أن القيامة كانت بالجسد، فإنها حصلت مرة واحدة ولن تكرر مرة ثانية.

ويصر الأرثوذكس على أن الإنسان يمكنه أن يتعلم عن المسيح، فقط من خلال الذين عايشوا هذه القيامة وشاهدوها، أي الرسل، أو الرجال الذين جرى تعيينهم بمثابة خلفاء لهم، وحصر هذا القوة والسلطة في إطار قلة، وأرسى قواعد سلسلة محددة من الأوامر[27]، وقد حدد هذا الآفاق التي يمكن للإنسان أن يكتشف فيها الرب، ويدعي الأرثوذكس والكاثوليك (عالمياً) المسيحيين أنهم هم الخلفاء المعيّنون للرسل وعلى هذا هم وحدهم الذين يمكنهم تنوير الآخرين، وهكذا أعلن الأسقف ايرينايوس Irenaucs:

«من المتوجب إطاعة الكهنة الذين هم في الكنيسة... الذين يمتلكون الخلافة من الرسل، فهؤلاء - مع الذين يمتلكون الخلافة من الأساقفة - قد تسلموا منحة خاصة من الصدق»[28].

---

(1) هل يقوم جسد من الموت ويعود إلى الحياة من دون روح؟.

وإلى هذا اليوم يرجع البابا سلطاته واحتلاله المقام الأعلى إلى بطرس نفسه «أول الرسل»، لأنه كان أول شاهد على القيامة[29].

وعلى كل حال، يدّعي بعض الغنوصيين، الاعتقاد بقيامة المسيح ويحدده بشكل حرفي بأنه كان بالجسد وليس بالروح، بأنه «إيمان الحمقى»[30]، وهم يصلون إلى محصلة مع فكرة أن ما من واحد قد شاهد جسد المسيح بعد القيامة، وذلك مع التأكيد على أن بطرس كان أول من واجه قيامة المسيح[1]، لا بل حتى إنَّ الإنجيلين الرسميين لمرقص ويوحنا حين يرويان كيفية ظهور المسيح أولاً يؤكدان بأن هذا الظهور لم يكن لبطرس أو إلى الرسل، بل إلى مريم المجدلية[31]، ويقول يسوع لمريم: «لا تلمسيني»[32]، يعتقد بعضهم، أراد يسوع أن يبين بأنه كان في الروح ولم يكن بالجسد، وبذلك مؤمنين بأن قيامة المسيح بالروح، يدلك بوضوح على أن أي واحد بصرف النظر عن كونه أنثى أو ذكر، وعن مرتبته، يمكنه أن يتعايش أو أن «يرى الرب» في المنامات أو بالرؤى، وبالتالي أي واحد يمكنه أن يصبح مشحوناً بالمقدرة مع السلطة نفسها مثل الرسل[33]، وأن أي واحد يمكنه تحقيق الوصول، ومن ثم تطوير علاقاته، أو علاقاتها مع الرب.

والمسيحيون غير متفقين حول الطبيعة الأساسية للصدق، فبالنسبة للأرثوذكس، الذين يؤمنون بأن الصدق يمكنه أن يأتي فقط من خلال تعاقب الرسل وخلافتهم، أنَّ الصدق كان محدداً ولم يتغير مطلقاً، أو أنه قد أبيح وكشف عنه مرة واحدة فقط عند القيامة، ونتيجة لذلك يمكن للإنسان لا بل ينبغي أن يعرف الرب من خلال الكنيسة فقط، وليس من خلال التقصي الذاتي، ولا من خلال خبرة الإنسان الشخصية، وهكذا عدّ الإيمان الأعمى أكثر أهمية من الفهم الشخصي، وكان الأسقف ايرينايوس حذراً ليس في طلب أجوبة «مثل التي يمكن لأي واحد أن يكتشفها بنفسه» بل بالحري في أن يقبل الإيمان الذي تعلمه الكنيسة والذي يمكن فهمه بوضوح، ومن دون تناقضات، وبصورة منسجمة[34].

---

(1) لقد قيل لهن: قام، لكن لم يشاهدن القيامة.

وكتب أيضاً يقول: «إذا . . . نحن لم يمكننا أن نكتشف شروحاً لجميع هذه الأشياء الموجودة في الكتابات المقدسة . . . ينبغي أن ندع الأشياء التي هي من تلك الطبيعة إلى الرب الذي خلقنا، وأن نكون متأكدين تمام التأكيد بأن الكتابات المقدسة هي بالحقيقة كاملة»[35].

وأعلن تيرتوليان:

«نحن لا نريد خلافات غريبة بعدما امتلكنا يسوعاً المسيح، ولا أسئلة بعدما تمتعنا بالإنجيل، ومع إيماننا نحن لا نرغب بمزيد من الإيمان»[36].

وينبغي على الإنسان أن يقبل من دون سؤال، وأن يخضع لكل ما تعلمه الكنيسة، وفي الحقيقة عدّ المسيحيون الأرثوذكس المتابعة الشخصية الشاقة للصدق والحقيقة، والفهم، هي مؤشر على الهرطقة، وذلك حسبما كتب تيرتوليان قائلاً:

«وجرى تعليم هذا القانون . . . من قبل المسيح، ولم يثر بيننا أنفسنا أي سؤال آخر، من الأسئلة التي أثارها الهراطقة وقدموها، وهي التي تجعل الناس هراطقة»[37].

وقال أيضاً:

«لكن على أية أرضية الهراطقة غرباء، وأعداء للرسل، إذا لم يكن من الخلاف في تعليمهم، الذي يقوم به كل فرد حسب هواه من دون أن يكون قد أسلف له أو تلقاه»[38].

وبما أن الأرثوذكس آمنوا بأن الصدق والحقيقة يمكن أن تكون معلومة فقط من خلال خلفاء الرسل، يمكن للإنسان أن يتعلمها فقط بقبول ما تعلمه الكنيسة بإيمان أعمى.

وعلى كل حال آمن آخرون بأن روح المسيح وحضوره يمكن لأي واحد أن يعيشه ويواجهه في أي وقت من الأوقات، على أساس التقدير بأن الصدق هو متحرك ويزداد بشكل دائم، ويعتقد بعض الغنوصيين بأن الصدق والغنطوس «العرفان» قد وجد ليس بوساطة النظر إلى الكنيسة، بل بوساطة أن ينظر الإنسان إلى داخل نفسه، فالعرفان الذاتي سوف يقود إلى معرفة الرب، وهكذا كتب واحد من أساتذة الغنوصيين قائلاً:

«انظر الرب باتخاذ نفسك بمثابة نقطة البداية . . . اعرف منابع الأسف، والسرور والحب، والكراهية . . . فإذا ما بحثت بعناية في هذه المسائل، فلسوف تجده في نفسك»[39].

وعلم في القرن الأول سيمون ماغوس Magous أنه يوجد في داخل كل إنسان ويسكن «القوة التي هي بلا حدود . . . والتي هي أصل العالم»[40]، ويتعلق بالطريق إلى التنوير ويرتبط به ليس فقط ببساطة قبول كلام الكنيسة حول الإيمان، بل ببحث شخصي فعال من أجل الفهم، وجاء في نص غنوصي قوله: «النفس العاقلة هي التي تتعب ذاتها في البحث، وهي التي تعلم عن الرب»[41].

ويؤمن هؤلاء المسيحيون في البحث الشخصي والتقصي، وأنه لا يمكن أن يكون منفصلاً عن الطريق الروحي للإنسان، وهكذا نقرأ في الإنجيل الغنوصي المنسوب إلى توما قول المسيح: *«إذا كنت مستقيماً، فإن الذي في داخلك، والذي تقدمه سوف ينقذك، وإذا لم تقوّم الذي هو في داخلك، إن الذي سوف لن تقدمه سيحطمك ويدمرك»*[42].

وقد آمنوا بأن البحث يمكن أن يطرد الجهل الذي ينتج الكوابيس ويوجدها، والتي فيها يجري تلبس الإنسان بكثير «من التصورات»، وأن يعاني «من الرعب والاضطراب، وعدم الاستقرار، والشك والانقسام»[43]، وهكذا نقرأ في إنجيل الصدق: «الجهل . . . يجلب الألم والرعب، ويزداد الألم ويغدو قاسياً صلباً مثل الضباب، ولذلك لن يستطيع أحد أن يرى»[44].

ويمكن للبحث في داخل نفس الإنسان أن يجلب المعرفة والتنوير لطرد مثل ذلك الجهل، وهم يؤمنون بأن يسوعاً قد شجع على البحث في الذات واستكشافها، فهو قد قال: «ابحث واطلب فلسوف تجد، واقرع، فلسوف يفتح لك» و«ملكوت الرب موجود فيك»[45].

وأراد الأرثوذكس أن يمتلكوا الإشراف على الصدق والتحكم به، ولذلك أرادوا إشرافاً دقيقاً على الذين يمكنهم من نشر ذلك الصدق، واختلف المسيحيون الأوائل بحدة حول دور الكنيسة، واعتقد المسيحيون الغنوصيون الذين قدروا تقديراً عالياً التقصي الذاتي، بأن بناء الكنيسة ينبغي أن يبقى مرناً، في حين أصر المسيحيون الأرثوذكس على الارتباط الدقيق بكنيسة واحدة[46]، وأصر الأسقف ايرينايوس على

أنه ينبغي أن تكون هناك كنيسة واحدة، وأنه في خارج الكنيسة «لا يوجد خلاص»[47]، وقد قال عن الكنيسة: «بأنها المدخل إلى الحياة وجميع الآخرين هم لصوص وحرامية»[48]. وكتب إغناطيوس أسقف أنطاكية: «ينبغي أن لا يخدع إنسان نفسه، وإذا لم يكن كل واحد في داخل المذبح، هو محروم من خبز الرب»[49]، وحاجج كليمنت أسقف روما من 90 إلى 100م بأن الرب وحده يحكم كل شيء، فهو الذي وضع الشريعة، وهو الذي يعاقب العصاة، ويكافئ المطيعين، وأن سلطاته قد عهد بها نيابة عنه إلى قادة الكنيسة، وذهب كليمنت إلى حد القول بأن كل من لا يطيع هذه السلطات المرسومة لاهوتياً، هو غير مطيع للرب نفسه، وينبغي أن يتلقى عقوبة الإعدام[50].

وقبل وقت طويل من محاولة الكنيسة الإشراف والتحكم الروحي، أقدمت على اتخاذ أدوات مدمرة، وكانت بذور طغيانها واضحة في عقيدة المسيحيين الأرثوذكس الأوائل، فقد حدد إيمانهم بوجود سيادة فردية الطريق الذي يمكن للإنسان به أن يفهم الرب، وأزال تمام الإزالة أي تمثيل بالمشاركة في السيادة، وشجع الرعب المؤسس على بناء سلطوي حشر الناس إلى أوضاع هي إما السيادة والتفوق أو الدونية، وضيقت على القوة الشخصية الذاتية، وطلبت طاعة عمياء من دون سؤال، ومع أن المسيحيين الأرثوذكس مثلوا فقط فرعاً واحداً من بين كثير من الفروع المبكرة، تمكنوا خلال عدة قرون بشكل فعال من إخضاع الأنواع المختلفة من العقائد والأفكار، وأصبحت العقائد الأرثوذكسية مترادفة مع المسيحية نفسها.

الفصل الثاني

مناورات سياسية جعلت المسيحية مقبولة من قبل الرومان ومستساغة (200 - 500م)

تدين المسيحية بالانتماء الكبير إليها إلى مناورات وتحركات المسيحيين الأرثوذكس، فلقد نجحوا في تحويل المسيحية من عقيدة صغيرة ممقوتة، إلى ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، فلقد كان هدفهم ما دعاه الأسقف إيرينايوس هو خلق «الكنيسة الكاثوليكية المنتشرة في جميع أرجاء العالم كله، حتى إلى نهاية الأرض»[1]، وللوصول إلى هذه الغاية استخدموا تقريباً كل وسيلة، لقد أعادوا النظر في الكتابات المسيحية، وعدلوا مثلهم وكيفوها لجعل المسيحية أكثر قبولاً، فلقد عملوا بمثابة سماسرة قوادين للسلطات الرومانية، ودمجوا عناصر من الوثنية وتبنوها، وتوسلوا إلى الحكومة وتقربوا منها، ليس كديانة سوف تشجع التنوير أو الروحانية، بل بالحَرِيّ كحركة سوف تعيد النظام والطمأنينة إلى الإمبراطورية المتخلخلة الأوصال، ومنحت الحكومة الرومانية بدورها المسيحيين الأرثوذكس امتيازات لا سابق لها ولا نظير، ممكنة الكنيسة المسيحية بذلك أن تصبح نوع القوة السلطوية نفسها بالذات، التي قاومها يسوع.

ولم يكن الحصول على قبول المسيحية إنجازاً ولا نجاحاً صغيراً، ذلك أن المسيحية لم تكن مقبولة كثيراً داخل الإمبراطورية الرومانية، وبسهولة دمج الرومان

الأرباب الجدد والربات الجديدات في منظومة آلهتهم مع الأمل بالزيادة والإضافة إلى حمايتهم وأمنهم، ففي سنة 313م على سبيل المثال منح مرسوم ميلانو الحرية الدينية إلى كل واحد، وبذلك «يمكن لأي إله متوج في السماء، أن يعرض بصورة جيدة وبشكل موائم لنا وإلى جميع الذين تحت سلطتنا»[2]، وبالنسبة للمسيحيين الذين على كل حال آمنوا بأن إلههم هو الإله الواحد، رفضوا بأن يسمح له بأن يعبد مع الآخرين، وعندما رفض المسيحيون الإعلان عن إيمانهم بمجموعة الآلهة الرومان نظر إليهم أنَّهم يشبهون الخونة للإمبراطورية الرومانية، لأنه منذ أن بدأ الأباطرة الرومان في تقديم أنفسهم بمثابة آلهة، مثلت الطاعة والإخلاص إلى الآلهة الرومان الطاعة والإخلاص إلى الإمبراطورية الرومانية.

وكانت ميول المسيحيين وتصرفاتهم قد جعلتهم غير محبوبين من قبل الرومان، وعلى سبيل المثال أعلن الأسقف إيرينابوس: «نحن لسنا بحاجة إلى القانون، لأننا فوقه محلقين في سلوكنا الرباني»[3]، وعكست الروايات منذ حوالي 200م عدم محبة الرومان للمسيحيين:

«. . . إنهم كانوا قذارة نهائية، عصابة من الرجال الجهلة، والنساء غير الموثوقات، الذين في اجتماعاتهم في الليل، عملوا مع الصوم الجدي والطعام اللاإنساني، فتحة في الزاوية، وهم عصبة يحبون الظلال، ويصمتون بين الناس ويلتجئون مبتعدين إلى الزوايا، ويبصقون على الآلهة ويضحكون على الأشياء المقدسة. .»[4].

ومع ذلك وعلى الرغم من مثل هذه الأجواء، كسب المسيحيون ليس فقط القبول بل المكانة السياسية الرفيعة كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية تحت حكم الامبراطور قسطنطين في القرن الرابع.

واستخدم الأرثوذكس وسائل سياسية موائمة للوصول إلى هذه الغاية، وهم صمموا تنظيماً وصنعوه ليس للتشجيع الروحي بل لجذب وتدبر العدد الأكبر من الناس، وقد بسطوا الشروط من أجل العضوية، وقررت الكنيسة الكاثوليكية أن أي واحد يؤمن بالعقيدة، ويقبل العماد، ويشارك بالعبادة، ويطيع المراتب اللاهوتية للكنيسة و«يؤمن بوجود حقيقة صادقة واحدة، هي الحقيقة الصادرة عن الرسل، التي جرى تسليمها إلى الكنيسة، هو مسيحي»[5]، وحسبما كتب واحد من المؤرخين، بأن

مثل هذه الشروط تقترحُ أنك «حتى تصل إلى الخلاص، يحتاج الجاهلون إلى الإيمان، لكن فقط من دون فهم، وإلى إطاعة السلطات . . »[6]، وتجاهل الأرثوذكس الحجة بأن المسيحي الحقيقي يمكن تحديده فقط من خلال سلوكه (أو سلوكها) ونضجه، وليس فقط من خلال ممارسة حركات الطقوس، وأصر - على سبيل المثال - بعض المسيحيين الغنوصيين على أن يسوعاً قد قال: «بثمارهم أنت سوف تعرفهم . . . »[7]، وقالوا بأن التعميد ليس أمراً ضرورياً لعمل الإنسان مسيحياً، بما أن كثيراً من الناس «ينزلون إلى الماء ويغطسون ويخرجون دون أن يتسلموا أي شيء»[8]، وعملت المعايير البسيطة للأرثوذكس هذا الأمر أسهل بكثير للحصول على أتباع كثر.

وقام المسيحيون الأرثوذكس بتجميع التوراة ليس من أجل وضع الأناجيل والأسفار مع بعضها بعضاً، بل بالحري لتشجيع المظهر الرسمي الموحد، وقام الأسقف ايرينايوس بتصنيف أول قائمة للكتابات التوراتيّة من الأناجيل المسيحيّة المتلئة وتشبه هذه القائمة العهد الجديد لهذه الأيام، وكان قد فعل ذلك في حوالي 180م، ومع عام 393 وعام 397م امتلك الأسقف أثناسيوس قائمة مشابهة، جرى التصديق عليها واعتمادها من قبل المجمعين الكنسيين اللذان عقدا في هبو Hippo وقرطاج[9]، وبمنع وتحريم وحرق الكتابات الأخرى أعطت الكنيسة الكاثوليكية الانطباع نهائياً، بأن هذه هي التوراة والأناجيل القانونية الأربعة تمثل وحدها فقط وجهة النظر المسيحية، ومع ذلك ففي تاريخ متأخر هو عام 450م قد قال ثيودور أوف سيروس Cyrrus بأنه كان هناك ما لا يقل عن مائتي إنجيل مختلفة متداولة في أسقفيته[10]، لا بل إنه حتى إنَّ الموسوعة الكاثوليكية تقرّ الآن وتعترف «بأن فكرة وجود عهد جديد قانوني واحد كامل وواضح تماماً، قد وجد منذ البداية . . . لا تمتلك قاعدة في التاريخ»[11].

وفضلاً عن قيام الكنيسة بالانتقاء من الأناجيل الكثيرة ومن الكتابات لبناء التوراة وهيكلته، حررت الكنيسة رسالتها مع كل ترجمة، وكان الفيلسوف الروماني سيلسيوس Cellsus شاهداً على أعمال تزيف الكتابات المسيحية التي كانت قد تمت في القرن الثاني، وقد قال عن المراجعات والتعديلات:

«وأنتج بعضهم، كما لو كانوا في حالة سكر شديد، رؤى وأحلاماً صادرة عن قناعة ذاتية، وأعادوا تكوين إنجيلهم وتشكيله من أول شكل من أشكال كتابته وتصنيفه، فلقد أعادوا تكوينه وشكله حتى يكون قادراً على رفض الاحتجاجات التي قلمت ضله»[12].

واعترفت الموسوعة الكاثوليكية بأنه «في جميع الدوائر والإدارات كانت هناك أعمال تزييف وإقحام بدرجة الجهالة، قد أحدثت سوءاً على مستوى رفيع»[13]، وعلى الرغم من أوامر التحريم والمنع الكنسية ضد التعمق بالأبحاث ومتابعتها حول أصول الأناجيل، أظهر العلماء بأن الأناجيل القانونية الأربعة، قد جرى تزويقها مع إعادة النظر في نصوصها[14]، وفي الوقت الذي ادعت فيه الكنيسة بأن الصدق كان محدداً من حيث الطبيعة، وقد ظهر بالإلهام مرة واحدة، لقد تابعت العمل لإيجاد سبب ما من أجل تغيير ذلك الصدق.

ولم تنجح المحاولات في سبيل توحيد مظهر العقيدة وتكوينها تماماً، حتى إنَّ الأناجيل الأربعة القانونية يتعارض واحدها مع الآخر، فإنجيل متى يخبرنا بأن يسوعاً كان من أصل أرستقراطي، من داود عبر سليمان، في حين أننا نجد إنجيل لوقا يخبرنا بأن يسوعاً كان منحدراً من جماعة أكثر تواضعاً، ويقول إنجيل مرقص بأن يسوعاً قد ولد لنجار فقير، وتبعاً لمتى جرت زيارة يسوع عند ولادته من قبل ملوك، ولكن تبعاً للوقا لقد جرت زيارته من قبل رعاة، وروى لنا إنجيلا مرقص ومتى، أنه عند وفاة يسوع كانت آخر كلماته: «ربي، ربي، لماذا تخليت عني وهجرتني؟»، ولكن تبعاً لإنجيل لوقا كان قد قال: «أبي إنني أعهد إليك بروحي، وأضعها بين يديك»، وقال بكل بساطة في إنجيل يوحنا: «لقد انتهى»[15]، وكما سأل كتّاب «الدم المقدس، الكأس المقدس»: «كيف يمكن للأناجيل أن تكون غير كاذبة عندما يكذب أحدها الآخر؟»[16]



اعتقد الإمبراطور الروماني قسطنطين بأن المسيحية سوف تزوده بوسائل سياسية وعسكرية أكثر قوة، وتصوره هذه اللوحة عشية معركة مهمة عندما قيل: بأنه قد رأى صليبا في السماء قد كتب عليه: «في هذه العلامة أنت سوف تنتصر».

ومع هذا كان إصرار الكنيسة على وحدة مظهر العقيدة هو الذي راق للإمبراطور الروماني قسطنطين وأعجب به، فقد كان قسطنطين رجلاً أمر بإعدام ابنه وبإلقاء زوجته بالماء الذي يغلي وهي حية[17]، ولقد رأى هذا الرجل في المسيحية وسيلة نافعة في تقوية قدرته العسكرية، وفي توحيد الإمبراطورية الرومانية الواسعة والمضطربة، وأما القصة التي تحدثت عن منام قسطنطين الذي اقتاده إلى قبول المسيحية، حيث إنَّه رأى في منامه صليباً في السماء مكتوباً عليه الكلمات التالية: «في هذه العلامة أنت سوف تنتصر»، فهي مجرد حكاية لأن قسطنطين تحول شخصياً إلى المسيحية فقط عندما كان على فراش موته، فقد اعترف قسطنطين بالمسيحية كمجرد وسيلة للتغلب على التمزق داخل الإمبراطورية الرومانية، وكذلك عوضاً عن الديانة الرومانية الرسمية وبديلاً لها.

وأبعد المسيحيون الأرثوذكس المسيحية عن التعايش مع العصيان السياسي، وهم في جميع الأحوال والمظاهر كيفوا الحقيقة حول تورط يسوع السياسي، مقررين وزاعمين بأن اليهود – وليس الرومان – هم المسؤولون عن موته، فلقد تجاهلت الأناجيل الرسمية بكل وضوح التوتر المتزايد عن المقاومة اليهودية للاحتلال الروماني لليهودية أثناء حياة يسوع، وهناك استثناء واحد موجود في إنجيل لوقا، عندما روى كيف أن السلطات قد «وجدت هذا الرجل [يسوع] يقف ضد دولتنا، ويحرم على [اليهود] دفع الجزية لقيصر»[18]، وبعد أقل من أربعين عاماً مضت على موت يسوع تفجر ذلك التوتر إلى حرب عنيفة بين الجيش الروماني واليهود.

وكان يسوع – كما هو مرجح – قد انشغل في شؤون أيامه، بحكم أنه كان قائداً سياسياً وروحياً، واصطلاح «مسيح» في كل من العبرية والإغريقية، كان لقباً فعالاً له دلالته مثل لقب «ملك» أو «قائد»[19]، وإذا ما أعطينا الأجواء السياسية حقها، يبدو من المرجح كثيراً، أن الرومان هم – وليس اليهود – الذين قتلوه بسبب نشاطه السياسي، وكان الصلب هو المعيار للعقوبة التي استخدمها الرومان ضد التمرد والعصيان، وكان الصليب هو شعاراً مثّل المقاومة اليهودية للاحتلال

الروماني[20]، ويبدو مرجحاً تماماً أن توجيه اللوم إلى اليهود عن موت المسيح، كان وسيلة موائمة لحجب تورط المسيح السياسي، ولإقصاء المسيحية عن التعايش مع الثورة السياسية[21].

وما أنْ حصلت المسيحية على المكانة العليّة، حتى سمح الأرثوذكس إلى الإمبراطور الروماني بأن يمتلك تأثيراً مباشراً على العقيدة المسيحية، وعلى تسوية الخلافات العقائدية في الكنيسة، فلقد تمّ إقناع قسطنطين، فكان أن ترأس أول مجمع كنسي مقدس في نيقية عام 325م، وفي كتاب «الهرطقات» وصف مؤلفه وولترنيغ وسائل الوصول إلى قرارات المحصلات بقوله:

«حصل قسطنطين، الذي عالج المسائل الخلافية الدينية من وجهة نظر سياسية محضة، على الإجماع، بنفي جميع الأساقفة الذين رفضوا التوقيع على صيغة الإيمان الجديدة، وبهذه الوسيلة تحقق الوصول إلى الوحدة، والقضية كلها مع بعضها لم يسمع بمثلها من أن عقيدة عالمية ينبغي أن تفرض لوحدها دون سواها بناء على سلطة الإمبراطور، الذي كان كصياد لم يجر حتى قبوله بعد لتلقي أسرار القربان المقدس، وكان تماماً غير مفوض لأن يمتلك السلطة على الأسرار الخفية العليا للعقيدة، ولم يتفوه أي أسقف بأية كلمة ضد هذا الشيء الرهيب»[22].

وكان واحداً من القرارات السياسية التي تم التوصل إليها في مجمع نيقية هو تأسيس العقيدة النيقاوية، وهي وسيلة استهدفت حفظ العقيدة بالإيمان بقوة واحدة متفوقة سليمة، وفي الوقت نفسه مثل ذلك دمج يسوع في صورة الرب، وبذلك جاء عدم عدّ يسوع بأنه فانٍ، فهو واجهة للرب ومظهر له، الرب الذي ينبغي فهمه كآب، وابن، وروح قدس، ومثلت عقيدة التثليث الجديدة هذه وحاكت كثيراً صورة تأليه قديمة حوت قيمة الخلاف وتضمينه، فعلى سبيل المثال نجد صورة الرب في الكتاب الغنوصي السري ليوحنا في قوله: «أنا الآب، أنا الأم، أنا الابن»[23]، وهذه توضح فكرة التعاون والتداؤب، حيث إنّ الجميع خلقوا بشكل أعظم منهم كجملة أجزاء ويخبرنا نص آخر اسمه «حكمة يسوع المسيح» كيف أن قوة الذكورة والأنوثة قد خلقا معاً:



صورة تمثل الثالوث المسيحي وهو مفهوم سمح بأن يعدّ يسوع جزءاً من الرب، مع الاحتفاظ بعقيدة التفوق الأحدي، وهي قد أخذت المفهوم الأقدم حول التثليث الذي أوضح قيمة الفرق، والذي فيه خلق رجل وامرأة بالتداؤب شيئاً أعظم منهما معاً، ووضعته مع تثليث لا مثيل له.

«. . . جرى أولاً إنجاب ولد خنثوي، أو بين بين، وكان اسمه الذكري "الابنة المنجبة الأولى صوفيا، أم العالم"، ويدعوها بعضهم باسم "الحب"، وكان الآن اسم المولود الأول المنجب هو "المسيح"»[24].

لا بل حتى فيما بعد أخطأ قرآن الإسلام (كذا) في تناول مسألة الثالوث المسيحي[(1)]، لأن هذا الطراز البدئي يشير إلى ثالوث: الرب، مريم، ويسوع[25].

وأسست العقيدة النيقاوية عقيدة تثليث مجدت التشابه والانفرادية، ويشير الجميع إلى فعل تداؤبي، وطاقة وسحر، يمكن أن تنتج عن اتحاد شخصين مختلفين مع بعضهما، ولكن ذلك ضاع، وأزال المجمع صورة الأب والأم والابن، ووضع مكانهم الاصطلاح العبري الأنثوي للروح (روح) مع الاصطلاح الإغريقي الحيادي، بين بين، (ليس ذكر وليس مؤنث)[26] Pneuma، وضم الثالوث الآن: الأب، الابن، والروح الحيادي الذي ليس له جنس، وصوّره المسيحيون على شكل ثلاثة شباب أشكالهم متماثلة في المظهر[27]، وفيما بعد سوف تتولى قداسات العصور الوسطى تشبيه الثالوث «بانعكاسات متماثلة صادرة عن عدة قطع من مرآة متكسرة، أو بالتركيب المتناظر للماء، والثلج، والجليد»[28]، وسوف يقوم اثنان من البابوات بتحريم كتاب «المدينة الأسطورية Mystical للرب» الذي ألفته الراهبة الإسبانيَّة مريم دي أغريدا d'Agreda لأنها أدرجت ثالوثاً بين الرب، مريم، ويسوع[29]، وضاعت جميع الإشارات إلى قيمة الخلاف، وبات من المتوجب تصور الألوهية بمثابة صورة مفردة، إما صورة ذكر، أو صورة بين بين، لكن ليست مؤنثة.

ومع ذلك كان إيمانهم بالوجوه المتعددة للرب، هو الذي ساعد الرومان على التواؤم مع المسيحية، ولم يكن مرد ذلك إلى فرادة اللاهوت والعقيدة المسيحية، وتشابه المسيحية مع بعض عناصر العقيدة الرومانية، خاصة بالنسبة لعبادة ميثرا، أو الميثراوية، وكان ميثرا «الحامي للإمبراطورية»[30] موصولاً عن قرب بإلهي الشمس هليوس Helios وأبولو، وكان عيد ميلاد ميثرا هو 25 كانون الأول، القريب من الانقلاب الشتوي، وقد صار هذا التاريخ هو عيد ميلاد يسوع، وكان مقرراً للرعاة شهود ميلاد ميثرا والمشاركة في العشاء الأخير مع ميثرا قبل عودته إلى السماء[31]،

---

(1) هذا سوء فهم، مرده إلى المرجع المنقول عنه، على الكاتبة العودة إلى نص القرآن الكريم والإحالة عليه.



جاء عدُّ اليهود وليس الرومان مسؤولينَ عن صلب يسوع وسيلة لجعل المسيحية أكثر قبولاً لدى الحكومة الرومانية، وبذلك تمّ تجاهل إمكانية الدور الثوري الممكن للمسيح.

ويرتبط صعود ميثرا مع عودة الشمس إلى السمو في حوالي وقت الاعتدال الربيعي، وقد أصبح هذا التاريخ موعد عيد الفصح المسيحي، واستولى المسيحيون على معبد الكهف المكرس لميثرا فوق تلة اللاتيران، عاملين منه مقر كرسي الكنيسة الكاثوليكية، وكان لقب الكاهن الأعلى لميثرا هو Pater Patrum، وما لبث أن أصبح لقب أسقف روما أي «البابا أو Pope»[32] وعلل آباء المسيحية التشابه المدهش مع الميثراوية، على أنه عمل الشيطان، وأعلنوا أن القصص المثراوية الأكثر قدماً هي مجرد تقليد آثم للإيمان الحقيقي الواحد[33].

ومن دون مبادرة تأييد من الكنيسة، أصبحت شخصية مريم مبجلة بمثابة أنها صورة الجانب الأنثوي للرب، وبالتناظر ما بين المسيحية والميثراوية، صارت عبادة مريم تشبه عبادة وجوه الربات، لاسيما وجوه تقاليد الأم والابن، مثل: ايزيس وحورس، جونو Juno ومارس، سيبل Cybele، وأتيس Attis، ونيث Neith، ورع Ra، وجرى تصور مريم على أنها أكثر قرباً، ومن الممكن الوصول إليها وأنها شخصية إنسانية ليست مثل الرب الحاكم القدير، فقد كانت أكثر لطفاً، وأعظم عفواً، وأكثر استعداداً لمساعدة الإنسان في شؤون كل يوم، وفي القرن الخامس وصف المؤرخ سوزومن Sozomen سمات مريم في كتابه عن الـ Anastasia في القسطنطينية بقوله:

«ظهرت القدرة اللاهوتية هنا وتجلت، وكانت معينة في رؤى اليقظة وفي الأحلام، وذلك في الغالب للإنقاذ من كثير من الأمراض، ولمعونة الذين تأثروا ببعض النوازل المفاجئة في شؤونهم، وعزيت القدرة إلى مريم، أم الرب، والعذراء المقدسة، لأنها أظهرت نفسها وفق هذه الطريقة»[34].

ولم تشجع التوراة ولا الكنيسة المبكرة العبادة المريمية، لا بل إنها لم تعترف بمريم كقديسة[35]، مع أن مجمع نيقية أعاد تأكيد بأن المسيح كان قد ولد بالفعل من العذراء مريم، وعبر في القرن الرابع الأسقف إيبيفانيوس Epiphanus عن عاطفة المسيحيين الأرثوذكس بقوله: «من المتوجب عبادة الآب، والابن والروح القدس، ولكن لا ينبغي لأحد أن يعبد مريم»[36]، ورسم الفن المسيحي خلال القرون الخمسة الأولى العذراء مريم وصورها في مقام هو حتى أدنى من مقام الحكماء المجوس الثلاثة، الذين أحيطوا بهالات بينما لم تحط بأي شيء[37]، وفي القرن الرابع اتهم

قديس خريسوستوم Chrysostom مريم بمحاولة الاستبداد «وجعل نفسها مشهورة ن خلال ابنها» ، وكان التقليل من أهمية مريم الطريق لتشجيع تعايشها مع ما قبل سيحية من أوجه الربات . وقد كتب الأسقف إبيفانوس :



سمحت الكنيسة المبكرة مكرهة بعبادة مريم العذراء. وبعملها هذا سمحت للعبادة الأنوثيه لما قبل المسيحية بالاستمرار ولكن تحت عنوان «عبادة مريم».

«نزل الرب وهبط من السماء ، وتجسدت الكلمة في جسد العذراء المقدسة ، من دون التأكيد بأن العذراء ينبغي أن تعبد ، أو يجعل منها ربة ، ولا أن علينا أن نقدم الأضاحي باسمها ، كما أنه الآن بعد مضي كثير من الأجيال لا يجوز مرة أخرى تعيين النساء كاهنات . . حيث لم يعطها (الرب) المسؤولية للقيام بأعمال التعميد أو بمباركة التلاميذ ، كما أنه لم يأمرها بأن تحكم فوق الأرض»[39] .

وكانت المسيحية ، حسبما فهمها الأرثوذكس ، تدور حول القدرة الفردية للآب ، والابن والروح القدس ، وليس حول أي جانب أنثوي للرب .

ومع هذا استمرت العبادة المريمية ، وعندما أعلن المجمع الكنسي في إفسوس عام 431م بأنه يمكن بشكل سليم عبادة مريم ، اندفعت الجماهير للقيام باحتفالات صاخبة وبهياج عظيم ، مصحوبة بمسيرات لحملة المشاعل وصراخ يقول : «الحمد لأم الرب»[40] ، وجرى بالنسبة للمعابد القديمة والأماكن المقدسة ، التي كانت من قبل مكرسة إلى ربات ما قبل المسيحية ، أن أعيد تكريسها أو استبدلت بكنائس لمريم ، ففي روما ، على تلة اسكوتاين Esquitine ، حلت كنيسة القديسة مريم الكبيرة محل معبد سيبل Cybele ، وعلى مقربة من البانثيون Pantheon جرى تكريس كنيسة لمريم بجوار معبد إيزيس Isis ، في حين بنيت كنيسة أخرى فوق الموقع الذي كان مكرساً لمينيرفا Minerva . وفوق الكابتول Capitoline في آراكولي Arcoeli ، حلت كنيسة القديسة مريم محل معبد الربة الفينيقية تينت Taint ، وفي قبرص نجد أن المعابد التي كانت على أرض أفروديت المقدسة ، قد غدت بسهولة كنائس مكرسة لمريم ، ومع ذلك فإن هذه الأرض ما تزال تعرف حتى هذا اليوم باسم Panaghia Aphroditessa[41] ، وكتب غيوفري آشي Ceoffrey Ashe واصفاً في كتابه «العذراء» :

*« صارت (مريم) مثل سيبل حارسة روما ، ومثل أثينا حامية للمدن الأخرى المختلفة ، ومثل إيزيس أشرفت على أعمال الملاحة البحرية ، فأصبحت وبقيت نجمة البحر ، ومثل جونو اعتنت بالنساء الحوامل . . . وقد لبست تاجاً يذكرنا بتاج سيبل ، وجلست على العرش مثل إيزيس وحورس ، لا بل إنها امتلكت لمسات مشاعر من نيث **Neith** حولها»*[42] .

ولم تقهر الكنيسة التبجيل للاهوت النسائي ، بل ببساطة أعادت تسميته .

ومهم بما فيه الكفاية أن النص المسيحي حول اللاهوت النسائي أقصى وأبعد صورة واحدة هي من أكثر جوانب القوة للربات، وهي صورة العجوز الشمطاء الحكيمة Crone، فقد كانت هنالك ثلاثة وجوه لاهوتية نسائية مشهورة بشكل عام قبل التقاليد المسيحية، وهي وجوه العذراء أو الفتاة Maiden، والأم، والعجوز الشمطاء، وتجسدت مريم في الاثنتين الأولى، بحكم أنها عذراء وأم، وجرى إبعاد الوجه الثالث وهو وجه العجوز الشمطاء الذي مثل ذروة القوة النسائية والحكمة، جرى إبعاده من قانون القديسين المسيحي، ورفض الكنيسة للعجوز الشمطاء مهم لأن شخصية العجوز الشمطاء تماماً هي التي ستغدو فيما بعد ممثلة للعدو النهائي للكنيسة، أي الساحرة.

وجنت الكنيسة مرابح كبيرة جداً بوساطة تكييف عقيدتها وبتبني عقائد رائجة، ففي عام 319م أصدر قسطنطين قانوناً أعفى فيه رجال اللاهوت من دفع الضرائب، أو من الخدمة في الجيش[43]، وفي عام 355م أعفي الأساقفة من المحاكمة مطلقاً في محاكم مدنية[44]، وفي عام 380م أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius مرسوماً جاء فيه:

«نحن سوف نؤمن بإله واحد، هو الآب، والابن، والروح القدس، تحت فكرة جلالة متساوية وثالوث مقدس.

1 - نحن نأمر الأشخاص الذين سوف يتبعون هذا القانون، سوف ينالون اسم مسيحيين كاثوليك، أما البقية فهم - على كل حال - الذين حكمنا بأنهم بلا عقل وحمقى، سوف يكابدون من وصمة العقائد الهرطقية، ولن تتسلم أماكن اجتماعهم اسم كنائس، ولسوف يضربون أولاً بالانتقام الرباني، وثانياً بعقوباتنا الأولية، التي سوف نمارسها وفقاً للأحكام الربانية»[45].

وجعلت قوانين ثيودوسيوس عدم الاتفاق مع الكنيسة عملاً غير قانوني، وفي عام 388م صدر حظر منع أية مناقشات علنية عامة للمواضيع الدينية.

ومنعت في عام 392م العبادة الوثنية القديمة المتعددة الأبعاد، وعدت عملاً إجرامياً، وفي عام 410م رسم الإمبراطور هونوريوس:

«ليعلم جميع الذين يعملون ضد الشرائع المقدسة بأن دبيبهم في أوهامهم الهرطقية وتسللهم للعبادة في هياكلهم النائية، عمل يعاقب مقترفه بالنفي وبالقتل،

وذلك إذا ما حاولوا مرة ثانية الاجتماع في مثل هذه الأماكن من أجل الأعمال الإجرامية . . .»[46] .

ونهبت المعابد الوثنية ودمرت، وفي عام 386م كتبت شكوى إلى الحكومة الرومانية حول نهب المسيحيين للمتبقي جاء فيها :

« . . إنهم إذا سمعوا (المسيحيون) بمكان فيه شيء ما يصلح للسلب، يقومون على الفور بالادعاء بأن واحداً من الناس يقوم بتقديم القرابين هناك، وأنه يقترف الآثام البغيضة، ولذلك عليهم القيام بزيارة تفقدية للمكان وقتها يمكنك أن تراهم يعدون هناك، أي أولئك الذين هم حراس النظام الصالح (لأنهم هكذا يدعون أنفسهم) مع أنهم رجال عصابات وقطاع طرق، إذا لم تكن كلمة رجال عصابات وقطاع طرق كلمة لطيفة، لأن رجال العصابات يحاولون على الأقل إخفاء ما قد اقترفوه، وإذا ما دعوتهم باسم رجال العصابات فإنهم يغضبون غضباً شديداً، ذلك أن هؤلاء الناس على العكس، يظهرون تفاخرهم بما أنجزوه . . . وهم يعتقدون أنهم يستحقون المكافآت»[47] .

وهدد القانون في عام 435م أية هرطقة في الإمبراطورية الرومانية بالموت، وبقيت اليهودية وحدها فقط الديانة المعترف بها قانونياً، ومع ذلك كان اليهود معزولين بقدر الإمكان، وكان الزواج المختلط بين المسيحيين واليهود، ينال عقوبة الزنا نفسها، حيث كانت المرأة تتعرض للإعدام[48]، فلقد انتصرت الكنيسة، وقاد الإيمان بوجه واحد للرب إلى تمتين الدين قانونياً، لكن دين واحد .

وتصرف المسيحيون الأرثوذكس وفق إيمانهم حول الرب، وبما أنهم تصوروه مشرفاً متحكماً بطريقة مسؤولة، انطلقوا في سبيل إيجاد طريقة فيها يمكنهم - باسم الرب - أن يمارسوا سلطة مماثلة وتحكماً مشابهاً، وقد أقاموا تنظيماً راقياً لحكومة الإمبراطورية الرومانية، بوساطة رفع شأن الوحدة والطاعة، ووفق الطريقة نفسها غير هؤلاء المسيحيون قصة وفاة المسيح، للنأي بالمسيحية عن الثورة ضد السلطات الرومانية، وأسسوا نظاماً طبقياً جعل من السهل تجنيد أعداد كبيرة من الناس، وكيفت الكنيسة المبكرة عقيدتها لتتواءم مع العقائد المعاصرة، وكان من خلال المناورة السياسية أن ربحت الكنيسة مكانتها بمثابة ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، وما رافق ذلك من سلطة مدنية وامتيازات .

الفصل الثالث

القرار حول العقيدة، والجنس، والإرادة الحرة والتجسيد واستخدام القوة (300 - 500م)

صاغت الكنيسة عقيدتها وشكلتها حول: الجنس، والإرادة الحرة، والتجسيد، استجابة للهرطقات المبكرة، واختارت في كل حالة أوضاعاً عقائدية، يمكنها أن تسوغ استخدامها للقوة من أجل الإرغام على الطاعة، ولم يكن قد مضى وقت طويل حتى احتاجت الكنيسة إلى تلك العقيدة للدفاع عن قمعها العنيف للهرطقة.

وجاءت كلمة هرطقة من الكلمة الإغريقية Hairesis التي معناها «يختار»[1]، ففي القرون المبكرة كان هناك الشيء الكثير للاختيار من داخل المسيحية، وبالمحصلة كانت هناك هرطقات كثيرة، واتحد مع الغنطوسيين والتحق بهم: المرقونيون، والمونتانيون Montanists، والآريوسيون والسابيليون Sabellians، والنساطرة، والمونوفستيون، قبط مصر، واليعاقبة في سورية، والكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية، اتحدوا بعدم الاتفاق مع الكنيسة الكاثوليكية، وقاد الهراطقة الذين أحاطوا بـ «بيلاغيوس Pelaguis» وأورجين Origen مع الدونتاسيين Donatsits إلى عقيدة جديدة مهمة بشكل خاص، وقامت المانوية، مع أنها لم تقد إلى عقيدة محددة، بوضع سابقة من أجل إنكار الكنيسة لوجهات نظرها غير الشعبية في عقيدتها.

وجلبت المعارضة البيلاغيوسية وأحضرت عقيدة كنسية تتعلق بحرية الإرادة عند الإنسان، والجنس، وكان بيلاغيوس راهباً إيرلندياً، وصل إلى روما في بداية القرن الخامس، مؤمناً بأن الإنسان يمتلك الإراة والمسؤولية عن أعماله أو أعمالها،

وقد اعتقد بأن الجهد الشخصي للإنسان يشغل دوراً في تقرير فيما إذا كان هو أو هي، سوف ينال الخلاص، وبالنسبة إلى بيلاغيوس فقد رأى أن الاعتماد على الخلاص بوساطة المسيح ينبغي أن يترافق مع المسؤولية الفردية والجهود لأداء العمل الصالح[2]، فبمنح البشر المسؤولية عن أعمالهم، أعطاهم الرب الحرية، وحسبما كتب أحد المؤرخين:

«قاتل بيلاغيوس من أجل منح الإنسان الحرية الثمينة من دون حدود، حيث لا يمكن لهذه الحرية أن تستسلم من دون خسارة للكرامة الإنسانية. . وما لم تجعل الحرية الإنسان يتخذ قراراته الخاصة ويجري الاعتراف بذلك، هو سوف يهبط إلى مجرد دمية، وتبعاً لبيلاغيوس أضفى الخالق سلطة خلقية على الإنسان، والنأي عن تلك السلطة يعني إلقاء الشك على شبه الإنسان للرب»[3].

وجاءت المعارضة الأشد عنفاً لبيلاغيوس من القديس أوغسطين، وهو اللاهوتي المشهور للكنيسة، وأسقف هبو Heppo، فقد رأى أوغسطين أن الخلاص هو بيدي الرب كلياً، وليس هناك من شيء يستطيع الفرد أن يفعله، وقد اختار الرب قلة من الناس، إليهم فقط سوف يمنح المباركة والخلاص، ومن أجل هؤلاء القلة جاء المسيح إلى الدنيا، ومحكوم على جميع الآخرين ومقضي إلى السرمدية، وبالنسبة إلى أوغسطين هو قد رأى أنه فقط بنعمة الرب، وليس بوساطة عمل الفرد أو إرادته، يمكن الوصول إلى الخلاص.

وقد آمن أوغسطين بأن حريتنا بالاختيار وبتفضيل الخير على الشر قد ضاعت مع ذنب آدم، وحسب ما قاله أوغسطين حرفياً: «إنه في طبيعة المني الذي منه أنجبنا جاءت المعاناة، وجاء الموت إلى الدنيا، وأخذ ذلك حرية إرادتنا، وتركنا مع ملازمة طبيعة الشر»[4].

وأن يذنب الإنسان فذلك أمر لابد منه، وأن نعمل صالحاً في بعض الأحيان، فهذا مرده فقط إلى سبب النعمة التي لا تقاوم، «ولذلك عندما يعيش الإنسان تبعاً للإنسان، وليس تبعاً للرب، هو مثل الشيطان»، لقد كان هذا ما كتبه أوغسطين[5]، وتبعاً لأوغسطين أيضاً يمتلك الفرد قليلاً من القدرة على التأثير على قدره المقرر - أو قدرها - والأمر يعتمد كلياً على الرب من أجل الخلاص.

وبالنسبة لأوغسطين يُظهر الجنس عند البشر بوضوح عدم القدرة البشرية على اختيار الخير وتفضيله على الشر، وأقام أوغسطين هذا الاعتقاد وأسسه على تجربته الشخصية، لأنه مارس أثناء شبابه حياة أسرف فيها بالاتصال الجنسي غير الشرعي، فصار أباً، ثم تخلى عن ولده غير الشرعي وهجره، وقد اعتقد بأن ممارسة الجنس كان شراً من حيث الجوهر، وقد اشتكى من الرغبة الجنسية قائلاً:

«من الذي يستطيع أن يتحكم بهذا عندما تثور رغبته؟ ما من أحد، في لحظة هذه الرغبة ذاتها، ثم إنها ليس لديها صيغة محركة تستجيب بها لقرارات الإرادة.. ومع ذلك، إن الذي يرغب به لا يستطيع إنجازه... ففي لحظة الرغبة ذاتها، ليس لديها أسلوب يتوامم مع قرار الإرادة»[6].

وتبعاً لأوغسطين إن الإرادة البشرية من دون قدرة، لا في التورط في الرغبة الجنسية ولا في قمعها، حيث قال:

«لكن حتى أولئك الذين يشعرون بالسرور في هذه المتعة لا يتحركون نحوها بموجب إرادتهم، وسواء أربطوا أنفسهم وقيدوها بالشريعة، أو بخرق الشريعة ونيل المتعة اللاشرعية، ولكن أحياناً تلح هذه الشهوة عليهم على الرغم من أنفسهم، وأحياناً تخونهم وتحبطهم عندما يرغبون بالشعور بها، وهكذا مع أن الشهوة تثور بالذهن، هي لا تتحرك بالجسد، وبناء عليه إنه غريب بما فيه الكفاية أن هذا الجيشان لا يخفق فقط في إطاعة الرغبة الشرعية في إنجاب مولود، ولكن يرفض أيضاً تقديم شهوة فاسقة، ومع أنه غالباً ما يعارض نشاطه كله مجتمعاً للروح الذي يقاومه، إنه أحياناً ينقسم ضد نفسه، وفي الوقت الذي يحرك فيه الروح، يترك الجسد من دون حركة»[7].

«وهذه الإثارة الشيطانية للأعضاء التناسلية» كما وصفها أوغسطين، وتشير إلى ممارسة الجنس، وهي شاهد على ذنب آدم الأساسي، الذي انتقل الآن «من رحم الأم» ملطخاً جميع المخلوقات البشرية بالذنب، وتاركاً إياهم غير قادرين على اختيار الخير وتفضيله على الشر، أو تقرير مصيرهم الذاتي[8].



كان القديس اوغسطين من اشهر اباء الكنيسة. واعطت أفكاره وحججه الكنيسة العقائد التي انكرت حرية الإرادة البشرية. وادانت ممارسة الجنس. وسوغت استخدام القوة من أجل الإرغام على طاعة الكنيسة.

وتختلف وجهات نظر أوغسطين حول ممارسة الجنس بحدة عن وجهات نظر ما قبل المسيحية التي غالباً ما عدّت ممارسة الجنس على أنه جزءٌ لا يتجزأ من قداسة الحياة المكرسة للرب، ولم تمثل وجهات نظره - على كل حال - الكثيرين من المسيحيين، باستثناء مجموعات صغيرة من الهراطقة مثل الكاربوكراتيين الغنوصيين، الذين مجدوا الجنس «بحكم أنه رابط بين جميع الأشياء المخلوقة»[9]، واعتقد جميع النصارى تقريباً وارتأوا أنه ينبغي تجنب الجنس، باستثناء من أجل غايات الإنجاب، وقد حذر القديس جيروم Jerome منه «عاداً كل شيء بمثابة سم، مما يحمل في داخله بذور المتعة الشهوانية»[10]، وكتبت إيلين باغلس Elaine Pagels في كتابها «حواء والأفعى» تقول:

«منع كليمنت (الإسكندري) الجماع الفموي والشرجي، والجماع مع الطامث، والحامل، والعاقر، أو الزوجة في سن اليأس، وبالنسبة لتلك المسألة حذر كليمنت من الاتصال بالزوجة في الصباح، أو أثناء النهار، أو بعد الغداء، لا بل إنه نهى بالفعل حتى عن الاتصال أثناء الليل، مع أنه أثناء الظلام، إنه موائم ممارسة ما ليس معقولاً أو ليس محتشماً، ولكن مع الاعتدال، وبذلك فإن كل ما يحدث في ضوء المنطق والعقل. . . لأنه حتى ذلك الاتحاد، الذي هو شرعي وقانوني، يبقى خطيراً، باستثناء أن يكون الاتصال من أجل إنجاب الأولاد»[11].

ويهدد الجنس كعمل يمنح الفرد القوة، ديانة عزمت على مراقبة المجتمع والإشراف عليه، وكما قال كليمنت «ليس من السهل ضبط الشهوة، لأنها مفرغة من الخوف. . »[12].

وجعل إنكار حرية الإرادة البشرية، وإدانة المتعة الجنسية، الأمر أسهل للتحكم بالناس وضبطهم، وقد كتب أوغسطين يقول:

«خلق الإنسان هكذا بشكل طبيعي، أنه من أجل منفعته أن يكون مطيعاً، لكن مأوساوياً بالنسبة له أن يتبع إرادته الذاتية، وليس إرادة خالقه . . »[13].

وقد آمن بأن «ذنب آدم كان استخفافاً بسلطة الرب. . لذلك كان من العدل أن يتبع ذلك الإدانة. . »[14]، وكتب أوغسطين إلى أسقف روما في عام 416م يحذره بأن أفكار بيلاغيوس تعلم قواعد السلطة الأسقفية وأسسها، وأن استرضاء بيلاغيوس سوف يهدد سلطة الكنيسة الكاثوليكية المؤسسة حديثاً[15]، وجلب صديق

أوغسطين الأسقف الأفريقي أليبوس Alypius، ثمانين مهراً نوميدياً إلى البلاط الإمبراطوري كرشوة لإقناع الكنيسة حتى تقف إلى جانب أوغسطين ضد بيلاغيوس، وربح أوغسطين، ففي شهر نيسان لعام 418م حرم الباب «بيلاغيوس» كنسياً، ومنذ ذلك الحين تبنت الكنيسة الكاثوليكية بشكل رسمي دائم عقيدة وراثة الذنب الأصيل وانتقاله[16].

وشكلت الكنيسة موقفها فيما يتعلق بالتجسيد، وذلك استجابة للنقاش الذي أحاط بأورجين Origen، وكان أورجين عالماً مسيحياً اعتقد بأن الروح البشرية قد وجدت قبل أن تحل في الجسد، ثم إنها تنتقل من جسد إلى آخر، إلى أن تعاود الاتحاد مع الرب، فبعد ذلك لا تحل في أي شكل جسدي، وقد آمن بأن جميع الأرواح سوف تعود بالنهاية إلى الرب، وقد ارتأى بأنه بينما بإمكان المسيح أن يتصالح بسرعة كبيرة مع الرب، فإن تلك المصالحة لا يمكن أن تحدث من دون جهد من قبل الفرد، وحاجج بما أن بني البشر قد ابتعدوا عن الرب بموجب إرادتهم الحرة، لابد لبني البشر أيضاً من معاودة الاتحاد مع الرب من خلال إرادتهم، وعارض الأرثوذكس نظريات أورجين، وأصروا على أنهم اعتمدوا بشكلٍ كبير على القرار الذاتي الفردي[17].

واعتقد المسيحيون الأرثوذكس بأن نظرية الحلول والتجسيد تقلص كثيراً دور يسوع المسيح، وتنقص كثيراً الحاجة الملحة للخلاص في هذه الحياة الدنيا، وتزيل الطبيعة الفريدة لقيامة المسيح، ولا يعتمد خلاص الإنسان برأي الأرثوذكس على القرار الذاتي والإرادة الحرة، حسب نظريات أورجين، بل على احتضان يسوع المسيح بقوة أعظم، فإذا كان بإمكان الشخص أن يختار معاودة الاتحاد مع الرب في أي مرة من مرات حياته الكثيرة، وقتها سوف يكون هناك خوفٌ قليلٌ من الإدانة الدائمة، ذلك أن الخوف عُدَّ ضرورياً من قبل الأرثوذكس، وبدا أيضاً أن فكرة أورجين بأن الروح منفصلة عن الجسد، تزيل الطبيعة فوق الاعتيادية لقيامة المسيح، فقد تمّ فهم معجزة قيامة المسيح على أنها تمنح إمكانية التغلب على الموت «الجسدي»، فلو أن - على كل حال - تغلبت كل روح في كل مدة على الموت بالانفصال عن جسد إنسان، والدخول في جسد آخر، فإن استثناء يسوع وفرادته لن تكون فريدة.

وتحدى عمل أورجين أيضاً إشراف الكنيسة على المثقفين وعلى المتابعة الروحية، ومع أنها نقلت بعناية من الكتابات المقدسة، واستشهدت بها لدعم عقائدها، وجد أورجين أنَّ الكتابات المقدسة تقدم توجيهاً محدوداً في بعض المناطق، فبعدما تلقى أورجين التعليم على يدي عالم إغريقي، تابع يطلب أجوبة من كل من الفلسفة الأفلاطونية، ومن تصوراته عندما تكون الكتابات المقدسة غير كافية[18]، وقام أوغسطين أيضاً بالتفكير ملياً حول أسئلة تقدم الكتابات المقدسة حولها القليل من الإرشاد، ولقد سأل أوغسطين على سبيل المثال:

«. . . ومجدداً ماذا كان قبل تلك الحياة، هل كنت يا رب متعتي وسروري، أنا في مكان آخر، أو في أي جسد؟ فحول هذا لم أجد أحداً يخبرني، لا أب، ولا أم، ولا خبرات الآخرين وتجاربهم، ولا ذاكرتي الخاصة»[19].

وفي الوقت الذي تابع فيه أورجين فيه التأمل والبحث في مثل هذه المسائل، تراجع أوغسطين عن البحث خارج إطار الكتابات المقدسة، حيث كتب:

«إما إنني سوف أرغب في أن أعرف هذه الأشياء التي أنا جاهل بها، مثل أصل الروح، أو عوضاً عن ذلك عليّ أن أعرف أنه ليس لنا أن نعلم مثل هذه الأشياء، مادمنا أحياء هنا في هذا العالم، ثم إنه، ماذا لو أن هذا واحداً من تلك الأشياء التي عنها أخبرنا: لا تطلب الأشياء التي هي عالية جداً بالنسبة لك، ولا تبحث في الأشياء التي هي فوق مقدرتك، بل عليك بالأشياء التي أمرك الرب بها، فكر حولها دائماً، ولا تكن فضولياً حول كثير من أعماله» (الكنائسيات3/ 22)[20].

ومضى أوغسطين بعيداً إلى حد رعاية فكرة، أنه قبل العالم، كان الرب شاغلاً نفسه في إعداد مكان لعقوبة الذين يسألون بوقاحة: ماذا كان قبل الخليقة[21].

ومع أن أورجين مات في عام 284م، فإن الجدل حول نظرياته استمر حتى عام 533م، عندما جرى تكفيره رسمياً، أو لعنه من قبل المجمع الكنسي الثاني الذي عقد في القسطنطينية، وبإدانة أورجين تعاملت الكنيسة بشكل غير مباشر مع قضية الحلول أو التجسيد، فقد توجب على المسيحيين عدم الإيمان بالوجود المسبق للروح، وبإدراك واعٍ أيضاً عدم وجود تجسيد، أو أن أي شخص امتلك أكثر من حياة واحدة ليلتفت إلى رب المسيحيين من دون أن يكون خاضعاً إلى إدانة أبدية، وعلاوة على ذلك خدم تكفير أورجين مجالاً آخر حيث جاء بمثابة مذكر أنه بصرف النظر عن

إخلاص الإنسان في إيمانه، ينبغي على الإنسان البقاء في داخل إطار عقيدة الكتابات المقدسة.

وفي التعامل مع الهرطقة الدونتاسية خطّت الكنيسة سابقةً قضتْ باستخدام العنف في قمع الانشقاق، فعندما طالبت الدونتاسيّة بمستوى أعلى من رجال اللاهوت أكثر من الكنيسة الكاثوليكية، انتشرت حركتهم مثل انتشار نار مستعرة، وعندما بات عدد الدونتاسيين أكبر من عدد الكاثوليك في أفريقيا في وسط القرن الرابع[22]، بسبب أنهم أصروا لمدة طويلة على أنه ينبغي عدم ارغام أي واحد على الإيمان ضد إرادته، حاول أوغسطين إعادة الدونتاسيين إلى الحظيرة الكاثوليكية من خلال النقاش، لكنه عندما أخفق بالكلام، لجأ إلى استخدام القوة، بالمطالبة بتطبيق القوانين التي أصدرها ثيودوسيوس حديثاً ضد الهرطقة، وتبعت الكنيسة نصيحته، وقمعت بوحشية الحركة الدونتاسية.

وفي مواجهة الدونتاسية، وضع أوغسطين مبدأ «أرغمهم على الدخول Cognite Intrare»[23]، وهو الذي استخدم خلال العصور الوسطى لتسويغ القمع العنيف الذي مارسته الكنيسة، ضد المنشقين، وللقضاء بشدة على الخلافات، وحاجج أوغسطين مؤكداً على أن:

«جرح الصديق أفضل من قبلة العدو، وأن تحب بصرامة أفضل من أن تخدع بلطف.. فقد جاء في انجيل لوقا: 14/ 23: مكتوباً: أرغم الناس على الدخول، فبالتهديد بغضب الرب جذب الأب الابن وأعاد الروح إليه»[24].

وإنه حتى في بداية القرن العشرين ظل البابا ليو الثالث عشر يحاجج ويقول بأن الغاية تسوغ الوسائل حيث قال:

«إن عقوبة الإعدام ضرورية، ووسيلة فعالة من أجل الكنيسة حتى تحقق غايتها وتصل إليها، فعندما يعمل ثائر ضدها، ويشوش الوحدة الكنائسية، ولاسيما الهرطقات العنيدة والبدع، ولا يمكن ضبطها بأية عقوبة أخرى، وردعها عن الاستمرار في إفساد النظام الكنائسي، ودفع الآخرين إلى اقتراف جميع أنواع الجرائم... وعندما تتجمع أعمال إضلال واحد أو عدة لتتسبب في تدمير كثير من أبنائها، يتوجب عليها إزالة ذلك بشكل فعال، وفي مثل هذه الحالة إذا لم يتوفر أي

علاج لإنقاذ شعبها، يمكنها، لا بل يجب عليها، إعدام مثل هؤلاء الرجال الأشرار»[25].

وكانت هناك حركة معارضة أخرى، تمثلت بالهرطقة المانوية، التي أظهرت رغبة الكنيسة في إنكار عقيدتها، عندما كانت شعبية وغير مربحة، وقد بدأت مع ماني الفارسي في القرن الثالث، واللاهوت المانوي هو المحصلة المنطقية لعقيدة الإيمان في التفوق الفردي، ذلك أن الإيمان بإله واحد قوي غالباً ما أثار أسئلة: لماذا هناك آلام وشرور في العالم، ولماذا الرب القدير، الذي خلق كل شيء، خلق معاناة الإنسان؟ والجواب الأكثر انتشاراً هو أنه لابد أن تكون هناك قوى متصارعة، فالقدرة أو الرب خلق الشر، ولذلك لابد أن يكون هناك شيطان، فكان أن قامت عقيدة ثنوية فهمت الحياة على أنها صراع بين الرب والشيطان، وبين الخير والشر، وبين الروح والمادة، ومفهوم الشيطان هو حصر على عقيدة التوحيد، فالشر سهل فهمه، وليس هناك من حاجة لفرض وجود الشيطان، عندما تكون هناك أوجه عدة للرب، وقد كتب كيث توماس Keith Thomas في كتابه «الدين وانحدار السحر» عن حقبة ما قبل اليهودية التوحيدية:

«لم يكن العبرانيون الأوائل بحاجة إلى تجسيد الشر، حيث كان بإمكانهم عزوه إلى تأثير القوى الإلهية الأخرى المنافسة، وكان فقط انتصار التوحيد هو الذي جعل من الضروري شرح لماذا يتوجب أن يكون هناك شر في العالم، إذا كان الرب صالحاً، وهكذا ساعد الشيطان على دعم مفهوم الألوهية الكاملة تماماً»[26].

واعتنقت المانوية العقيدة المسيحية الأرثوذكسية بصورة أكثر كمالاً من الكنيسة الكاثوليكية المبكرة، فلقد أخذوا بشكل جاد فكرة بأن الروحانية، والربوبية قد انتزعتا من العالم المادي، وقد أوجد الاعتقاد بقوة متفوقة واحدة طبقية لاهوتية، فصلت عناصرها، وخلقت انقساماً ما بين السموات والأرض، وبين الروح والمادة، وقد عدّت العناصر التي ارتقت فوق الطبقية اللاهوتية «خيرة»، وعدت العناصر التي هبطت نحو الأسفل شريرة، وتبعاً لذلك دعت المانوية إلى زهد صارم وانسحاب من العالم، ونظر إلى النساء أنهن يغوين الرجال بلذات الجنس الأرضية والأسرة، وقد عدّ هؤلاء النساء ونظروا إليهن على أنهن جزء من قوى الشيطان، وآمنت المانوية، أنك حتى تكون قريباً من الرب، على الإنسان تجنب أي شيء يربطه بالحياة الأرضية.

ومع أن الكنيسة نفسها سوف تتبنى بعد قرون العقيدة المانوية ولاهوتها تماماً، وذلك أثناء الإصلاح الكنسي، لم يكن بإمكانها في السنين الأولى سياسياً تحمل اعتناق كامل لمثل هذا التوحيد، فقد ناضلت الكنيسة في سبيل دمج أعداد كبيرة من الناس الذين كانوا ما يزالون يفهمون العالم من خلال إطار تعدد الآلهة الوثنية، والمحتوى اللاتوحيدي، فقد اعتقد معظم الناس أن العالم المادي في داخله مشاعر الربوبية، وأن هناك فارق بسيط بين الروح والمادة، وأن الربوبية متجسدة في كثير من الوجوه المختلفة، وكانت الدعوة إلى التخلي عن العالم المادي بحكم أنه مملكة الشيطان، وإلى إزالة كل شيء إلاّ شخصاً ربانيّاً واحداً، ستقود إلى إخفاق مؤكد لجهود الكنيسة في نشر المسيحية، وهكذا مع أن الكنيسة بقيت محافظة على الاعتقاد في واحد متفوق، وعلى التمسك بمراتبها اللاهوتية المتسلسلة بكل دقة، هي سمحت أيضاً ليس فقط بعبادة مريم العذراء المقدسة، بل أيضاً بعبادة حشد من الملائكة والقديسين، ومن المحتمل أن المانوية كانت أكثر توافقاً مع العقيدة الأرثوذكسية، لكنها كانت سياسياً غير حكيمة، ووسمت المانوية بالهرطقة مع جميع الآخرين الذين أعلنوا عن التمسك بأفكار مشابهة في القرون التي تلت.

وأعارت العقائد التي صيغت رداً على الهرطقات المبكرة لاهوتاً شرعياً من أجل سيطرة الكنيسة وتحكمها بالفرد وبالمجتمع، وبمعارضة بيلاغيوس تبنت الكنيسة عقيدة أوغسطين في أن الناس بالوراثة أشرار، وغير قادرين على الاختيار، وهكذا هم بحاجة إلى سلطة قوية، ونظر إلى ممارسة الجنس البشري على أنه شاهد على طبيعتهم المذنبة، وبمعاقبة نظريات أورجين حول الحلول والتجسيد ونقدها بقوة، رفعت الكنيسة من شأن اعتقادها في القيامة الجسدية الفريدة للمسيح، وكذلك الاعتقاد أن الإنسان يمتلك حياة واحدة فقط لا غير، عليه فيها أن يطيع الكنيسة، أو أن يخاطر بنيل إدانة سرمدية، وخطت الكنيسة في تعاملها مع الدوناتاسية سابقة استخدام القوة للإرغام على الطاعة، ومع المانوية أظهرت الكنيسة استعدادها ورغبتها في التخلي عن عقائدها في سبيل المنفعة السياسية.

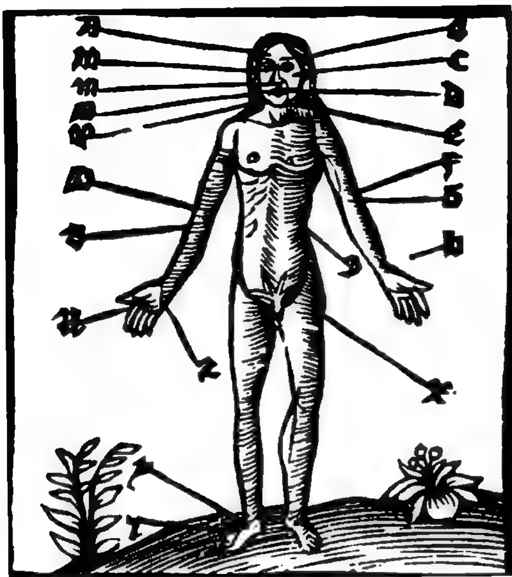
الفصل الرابع

استيلاء الكنيسة على عصور الظلام
(500 - 1000م)

كان للكنيسة أثرها المدمر على المجتمع، فبعدما تسلمت الكنيسة القيادة تهاوت الأعمال والنشاطات في ميادين: الطب، والتقنيات، والعلوم، والتعليم، والتاريخ، والفن، والتجارة، وسقطت، ودخلت أوربا عصور الظلام، ومع أن الكنيسة جمعت ثروة كبيرة جداً، خلال هذه القرون، لكن كل ما يتعلق بالحضارة قد اختفى.

وسقطت الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الخامس، نتيجة للهجمات المتوالية التي قام بها الجرمان القوط، في حين سقطت المقاطعة الرومانية في أفريقيا بيد الوندال، ووجه كثيرون اللوم إلى المسيحية، فعندما في عام 410م نهب القوط الغربيون روما «المدينة الخالدة»، التي بقيت صامدة قوية لمدة ستمائة وعشرين عاماً، ازداد توجيه النقد إلى الديانة الجديدة وتعاظم، وجرت كتابة واحد من أهم كتب القديس أوغسطين وأشهرها، وهو «مدينة الرب» بمثابة دفاع عن المسيحية ضد مثل هذه الاتهامات.

ونجد على كل أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي تعرف أيضاً باسم الإمبراطورية البيزنطية، قد تدبرت أمورها أفضل، خاصة تحت حكم الإمبراطور جستنيان (527 - 565م)، حيث استعادت كثيراً من قواها، واستردت السيطرة على إيطاليا من القوط الشرقيين، واستعادت أفريقيا من الوندال، ويعزى إلى جستنيان وزوجته ثيودورا فضل انتعاش الآداب، والفن، وهندسة البناء، وكذلك تدوين



ما أن جرى الإعلان على أن الطب الإغريقي والروماني كان هرطقة، حتى غدا ممارسة الفصد أمراً شائعاً. ونشرت هذه اللوحة المحفورة عام 1516م وهي تبين المناطق التي ينبغي إخراج الدم منها.

القانون الروماني. ولكن هذا الازدهار البيزنطي عاش زمناً قصيراً، وانقطع عندما انتشر وباء الطاعون الدبلي، بداية من عام 540م، وضرب بشكل خبيث وعنيف لم يعرف له مثيلٌ في التاريخ الإنساني، في أي وقت من الأوقات، لا من قبل ولا من بعد. ففي بيزنطة وحدها يقال بأن الطاعون قتل عشرة آلاف شخص يومياً، وشدة

هذا الطاعون وقوته من الصعب قياسها وتقديرها، وقتل طاعون الموت الأسود الذي جاء فيما بعد، في العقد الأول من القرن الرابع عشر، كما يعتقد بعضهم ثلث سكان أوربا، أي قتل حوالي سبعة وعشرين مليون من البشر، وبمقارنته مع طاعون القرن السادس، من المعتقد أن هذا الطاعون الأول قد أتى على مائة مليون حياة[1]، ولذلك لم تتعافَ الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك أبداً.

وكان للطاعون تأثير مختلف على المسيحية، فقد تدفق الناس على الكنيسة وهم مرعوبون[2]، وأوضحت الكنيسة أن الطاعون كان من أعمال الرب، وأن الإصابة بالمرض مجرد عقوبة على ذنب عدم إطاعة سلطة الكنيسة، ووسمت الكنيسة جستيان بالهرطقة، وأعلنت أن ميدان الطب اليوناني والروماني، بلا فائدة، في مكافحة الطاعون ومقاتلته، وأنه مجرد هرطقة[3]، ففي الوقت الذي أكد فيه الطاعون سقوط الإمبراطورية الرومانية، إنه متن الكنيسة المسيحية وقواها.

وبعد الطاعون تحكمت الكنيسة بنظام التطبيب الرسمي، وصار أكثر الممارسات التطبيبية شيوعاً بين القرن السادس والقرن السادس عشر، والمستخدم لكل مرض، هو «الفصد»، وعلم الرهبان المسيحيون وبشروا وقالوا بأن فصد إنسان سوف يمنع عدم التوازن السمي، ويمنع الرغبة الجنسية، ويعيد المزاج والتوازن، ومع القرن السادس عشر، كانت هذه الممارسة تقتل عشرة آلاف إنسان كل عام، ومع هذا عندما كان إنسان يموت أثناء جريان الدم، كان اللوم يقع على أن المعالجة لم تبدأ في وقتها، ومورست بشكل فيه عنف أكثر[4].

واختفت التقنية عندما غدت الكنيسة القوة الأكثر تماسكاً في المجتمع الغربي، وزالت أقنية جر المياه وأعمال الأنابيب، وعلمت المسيحية الأرثوذكسية وبشرت وقالت بأن جميع جوانب الجسد ينبغي لعنها، ولذلك شجعت على عدم الاغتسال بقدر الإمكان، واختفت المراحيض والأنابيب داخل البيوت، وصارت الأمراض شائعة وموجودة دوماً، وتدهورت وسائل الوقاية الصحية وعلوم الصحة، ولمئات من السنين كانت المدن والقرى تفنى وتموت بالأوبئة[5]، وتم التخلي عن نظام التدفئة المركزية الرومانية أيضاً[6]، وكما كتب واحد من المؤرخين:

«منذ حوالي 500م فصاعداً، ساد الاعتقاد أنه ليس شقاء وتعباً التمدد على الأرض أثناء الليل، أو على دكة قاسية فوق مساند منخفضة، أو فوق أرض رطبة

وفئران، وبات أن يكون الإنسان في الداخل وخلف الأبواب شيئاً من الترف، ولم يكن أيضاً مرفوضاً نوم الناس كحشد متراصين مع بعضهم بعضاً جماعة لأن الدفء أعلى قيمة من الخصوصيات»[7].

وكذلك أهملت شبكةُ الطرق الواسعة التي كانت تمكن الناس من الانتقال سوالاتصال، وبقيت هكذا حتى القرن التاسع عشر تقريباً[8].

وكان فقدان العلم أمراً هائلاً، وأقدمت الكنيسة في بعض الحالات على إحراق الكتب وقمع المثقفين والثقافة، وهي ممارسة أرجعت البشرية ما يساوي ألفي عام في مفاهيمها العلمية، وكان فيثاغورس في القرن السادس ق.م قد جاء بنظرية فيها فكرة بأن الأرض تدور حول الشمس، وفي القرن الثالث ق.م وضع أرسطارخوس Aristarchus معالم نظرية المركزية الشمسية، وقاس ايراتوشينيز Eratosthenes محيط الأرض، ومع القرن الثامن قبل الميلاد اخترع هبّارخوس Hipparchus خطوط الطول وخطوط العرض، وميل دائرة البروج[9]، وبعد قيام العصور الوسطى المظلمة، حدث فقط أنه في القرن السادس عشر م، قام كوبيرنوس بإعادة تقديم نظرية بأ الأرض تدور حول الشمس، وعندما حاول غاليلو أن يرفع من شأن نظرية المركزية الشمسية في القرن السابع عشر، جرت محاكمته من قبل محكمة التفتيش في روما، وفقط في عام 1965م نقضت الكنيسة الكاثوليكية قرار إدانتها لغاليلو، وردد القديس أوغسطين أصداء المفاهيم العلمية للكنيسة عن العالم بقوله:

«من غير الممكن وجوب وجود سكان على الطرف المقابل من الأرض، لأنه لم يرد ذكر مثل هذه الأجناس في الكتابات المقدسة بين أولاد آدم»[10].

وأعيدت كتابة التاريخ ليصبح مثبتاً للعقائد المسيحية، واعتقد المسيحيون الأرثوذكس بأن التاريخ ضروري فقط من أجل وضع أحداث الماضي في الإطار التوراتي، أو حسبما قال دانييل بورستن Boorstin: «أصبح التاريخ مجرد حواشٍ للأرثوذكسية»[11]، وكتب أيضاً في كتابه «المكتشفون» يقول:

«كان الذوق المسيحي مستعداً للإيمان بيسوع المسيح الواحد، وبرسالته حول الخلاص، والذي كان مطلوباً ليس النقد بل التصديق، واعترف آباء الكنيسة أنه في مملكة التفكير للهرطقة وحدها تاريخ»[12].

وشرع يوسيبيوس القيساري في أيام قسطنطين الكبير بإعادة كتابة تاريخ العالم في تاريخ للمسيحية، وقد كتب يقول:

«كتب آخرون التاريخ من أجل تدوين أخبار القتال في الحروب التي شنت من أجل الأبناء والبلاد والممتلكات الأخرى، غير أن روايتنا سوف تكون عن حكومة الرب، وسوف تدون في حروف لا تطمس أخبار الحروب الأكثر سلاماً، والتي أثيرت لصالح سلام الروح»[13].

وحل الإيمان الأعمى محل روح البحث التاريخي، وعلى الإنسان - كما قال يوسيبيوس - أن يثق «في الكلام الذي لا يرد ولا ينقض، الذي قاله المعلم لحوارييه: إنه ليس لكم أن تعرفوا الأوقات أو الفصول التي وضعها الأب في إطار سلطته»[14].

ومع أن الكنيسة منعت البحث التاريخي بشدة أكبر، تابعت مسيرة إعادة كتابة التاريخ التي كانت قد بدأتها قبل وقت أبكر بكثير، وقد بدأت الحفريات الأثرية في الكشف عن صورة مختلفة تماماً للتاريخ الإنساني، مختلفة عما جرت روايته حتى عن روما ما قبل المسيحية، ففكرة أن التاريخ قد بدأ منذ خمسة آلاف عام مضت، فكرة مخطئة بشكل شنيع، ففي العصر الحجري الحديث، بعدما تحول الناس من الصيد ومن جمع الطعام إلى الزراعة، خاصة فيما بين سبعة آلاف وأربعة آلاف ما قبل الميلاد، قد ازدهرت ثقافة ناضجة بشكل مدهش وكان الفن، والهندسة المعمارية، وتخطيط المدن، والرقص، والدراما الطقوسية، والتجارة في البر والبحر، والكتابة، والقانون، والحكومة، معروفين بشكل جيد بالنسبة إلى هؤلاء الناس، ولا تعود الأفكار الأولى للديموقراطية بالأصل تاريخياً إلى الإغريق، بل إلى ما هو أبكر بكثير، إنها تعود إلى هذا العصر الحجري الحديث، ولعل الأمر الأكثر إدهاشاً أن هذه الثقافات لا تظهر أية شواهد على وجود المراتب اللاهوتية المتسلسلة كما نعرفها، ولم يعرف الناس الحرب آنذاك، ولا الظلم المنظم أو العبودية[15].

وساعدت أعمال إعادة كتابة التاريخ في محو الوعي والإدراك لمثل ذلك الماضي، الذين هم في السلطة على تجنب النقد بالنسبة لمجريات شؤون الدولة، وقد صورت المجتمع الإنسانيً وكأنه قد تطور بشكل ثابت، وأنه بالحري لم يعان من انتكاسات كبيرة، معطياً الانطباع أنه مهما كان المجتمع الآن بشعاً وعنيفاً، إنه كانَ في الماضي حتى أكثر وحشية وقسوة، ونجد على سبيل المثال أوروسيوس Orosius تلميذ القديس أوغسطين، قد عرض في كتابه «سبعة كتب في التاريخ ضد الكفار» بأن الشر



مع ازدياد قوة الكنيسة، أقدم المسيحيون على اغلاق الأكاديميات وإحراق الكتب وكذلك مكتبات كاملة. وتصور هذه اللوحة المحفورة متحولين إلى عقيدة القديس بولص وهم يحرقون بعض الكتب.

في أيامه لا يمكن توجيه اللوم بالنسبة لوجوده على المسيحية، بسبب أن العصور الماضية قد عانت حتى من فواجع ومآس أعظم[16]، وأعطى تشويه التاريخ وإعادة كتابته الانطباع بأن المسيحية لم تقم فقط برفع المجتمع وإخراجه من العصور الأقسى، بل من العصور الأكثر بربرية، وأن البنيان الاجتماعي ذي الطبقات اللاهوتية المتسلسلة والتحكم اللاهوتي قد وجد دوماً، وكان لذلك لابد منه.

وكان للكنيسة المسيحية تأثير ضاغط مشابه على العلم والتعليم، فقد أحرقت الكنيسة كميات هائلة من الكتب، ففي عام 391م، أحرق المسيحيون واحدة من أعظم مكتبات العالم في الاسكندرية، التي قيل بأنها احتوت على سبعمائة ألف مدرج مخطوط، لقد جرى إحراق جميع الكتب الغنوصية العائدة لباسيليدس Basilides، وكتب بورفيري Porphyry التي كانت في ستة وثلاثين مجلداً، ومدارج البردي العائدة لسبع وعشرين مدرسة للتصوف Mysteries، ومائتين وسبعين وثيقة قديمة كان قد جمعها بطليموس فيلادلفوس[18]، وأغلقت أكاديميات التعليم القديمة، وصار التعليم بالنسبة إلى أي واحد خارج الكنيسة، أمراً منتهياً، والثقافة القليلة التي بقيت خلال عصور الظلام، بقيت حكراً على رجال اللاهوت، وقد اتخذ هؤلاء من قبل الملوك الأقوياء بمثابة وسيلة أمدتهم بإداريين قادرين[19].

وعارضت الكنيسة دراسة النحو واللاتينية، وكان البابا غريغوري الأول، أو غريغوري الكبير رجلاً، ساد الاعتقاد بأنه كان واحداً من أعظم مهندسي نظام العصور الوسطى[20]، قد عارض دراسات النحو حيث كتب:

«إنني أمقت الأبنية الأصيلة والقضايا، لأنني أعتقد أنه من غير اللائق تماماً وجوب إخضاع الوحي اللاهوتي إلى الأحكام الدقيقة التي وضعها دوناتوس Donatus (النحوي المعروف بشكل جيد)»[21].

وأدان غريغوري الكبير أيضاً التعليم، وطالب بعدم تقديمه إلى الجميع، باستثناء رجال اللاهوت فقط، لأن تقديمه إلى الجميع هو حماقة وشرور، ومنع العلمانيين حتى من قراءة التوراة، وتولى أمر إحراق مكتبة أبولو البالاتيني Palatine Apollo «خشية أن تضلل آدابها غير اللاهوتية المؤمنين وتبعدهم عن التفكير بالسموات»[22].



كان القديس غريغوري الكبير بابا من 590 حتى 604م، وهو قد شهر بتمتين استقلال البابوية عن سلطة الإمبراطور البيزنطي، وهو أيضاً أحرق الكتب ومنع القراءة وحظر تعليم رجال اللاهوت.

وحرّم المَجْمَعُ المقدس الرابع في قرطاج في عام 398م، - على الأساقفة قراءة حتى كتب الأميين Gentiles [23] - وأبدى جيروم، أبو الكنيسة، والذي كان من أوائل رجال الأديرة في القرن الرابع م، سروره العارم، لأن الكتاب الكلاسيكيين قد نُسُوا، وكان معاصروه من رجال الأديرة قد شهروا بالتفاخر بجهلهم بكل شيء، إلاّ الأدب المسيحي [24]، وبعدما أمضى المسيحيون الأعوام الطوال في تدمير الكتب والمكتبات، أعلن بفخار القديس جون خريسوستوم Chrysostom الذي كان من أشهر آباء الكنيسة الإغريق «بأن كل أثر من الفلسفة القديمة، والآداب العائدة لقدماء العالم قد زالت من وجه الأرض» [25].

وتألفت مكتبات الأديرة، وهي المكتبات الوحيدة التي بقيت - من كتب الإيمان فقط، لا بل حتى إنَّ أهم المكتبات الديرية قد ابتعدت قليلاً فقط عن كتب حول اللاهوت المسيحي [26]، وعندما كان الرهبان يقومون بنسخ المخطوطات، فإن هذا العمل لم يقدر لقيمته الجوهرية، بل بالحري عدّ بمثابة جزء من الأعمال المفروضة بموجب قانون العمل الديري، وأنه كان جهداً ضرورياً - حسب ما قاله كرستيان كاسيودوروس Cristian Cassiodorces - من أجل: «محاربة الشيطان بالقلم والحبر» [27]، وكان نسخ المخطوطات، حتى وإن كانت هذه المخطوطات مخطوطات كلاسيكية، لم يشر بالضرورة إلى وجود تقدير للعلوم الكلاسيكية، فهناك ملاحظات تاريخية مدونة بأن رهبانيات كلوني اتبعت تقليداً قضى بالتسليم بعدم احترام الأعمال والكتابات الكلاسيكية «فإذا ما أراد راهب كتاباً أثناء ساعات الصمت، وعمل إشارة على تقليب الصفحات، س إنه إذا ما أراد كتاباً كلاسيكياً، كان يحك أذنيه مثل كلب» [28].

وكان للكنيسة أثرٌ مدمرٌ على التعبير الفني، وتبعاً للمسيحية الأرثوذكسية، ينبغي على الفن تجميل القيم المسيحية ورفع شأنها، وذلك إذا لم يخدم ببساطة كبحث فردي خلاق وتعبير خاص، وهكذا حكم على الأعمال الفنية الجديدة التي لم تتوافق مع عقيدة الكنيسة أن لا تظهر مرة أخرى حتى عصر النهضة، ولقد جرى قلب وتحطيم التماثيل الرخامية لروما القديمة، وذلك بشكل خاص من قبل غريغوري الكبير، واتخذت ليعمل منها كلساً، أما الأعمدة الرخامية والفسيفساء، إما عُمل منها كلس، أو أخذت لتزيين الكاتدرائيات عبر أوربا كلها، وصولاً حتى دير

ويستمنستر في لندن، ويمكن تتبع بعض آثار الأعمال الرخامية المنهوبة في ألواح الرخام الرقيقة المستخدمة للتزيين، والتي عليها كتابات قديمة، والتي ماتزال موجودة في كثير من كنائس هذه الأيام[29].

وتزامن قيام الكنيسة المسيحية وارتفاع شأنها مع الانهيار الاقتصادي في جميع أرجاء العالم الغربي، وبذلت الكنيسة جهداً صغيراً لتشجيع التجارة، وتتضمن قوانين غراشيان Gratian وثيقة من القرن السادس جاء فيها: «كل من يشتري شيئاً من أجل إعادة بيعه سليماً، مهما كان نوعه، هو مثل التجار الذين طردوا من الهيكل»[30]، وأدانت الكنيسة إقراض المال بالفائدة، الأمر الذي جعل تمويل المغامرات الاقتصادية في غاية الصعوبة، لكن العقود التجارية لذلك الزمن أشارت إلى أن الكنيسة كانت تتدخل أحياناً، وتقوم بإعفاء المستدين من المسؤوليات القانونية، وبذلك لغمت كل إمكانيات قيام أي واحد بإقراض المال[31].

وكانت الكنيسة نفسها على كل حال واحدة من التنظيمات الرابحة لذلك الزمان، وبموجب ذلك زودت كثيراً من الناس بوظائف مربحة إلى أقصى الحدود، وقد شغل المال مع السلطة دوراً حاسماً في ارتقاء الناس خلال المراتب اللاهوتية للكنيسة، وأسهم في طبيعة السمعة السيئة لكنيسة العصور الوسطى، وهناك على الأقل أربعون بابا معروفون أنهم شروا طريقهم إلى البابوية[32]، وكانت الاتهامات بالقتل والجرائم داخل الكنيسة تتكدس وتصبح كثيرة جداً ومتكررة بكثافة كلما حدث تغيير بالبابوية، وفي شكل خاص خلال مائة سنة متميزة، وصل فيها إلى البابوية أكثرُ من أربعين بابا تسلموا ذلك المنصب، ففي مدة مقدارها اثنا عشر عاماً فقط هي من 891 إلى 903م هناك ما لا يقل عن عشرة بابوات مختلفين تسلموا السلطة البابوية[33].

وجمعت الكنيسة خلال عصور الظلام من الثروات ما لا هو محدود، وبالنسبة للأملاك الموقوفة، استحوذت الكنيسة على أراض كانت معفوةً وحرة لا تدفع الضرائب أو تؤدي الخدمات العسكرية المتوجبة إلى الملك، وقد بلغ حجم هذه الأملاك ما بين ربع إلى ثلث أوربا الغربية[34]، وبالإضافة إلى الأوقاف، غالباً ما استحوذ الأساقفة على مناطق كانت مشمولة بنظام الاستثمار الإقطاعي، بحيث كان من المتوجب عليهم مثل أي كونت أو بارون تزويد الملك بالجنود عندما يدعو إلى ذلك، وحصلت الكنيسة على المال بجمع الموارد من الحكام الإمبراطوريين،

وبمصادرة الممتلكات كنتيجة لأحكام صادرة عن الحاكم، وبيع التحليلات من الذنوب (دعيت: بالغفرانات) وبيع المناصب الكنسية (دعيت باسم السيمونية = السمعانية)، وفي بعض الأحيان بالاستيلاء، بكل بساطة، على الأرض بالقوة[35].

وكان التحالف مع الدولة ضرورياً بالنسبة إلى الكنيسة لضمان نفوذها العلماني ولتحصيل الثروة، وكانت الأوضاع الآن، لا تشبه - على كل حال - ما كانت عليه أثناء حكم الإمبراطورية الرومانية، ذلك أن عدداً من القوى الإمبراطورية استحوذت الآن على السلطة، فعلى سبيل المثال، كان الغرب مع عام سبعمائة مقسماً إلى أربع ممالك أساسية، فقد كانت اسبانيا محكومة من قبل القوط الغربيين المسيحيين وسوف تسقط في 711 - 713 إلى الفاتحين المسلمين، وحكم الأنكلو - سكسون انكلترا، وحكم الفرنجة غاليا، وحكمت إيطاليا بشكل رئيسي من قبل اللومبارد، مع مناطق قليلة بقيت في أيدي الإمبراطورية البيزنطية[36] وأصبح التحالف الأكثر تعقيداً بين الكنيسة وبين مختلف الحكام الإمبراطوريين يعرف باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وتمثل أفضل تمثيل بتتويج البابا لشارلمان في عام 800م ثم تتويج الملك الألماني أوتو الأول في عام 952م.

وربحت كل من الكنيسة والدولة من تحالفهما، حيث لم يؤمن الحكام الإمبراطوريين الإمداد بالموارد العسكرية فقط، بل أمنوا مراكز ووظائف مربحة لرجال اللاهوت، وبوساطة الإشراف الأعلى على الشؤون الإدارية للحكام، أصبح الأساقفة منوطاً بهم وموكلاً إليهم كل من السلطة المدنية والعسكرية، وصاروا أقوياء وقادرين وأصحاب نفوذ مثل أعظم السادة الإقطاعيين قوة ونفوذاً، وقد كتب المؤرخ جيفري بيرتون رسل Jeffrey Barton Russell يقول:

«كان النمط هو ديمومة الذات: فكلما ازداد الأساقفة قوة وثروة، كلما ازدادت حاجة الملوك إلى تعيين أشخاص مخلصين، ولكن حتى يضمن الملوك إخلاص مثل هؤلاء الرجال والحفاظ على ذلك، كلما توجب عليهم منحهم المزيد من السلطة والثروة، لذلك لا عجب أن أبقى الأساقفة أعينهم مسلطة بتركيز وعناية أكبر على العرش، أكثر مما فعلوه بالنسبة إلى الصليب»[37].

وفي عصر سيطرت فيه عقيدة الحق الإلهي للملوك، نظر إلى تأييد البابا للملوك على أنه أساسي، وجلبت الكنيسة وحققت مظهراً للوحدة للمملكة الإمبراطورية بتحويل شعبها إلى المسيحية.

وكان التحول الواسع الانتشار - على كل حال - في الواقع ليس أكثر من مجرد واجهة ظاهرية، وأظهر البابا غريغوري الأول، في رسالة بعث بها إلى رسوله إلى بريطانيا القديس أوغسطين أوف كانتربري، قلقه تجاه مظهر أن الناس قد تحولوا إلى المسيحية حيث قال:

«. . . سوف يحتاج الناس إلى تغيير مكان احتشادهم، حيث اعتادوا في الماضي على التضحية بمواشيهم إلى الشياطين، وبناء عليه دعهم يستمرون بأن يجتمعوا في يوم عيد القديس المكرسة الكنيسة على اسمه، ويذبحون دوابهم، لكن ليس كقرابين أضاحٍ للشياطين بل من أجل وجبة طعام اجتماعية على شرف الذي يعبدونه الآن»[38].

ومع أن الكنيسة أحدثت فوضى في معظم مجالات الحياة، إنها لم تحدث تغييراً حقيقياً في الطريقة التي تصور فيها عامة الناس، الرب، وإن استمرار الكنيسة ومتابعتها الحرب لإزالة الممارسات الوثنية، تشير إلى مدى ضعف معظم المتحولين إلى الكنيسة ووهنهم، فقد حذرت دوماً من العادات المتعلقة بالأشجار، والطبيعة، وأنذرت ضد الإيمان بالسحر، ومضت في بعض الأحيان إلى إزالة كنائس وهدمها وتسويتها بالأرض بعد اكتشافها بأن الناس كانوا يعبدون بالفعل أرباب أقدم أو ربّات هناك[39]، وفي عام 742م جاء في مرسوم كنسي فيه ما يلي:

«. . . ينبغي رفض كل تدنيس وثني وطرده، سواء أكان التضحية للأموات، أو السحر، والعرافة، أو التمائم والكهانة، أو الرقى، أو تقديم القرابين، التي يمارس بها جميع الناس الجهلة طقوساً وثنية، مع طقوس الكنيسة، تحت غطاء أسماء شهداء مقدسين ومعترفين»[40].

وأعيدت تسمية الينابيع المقدسة تشريفاً لقديسين، وبنيت كنائس فوق مواقع معابد وثنية، ومع ذلك بقيت طبيعة التبجيل، والعبادة دونما تغيير.

وشغلت الكنيسة دوراً حاسماً في نقل أوربا إلى عصور الظلام، وقد تم الشعور بتأثيرها المدمر في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني، ومدهش حقاً، أن المنطقة الوحيدة التي كان لكنيسة العصور الوسطى تأثير قليل العمق عليها، هي تغيير الحياة الروحية لعامة الناس، ففي الوقت الذي تبنى معظم الناس فيه قشرة مسيحية خارجية فقط، لم يغيروا بشكل أساسي مفاهيمهم أو تصوراتهم للحرب.

الفصل الخامس

الكنيسة تقاتل التغيير: العصور الوسطى (1000 - 1500م)

تحدت روح العصور الوسطى سلطة الكنيسة التي تأسست الآن، وردت الكنيسة بدعم هيكلها السلطوي، حيث أكدت تفوق البابا على جميع السلطات الإمبراطورية، وبحشد أوربا ضد المسلمين، واليهود، والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، وعندما أخفقت الحروب الصليبية في توحيد أوربا تحت سيطرتها قاتلت الكنيسة ضد كل من تصورته عدواً مثل: مقرضي الأموال، ومؤيدي الدول الوطنية، والكاثاريين Cathars.

وظهرت دلالات تغييرات كبيرة مع نهاية الألف الأول في العصور الوسطى العالية، فقد بدأ مجتمع زراعي بالإسهام في نمو سريع للمدن مع اشتداد الانفجارات السكانية بشكل لم يعرف له نظير في العالم الغربي حتى القرنين التاسع عشر والعشرين[1]، فقد بدأت أعدادٌ متزايدة من الناس في جعل حياتها تعتمد على التجارة والصناعة، وبذلك أسهمت طبقة اجتماعية جديدة من التجار والصناع[2]، وغالباً ما جاء هؤلاء التجار بمثابة أمثلة على أنه من خلال الذكاء، والنشاط، والصناعة، يستطيع الإنسان تغيير الكثير من الجوانب الحياتية، ونشر التجار معارف جديدة مع أفكار حديثة جلبوها من عالمي العرب، والإغريق لدى سفرهم على طرق التجارة من شمالي إسبانيا ومن جنوبي إيطاليا.

وجرت الآن ترجمة الكثير من الأعمال الكلاسيكية اللاتينية، التي ضاعت في ظل حكم الكنيسة، ترجمتها مجدداً من العربية إلى اللاتينية، وعندما أعيدت أعمال

أرسطو فقدمت مجدداً إلى الغرب، تحدت بتفكيرها المنظم، وبجذورها العلمية، وبنظامها، مطلب الكنيسة بأن على الإنسان أن يقبل تأكيداتها بإيمان أعمى، ففي القرن الثاني عشر استخدم بطرس أبيلارد Abelard الطرائق المدرسية العلمية لتشجيع اتخاذ القرار الفردي، وليناقش مدى صحة التأكيدات الكنسية، وليظهر التناقضات في عقيدة الكنيسة وكتاباتها المقدسة.

وبدأت أمور حصر الكنيسة لجميع أعمال التعليم والإبداع في الأديرة بالانهيار، ولم يقتصر الحال الآن على إنشاء مدارس غير لاهوتية لتقدم ثقافة أولى وتعليم إلى طبقة التجار والحرفيين، بل جرى تشكيل جامعات في المناطق المدنية، مثل: باريس، وأوكسفورد، وطولوز، ومونبيلر، وكمبردج، وسالرنو، وبولونا، وسالامنكا[3]، وشاهد العصر ملاحم أدبية ورومنسيات، مثل: رومانسية الوردة، وأغنية السيد، وفرسان المائدة المستديرة لآرثر، وnibelungenlied، والكوميديا الإلهية لدانتي[4]، وقدم مهرجو البلاط، أو الحمقى مصادر معاصرة لأعمال شعرية وأدبية عامية، وأنتج الاهتمام المتجدد في البناء والعمارة الأبنية القائمة على الأعمدة حسب النموذج الرومانسي، وكذلك بداية الفن القوطي، والبراعات الهندسية الميكانيكية، وعادت المخطوطات المزينة إلى الحياة[5]، وبدأ الفن، والأدب، والهندسة المعمارية، كله بالازدهار من جديد خلال العصور الوسطى العالية.

ومع هذا الازدهار والنشاط بقي المجتمع خاضعاً وهامداً، وهكذا قاومت الكنيسة التغيرات الكثيرة التي كانت تأخذ مكانها، فقد قضت أوامر التحريم البابوية في 1210 و1215، بتقييد تعليم أعمال أرسطو في باريس، ومع عام 1272م جرى منع أية مناقشة لأية قضية لاهوتية[6]، وأعطى القديس برنارد أوف كليرفو Clairvaux صوتاً فيه تأييد عاطفي للكنيسة عندما قال عن أبحاث أبيلارد العلمية: «إن كل شيء قد عولج بشكل مضاد للعادة والتقاليد»، وقد كتب برنارد يقول: «لقد جرى الاستهزاء ببساطة الإيمان، وتم تدنيس أسرار المسيح، والأسئلة حول الأشياء العالية سئلت بوقاحة وعدم ترابط، وتم الاستخفاف بالآباء لأنهم انصرفوا نحو المصالحة، وفضلوا ذلك على حل مثل هذه المشاكل، والعقل البشري يقوم باقتناص كل شيء لنفسه، تاركاً لاشيء للإيمان»[7].

وأظهرت الكنيسة مثل هذا الاستكار لانتعاش الآداب الكلاسيكية، مثلما تساءل في القرن الثاني عشر كرستيان هونوريوس أوف أوتون Christian Honorius of Autun:

«كيف استفادت الروح من صراع هكتور، ومن مناقشات أفلاطون، ومن أشعار فرجيل أو من مراثي أوفيد، وتأملاته، الذين هم الآن مع آخرين من أمثالهم يعضون أسنانهم ندماً في سجن بابل الجهنمي تحت الطغيان الوحشي لبلوتو Pluto»[8].

وعاملت الكنيسة الشعر وقدرته بكراهية، وصنفت الشعراء في بعض الأحيان مع السحرة الذين تزدريهم الكنيسة، فقد رسم رسام القرن الثاني عشر هورتوس ديليسياروم أوف هيراد أوف لاندزبيرغ Hortus deliciarum of herrad of landsberg على سبيل المثال: «أربعة شعراء أو سحرة»، وكل منهم مع روح شيطانية تحثه وتحرضه[9]، وأصر رجال اللاهوت على أن مهرجي البلاط «ليس لهم منفعة أو فضيلة» وليس «لهم أمل بالخلاص»[10].

وعبر المسيحيون الأرثوذكس عن مقت واستخفاف تجاه الازدهار والابداع، وأعلنوا أن مؤيدي الفنون هم مشركون وكفارٌ وثنيون، واعتقد المتحدث بصراحة في القرن الخامس عشر، المتنبئ الدومينيكاني غيرولامو سافونا رولا Girolamo savonarola أنه ينبغي طرد الشعراء ونفيهم، وأن العلم، والثقافة، والتعليم، يتوجب إعادتها تماماً إلى أيدي الرهبان، وقد كتب يقول:

«إن الشيء الوحيد الصالح الذي ندين به إلى أفلاطون وأرسطو هو أنهما قدما كثيراً من الحجج والمناقشات التي يمكن أن نستخدمها ضد الهراطقة، مع أنهما مع الفلاسفة الآخرين هم الآن في النار... ولسوف يكون صالحاً للدين إذا كان هناك الكثير من الكتب يبدو أنها مفيدة، أن يجري تدميرها، فعندما لا يكون هناك مثل ذلك العدد الكبير من الكتب، وليس هناك مثل هذه المناقشات الكثيرة والخلافات، سوف ينمو الدين بسرعة أكبر مما كان عليها قط»[11].

وقام سافونارولا بتنفيذ إصلاحاته السلوكية في فلورنسا حيث استخدم أساليب تتسم بها الدولة البوليسية، حيث أشرف على السلوكيات الشخصية من خلال تجسس الخدم، ونظم عصابات من الشباب للإغارة على بيوت فيها أشياء لا تتوافق

مع المثل الأرثوذكسية المسيحية، وجرى في عام 1497م إحراق كتب، خاصة ما عاد منها إلى الشعراء اللاتين والإيطاليين، وكذلك مخطوطات مزينة، وأدوات الزينة للنساء، وأدوات الموسيقى، ولوحات مرسومة، كلها أحرقت في نار كبيرة، فيها جرى تدمير كثير من أعمال عصر النهضة في فلورنسا.

ومع هذا كان مجتمع العصور الوسطى مليئاً بعدم الرضا والخلاف، فقد شرح كثيرون ينشدون العلاقة مع الرب ويطالبونها خارج الكنيسة، فقد وجد عامة الناس في العصور الوسطى قليلاً في الكنيسة يمكنهم الارتباط به، فقد غدت الكنائس أعظم مكانة، وأكثر تمسكاً بالشكليات، وألحت بحدة على الفوارق بين رجال اللاهوت وسواهم من الناس، وكانت ستارة الجوقة الغنائية تعزل جمهور المصلين عن المذبح، أما لغة القداسات التي تبدلت في القرن الرابع من الإغريقية إلى اللاتينية، حتى تكون أسهل فهماً، فقد باتت مع نهاية القرن السابع غير مفهومة تماماً بالنسبة إلى كثير من الناس، بما فيهم عدد كبير من الكهنة، ونتيجة لذلك غالباً ما باتت القداسات غير معقولة وبكماء، وغدت تماماً بلا معنى بالنسبة للمصلين[12].

وباتت الكنيسة ثرية الآن بلا حدود، شغلت نفسها أكثر في جمع المال، وآثرت ذلك على الارتباط بأعضائها وانشغال الكنيسة في العصور الوسطى وانصرافها كلياً نحو تحصيل الثروات، وصل إلى حد أن وصاياها العشر، قد اختصرت وتحولت إلى وصية واحدة هي «اجلب المال إلى هنا»[13]، وجرى اختيار الكهنة على أساس ثرواتهم أكثر منه على أساس بقية فضائلهم، وتطور تباين هائل بين رجال اللاهوت وغير اللاهوتيين، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل كان هناك تفاوت كبير جداً بين مراتب رجال اللاهوت، فقد كان - على سبيل المثال - دخل أسقف ثري، يتراوح ما بين ثلاثمائة ضعف إلى ألف ضعف حجم دخل الشماس[14]، ومنعت الكنيسة في القرن الثاني عشر، وحرمت على رجال اللاهوت الزواج، لمنع انتقال الثروات، وانتزاعها من الكنيسة، عن طريق الوراثة بين أسر رجال اللاهوت[15]، ودفع التناقض العقائدي في جمع الثروات الهائلة المنظمات التي قالت عن نفسها بأنها تمثل مُثل يسوع المسيح، إلى إصدار قرار أو مرسوم Cum inter nonnullos في عام 1326م، أعلن فيه هرطقة من يقول بأن المسيح ورسله يمتلكونَ أية ممتلكات[16].

وشرع الذين استهدفوا تحقيق ارتباط أكثر عمقاً ومعنى مع الرب، يزدادون انصرافاً نحو حركات خارج الكنيسة الكاثوليكية، ومثلت هذه الحركات الهرطقية في العصور الوسطى تكتلات كثيرة التنوع في التفكير، فقد كانت هناك الطوائف الرؤويّة التي آمنت بأن العالم قد اقترب من النهاية، وهؤلاء من أمثال الذين اقتدوا من قبل: بطرس دي بروي Breey، وهنري أوف لوزان Lausanne، وأرنولد أوف بريشيا Brescia، وآذنت جماعات أخرى مثل الوالدنسيانيين Waldensians، واللولارديين Lollards بظهور البروتستانت في رغبتهم بالارتباط بدقة أكبر، والالتزام بالكتابات المسيحية المقدسة، ومع ذلك اعتنقت مجموعات أخرى مثل: إخوانية الروح الحرة، والتولوبينيين Tulupins، والآدميين Adamites أفكار وحدة الوجود، وعقائد حيوية المادة (أي أن لكل شيء في الكون روح)، وتصوروا بأن العالم الماديّ هو متّحدٌ بالكامل ومدموج مع حضور الرب[17]، ومع نهاية القرن الرابع عشر تحدى ميستَر إيكهارت Meister Eckhart فكرة الحاجة إلى الكنيسة نفسها، حيث كتب: «عندما يظهر الملكوت إلى الروح، ويتم إدراك ذلك، لن تكون هناك حاجة بعد ذلك للوعظ أو للتوجيه والإرشاد»[18].

وأصرت كثير من الهرطقات على العلاقة المباشرة مع الرب، على الرغم من الخطر، وترجمت الكتاب المقدس إلى لغات عامية أو دارجة، يمكن للناس غير اللاهوتيين فهمها، وكانت عقوبة استحواذ مثل هذه التوراة هي الموت[19]، وفي إطار روح تقديم صور يمكن للناس أن يرتبطوا بها، بدأت صور المسيح أيضاً تصبح أكثر إنسانية وقرباً، وبالانتقال من التصوير الرومانسي ليسوع بمثابة القاضي للعالم القاسي، والكهنوتي الذي لا يمكن الوصول إليه، أخذ الفن القوطي الآن بتصويره ورسمه بمثابة كائن بشري، أكثر معاناة وأعظم رحمة[20].

وكانت عقيدة عبادة العذراء التي قد ازدهرت في العصور الوسطى، فيها أصبحت العذراء مريم الشخص الذي يمكن للإنسان أن يلتفت إليه من أجل الغفران، وهي التي يمكنها أن تحتج ضد أحكام الرب والشريعة القاسية التي لا تعرف الرحمة،

وقد حدثنا غيوفري آشي Geoffrey Ashe في كتابه «العذراء» وحكى لنا روايات وصفت لطفها وشفقتها من ذلك قوله:

«اللص يصلي لها قبل ذهابه إلى السرقة، وعندما يعلق على المشنقة تسنده في الهواء إلى أن يعلن الجلاد عن المعجزة ويتركه حياً.

والراهبة التي تترك ديرها للانغماس في الإثم، لكنها تداوم على الدعاء إلى مريم، ثم تعود أخيراً لتجد أن العذراء مريم قد أخذت مكانها وشغلته، ولذلك ما من أحد شعر بعدم وجودها»[21].

وجرى تكريس ابتهالات خاصة إلى العذراء مريم، كما أن أعظم كاتدرائيات العصور الوسطى قد أوقفت عليها، وذلك في باريس، وتشارترز، وريمس، وأمينس Ameins، وروان، وكاتانسز Coutansces، ونويون Noyon، وليون Laon[22]، وطورت أسماء مثل: «الوعاء الروحي» و«سبب سرورنا ومتعتنا»، و«خيمة العهد» و«مقعد الحكمة» وأشار شوسير Chaucer إليها على أنها «الملكة القديرة والرحيمة»[23]، وأعطى تمثال خشبي للعذراء والطفل يعود إلى القرن الرابع عشر، صنعه فنان ألماني مؤشرات تبجيل العصور الوسطى لهذه الأنثى الممثلة للربوبية، ولدى فتح تمثالها شوهدت العذراء وهي تحتضن الثالوث كله وتحتويه[24].

وجاءت ردات فعل الكنيسة، ليس بمحاولة تلبية حاجات الناس، ولكن بتقوية بناءها السلطوي، وبتطوير نظامها القضائي، وبالتأكيد بشدة أعظم على تفوقها على الجميع، ثم وسعت البابوية إدارتها ومجلسها الاستشاري الذي اسمه «الكوريا Curia»، وزادت من تنظيمها للأساقفة، وشرعت مجدداً بالدعوى إلى مجامع مقدسة، واستخدمت بصورة متزايدة الأهمية النواب البابويين، وكان النواب البابوين موظفون يمكنهم تجاوز سلطة الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وأزالوا بشكل فعلي السلطات المحلية للأساقفة، ووضعوا الأديرة بشكل أكثر مباشرة تحت السلطة البابوية[25].



تصور هذه القطعة الخشبية المعمولة في القرن الخامس عشر
طبيعة الحماية التي عزيت للعذراء مريم



تصور هذه القطعة الخشبية المعمولة أيضاً في القرن الخامس عشر العذراء كحامية حيث قامت بمساعدة الملائكة بوقاية الناس من نشاب الرب

وطورت الكنيسة نظامها القانوني الخاص لتدعي السلطة في مجال الشؤون غير اللاهوتية. وكان انبعاث القانون المدني، الصادر عن القانون الروماني والقانون الجرماني. قد حل محل الأعراف الإقطاعية، وزود التجارة بتطبيق مفاهيم وقواعد ذوات مجالات تطبيقية أوسع من الأعراف الريفية، التي قد تختلفُ تبعاً لكل منطقة محلية[26]. ولم يعترف القانون الروماني – على كل حال – بالبابا. ومع عام 1149م أدرك القديس برنارد مخاطر تطبيق القانون المدني بالنسبة للكنيسة. واشتكى من أن

المحاكم تعج بقوانين جوستنيان عوضاً عن قوانين الرب[27]، ومع عام 1219م حرم البابا على الكهنة دراسة القانون الروماني كلياً، وحظر تدريسه في جامعة باريس[28].

وعوضاً عن ذلك وضعت الكنيسة نظامها الخاص الذي دعته باسم القانون الشرعي، وقام في القرن الحادي عشر ايفو أوف تشارترز، وغراشيان Gratian في القرن الثاني عشر بإعادة تنظيم الكتلة غير المتناسقة والتي كانت في الغالب متعارضة، من المراسم والمراسيم في مدونات مفهومة، أكدت سيادة البابا وتفوقه، وقد كان مسموحاً له في ظل هذه القوانين الشرعية في توزيعها ووضعها موضع التنفيذ، وادعت المحاكم الكنسية العرفية السيادة القضائية والحق في فض جميع القضايا التي فيها منافع الكنيسة مهددة، مثل القضايا المتعلقة بالعشور، والمنافع، والأعطيات، والوصايا، ولكي تحمي الكنيسة مصالحها ادعت الحق بمحاكمة جميع أعضاء رجال اللاهوت[29]، وادعت الكنيسة الحق القضائي على جميع المسائل التي لها علاقة بالقربان المقدس أو باليمين، وكما أشار أحد المؤرخين: «لم يكن هناك أدنى حدود لتدخل الكنيسة لأنه في العصور الوسطى كانت رغبة المجتمع بأي شيء مرتبطة بالقربان المقدس، أو معتمدة على يمين»[30].

وصرفت كثير من الكنائس جهودها نحو تنظيم القانون الشرعي وإضافة التحسين والثقة إليه، وهو القانون الذي ركز على تأسيس سيادة البابا وترسيخها على السلطات الإمبراطورية، وأعطيت نظرية «كمال السلطة» البابا سلطة تامة على كل من الشؤون الدينوية والروحية، بحكم أنه نائب المسيح، وسمحت له بمنع توزيع القداسات المقدسة وإقامتها في إحدى ممالك الإمبراطورية، وأن يقوم بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على ملك من الملوك وخلعه[31]، وألغى إملاء القانون الشرعي التكريسي للبابوات المعيّنين من قبل الإمبراطورية، حيث أطلق عليهم البابوات المضادين، وشمل الإلغاء تكريس أي واحد من رجال اللاهوت جرى تكريسه من قبل مثل هؤلاء البابوات المعيّنين إمبراطورياً.

وجرى اكتشاف رسائل قديمة ودمجها في القانون الشرعي، واتخذت بمثابة بينة شاهدة على تفوق البابا على السلطات الإمبراطورية، وعرفت واحدة من هذه الرسائل باسم «هبة قسطنطين»، وقد استهدفت القول بأنها رسالة من الإمبراطور قسطنطين إلى البابا سيلفستر، فيها منح قسطنطين سلطاته إلى البابا، ومما جاء في

الرسالة: «نحن نمنح إلى . . . . سيلفستر، البابا العالمي. . . مدينة روما وجميع مقاطعاتها ومناطقها ومدن إيطاليا، والأقاليم الغربية. . . .»[32]، وفي القرن السادس عشر تبين بأن هذه الرسائل كانت مجرد زيف كامل.

وأصبح البابا بازدياد متورطاً في توجيه الصراعات السياسية، وفي الاستيلاء على البلدان، فقد كتب البابا بونيفيس الثامن إلى أليبرت هابسبورغ ملك النمسا: «نحن نهبك بحكم سلطاتنا الكاملة، مملكة فرنسا، التي هي عائدة إلى امتياز أباطرة الغرب»[33]، وقام البابا أدريان الرابع في رسالته التي أرسلها في القرن الثاني عشر إلى الملك هنري الثاني، ملك انكلترا بالتصديق على الغزو الانكليزي إلى إيرلاندا، حيث كتب يقول:

«إنه مما لا شك فيه، وكما تعرف ذلك، إن إيرلاندا وجميع هذه الجزر، التي تلقت الإيمان، عائدة إلى كنيسة روما، فإذا ما رغبت بالدخول إلى تلك الجزيرة، لتطرد الشرور منها، ولتجعل الشريعة مطاعة، وأن يجرى دفع بنس القديس بطرس من قبل كل بيت، يسرنا أن نمنحك إياها»[34].

ووصف المؤرخ فيليب سكاف Schaff إجراءات بابوية العصور الوسطى وأعمالها بقوله:

«لأن تخلع أمراء، وأن تحلل رعايا من التهم، ولتثير بفعالية الثورة ضد فريدريك الثاني، وأن تحول أراضي في جنوب فرنسا مثلاً، وأن تنزع تيجاناً، وأن تستخرج بالتهديد بفرض أقسى العقوبات الكنسية، دفع ضريبة، وأن تعاقب منشقين دينيين بالسجن الأبدي، أو أن تقوم بتحويلهم إلى السلطات المدنية، وأنت عارف بأن الموت سوف يكون العقوبة، وأن ترسل جيوشاً صليبية وأن تباركها، وأن تغزو مملكة ذات بلاط مدني، وأن تغتصب سلطاتها، وأن تزيل قانون أمة وتمحوه، كما حدث في قضية الماغنا كارتا لقد كانت هذه هي الامتيازات العليا، التي مورست فعلياً من قبل البابوية»[35].

وازدادت الرغبة البابوية للسلطة بشكل مضطرد، وقد اعتقد البابوات في أنفسهم أنهم متفوّقون على جميع المخلوقات الآخرين، ولم يدعّ البابوات فقط بأن كل شخص هو خاضع للسلطة البابوية، بل إن البابا نفسه لا يحاسب من قبل أحد، إلاّ الرب وحده، وفي عام 1302م أصدر البابا بونيفيس مرسوم Unam Sanctam الذي جاء فيه:

«وبناء عليه إذا ما أذنبت سلطة أرضية، إنها سوف تحاكم من قبل القوة الروحية.. ولكن إذا ما أذنبت السلطة الروحية العليا، فإنها سوف تحاسب من قبل الرب، وليس من قبل أي إنسان.. ولذلك إننا نعلن، ونصرح، ونحدد، ونتفوه: إنه بالإجمال من الضروري لخلاص كل مخلوق بشري أن يكون خاضعاً للحبر الروماني»[36].

ومما لاشك فيه أنه قد تفجرت النقاشات حول من الذي ينبغي أن يكون بابا، ويستحوذ على مثل تلك السلطة، وفي الانشقاق الكبير، حكم خطان منفصلان من البابوات، خط كان يعيش في روما، والخط الآخر عاش في آفنون Avignon، من 1378 حتى 1417، ولم يختلفا حول القضايا المتعلقة باللاهوت المسيحي، أو الممارسات الدينية، بل اختلفا حول السياسة، وحول من الذي ينبغي أن يحكم.

وكان من الوسائل الأخرى التي استجابت بها الكنيسة لمشاكل العصر، كانت عبارة عن محاولة تركيز الانتباه بعيداً عن التحركات الاجتماعية الهائلة، وكان ذلك بالاتجاه نحو عدو خارجي، ففي عام 1095م دعا البابا أوربان الثاني فرسان أوربا إلى الاتحاد والزحف إلى القدس، لتخليص الأرض المقدسة من المسلمين الكفرة، وهيأت الحروب الصليبية فرصة لتوسيع زيادة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية، كما أفادت الحروب الصليبية في تحقيق غايات سياسية أكثر قرباً في الوطن، وكان عندما افتتح البابا الحملة الصليبية الأولى في عام 1095، كانت الحروب الصليبية وسيلة لتوحيد قسم كبير من أوربا باسم المسيحية.

وتلبس الصليبيون بمشاعر استقامتهم وحقهم، وبناء عليه قاتلوا بوحشية أعداء الكنيسة، وقد أعلن البابا غريغوري السابع «اللعنة على كل رجل يرد سيفه ويرجعه عن سفك الدماء»[38]، ووصف المؤرخ ريموند أوف أغويلر Aguiler المشهد عندما ذبحت عصابة من الصليبيين المسلمين في القدس عام 1099م بقوله:

«وشوهدت أشياء رائعة، فقد جرى قطع رؤوس أعداد من المسلمين... ورمي آخرين بالنشاب، أو أرغموا على القفز من الأبراج، وجرى تعذيب آخرين لعدة أيام، ثم أحرقوا بالنيران، وكان الذي يشاهد في الشوارع أكواماً من الرؤوس والأيدي والأرجل، وكان الإنسان يتجول في كل مكان وسط جثث الرجال والخيول، وخاضت الخيول في المسجد الأقصى بالدماء حتى ركبها، لا بل حتى أفواهها، لقد كان حكماً ربانياً عادلاً ورائعاً، أن يمتلئ هذا المكان بدماء غير المؤمنين»[39].



البابا اوربان الثاني يدعو إلى الحروب الصليبية، ففي الوقت الذي قيل فيه بأن مقصد الحروب الصليبية كان إنقاذ الأرض المقدسة من الكفار، ساعد الصليبيون أيضاً على توحيد أوربا تحت لواء البابوية، وألغوا توجيه النقد إلى البابوية.

وكتب المؤرخ البيزنطي نيقيطياكونياتس Nicetas choniates: «إنه حتى المسلمين أكثر رحمة وشفقة مقارنة بهؤلاء الرجال الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم»[40].

وكان هناك عدوٌ آخر استهدفه الصليبيون هو الكنيسة الشرقية المؤسسة في القسطنطينية، وكانت ثقافتا الشرق والغرب قد ازدادتا بعداً عن بعضهما بعضاً لقرون، وكانت الثقافة الشرقية قد أعطت احتراماً أكبر للفنون، والآداب، والتعليم، كما كانت أكثر صقلاً ونضوجاً من الثقافة الغربية، واحتفظ الشرق باحترام بكتابات الإغريق القدماء، وبقيت اللغة الإغريقية هي اللغة الرسمية للقانون، والحكومة، وللكنيسة الشرقية، والآداب الشرقية، أما في الغرب فقد ضاعت حتى الأبجدية الإغريقية، وكما كتب المؤرخ شال. هـ. هسكنز HasKins: «أصبحت الكلمات على يدي الكاتب في العصور الوسطى غير مفهومة أو أنها حذفت، وأقحم مكانها كلمة Grecum، فقد كان كله إغريقياً بالنسبة له»[41]، ومنذ أواخر المائة السابعة للميلاد، بدأت الثقافتان في استخدام نقود مختلفة[42]، وتنامت الفوارق بين الثقافتين مع تطوير كل من الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، كل على حدة أشكالها الخاصة من الطقوس المسيحية، فقد احتفلتا بعيد الفصح في أيام مختلفة، واختلفتا في آرائهما حول ما يتعلق باستخدام الأيقونات، وفي ترتيب الثالوث المقدس حسب شريعة نيقية[43]، وكان هناك القليل من القواسم المشتركة بين الشرق والغرب، وذلك زيادة على أنهما معاً كانا يعدان أنفسهما مسيحيين.

ففي عام 1054م، بعدما أخفقت محاولات جبر الخلافات بين روما والقسطنطينية، تولت الشعبتان المسيحيتان صياغة انفصالهما، فبالنسبة للكنيسة الرومانية التي أكدت بنشاط تفوقها على الجميع، نُظر إلى الانفصال من قبلها على أنه تحدٍّ مواجهةٌ ورفض لسلطة البابا، وبمساعدة الكهنة الذين طوروا فكرة أن المنشقين الإغريق كانوا أتباع الشيطان، وينبغي توجيه اللوم إليهم حول كل نازلة ومصيبة، قام أفراد الحملة الصليبية الأولى في عام 1096 بنهب بلغراد، التي كانت المدينة الإمبراطورية الثانية بعد القسطنطينية[44]، وكتب مؤرخ إغريقي عن البابا يقول:

«. . . إنه يرغب في إرغامنا على الاعتراف بسيادة البابا وبتفوقه بين جميع الأساقفة، وأن نذكر اسمه في صلواتنا العامة، وذلك تحت التهديد بتنفيذ عقوبة الإعدام بحق الذين يرفضون»[45].

وفيما بعد أرسل البابا أنونسنت الثالث في عام 1024، جماعات من الصليبين إلى القسطنطينية، وانقضّ جند المسيح على القسطنطينية بروح انتقامية: يغتصبون، وينهبون المدينة ويحرقونها، وتبعاً للمؤرخ غيوفري فيلهاردين Geoffrey Villehardouin لم يحدث قط منذ خلق العالم أن أخذت مثل هذه الأسلاب كثرة من مدينة من المدن[47]، ورد البابا على الإمبراطور الإغريقي قائلاً:

«. . . نحن نعتقد بأن الإغريق قد عوقبوا من خلال (الصليبيين) بموجب حكم عادل صادر عن الرب، فهؤلاء الإغريق هم ناضلوا جاهدين في سبيل تمزيق رداء يسوع المسيح، الذي لا نظير له . . . إنهم الذين رفضوا الالتحاق بنوح في سفينته، فهلكوا باليم بشكل عادل، وهؤلاء هم الذين تألموا بشكل عادل من المجاعة، وعانوا من الجوع، لأنهم رفضوا استقبال بطرس المبارك أمير الحواريين، ليكون راعياً لهم. .»[48].

وبالنسبة للبابا كان اغتصاب القسطنطينية عقوبة عادلة لأنها رفضت الانصياع والطاعة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وأيدت نصوص التوراة موقفه هذا مثل قوله: «لكن أعدائي هؤلاء، الذين رفضوا بأن أحكم عليهم، أحضرهم إلى هنا، وأذبحهم أمامي»[49]، وبعد الهجوم تولى بطريرك لاتيني خاضع للبابا حكم المملكة حتى عام 1261م[50]، وتركت القسطنطينية - على كل حال - ضعيفة بشكل حاد، حتى سقطت في عام 1453م إلى الفاتح التركي.



صورة دخول الصليبيين إلى القسطنطينية

وفي حوالي المائتي عام من الاحتلال الصليبي، تمّ قتل آلاف إن لم نقل ملايين، وأحدث الصليبيون دماراً كبيراً مثلما فعلت الكنيسة في مستهل عصور الظلام، ولقد أحرقوا أي كتاب وجدوه[51]، وجرى إحراق مدارج عبرية مقدارها اثنا عشر ألف مجلد من التلمود، والكتابات الميمونية[52]، وفي الوقت الذي نهب فيه الصليبيون وسلبوا بانتقام، غالباً ما وجدوا أنفسهم غير قادرين على نقل كل شيء إلى أوطانهم بسبب صعوبة السفر، ومع أن الصليبيين جلبوا في أيامهم القوى العسكرية الأوربية التي احتشدت مع بعضها باسم المسيحية، سقطوا وأخفقوا، ونأوا بعيداً عن مقاصدهم الأخرى ونواياهم، وأخفق الصليبيون في كسب أكثر من تحكم ومراقبة متلاشية على القدس، وأخفقوا في إغناء صليباتهم، ولم يستطع الصليبيون كسب متحولين إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكَية، ونجحوا في نشر شعور مرير بالعداوة ما يزال مستمراً حتى اليوم[53].

وكان اليهود الأوربيون بالغالب هم أول ضحايا الصليبيين، هذا واستمر الاضطهاد المسيحي لليهود مدة طويلة بعد انتهاء الحروب الصليبية، وأصبح اليهود أكباش أضحية لكثير من القضايا لم تستطع الكنيسة تثبيتها، من ذلك على سبيل المثال، عندما استعر طاعون الموت الأسود، المترابط بداء الدبلي في القرن الرابع عشر، أوضحت الكنيسة أنه ينبغي توجيه اللوم إلى اليهود من أجله، وحرضت على هجمات عليهم[54]، وتطورت تقاليد شعبية ادعت بأن اليهود قاموا باختطاف أطفال مسيحيين وأنهم قد أكلوهم خلال موائد طقوسية يهودية لأكل البشر، وأن اليهود قد سرقوا القرابين المقدسة المسيحية المقدسة والمباركة ودنسوها، وكانت هذه هي القصص التي رواها الرومان صدوراً عن الكراهية للمسيحيين، ومثل ذلك القصص نفسها التي سوف يتحدث بها المسيحيون عن السحر، وهي القصص نفسها التي سوف يحكيها البروتستانت عن الكاثوليك[55]، وأصبحت المذابح المنظمة، والغارات على الكنس والأحياء اليهودية، وتدميرها، مظهراً عاماً من مظاهر الاستقامة والصلاح المسيحي.

وكان اليهود أهدافاً سهلة، لأنهم لم يتم قط احتضانهم من قبل المجتمع المسيحي، وفي ظل النظام الإقطاعي تضمنت رسوم التعيين والولاية، أن يؤدي المسيحي يميناً يتعهد فيه بإقصاء اليهود وإبعادهم عن عمل الأراضي وإرسالهم إلى

التجارة والحرف في المدن، وحدث على كل حال، أنه مع التزايد السريع للسكان في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ، وما تلاه من تدفق للناس على المدن، تأسيس نقابات الحرفيين، حيث صار لكل نقابة وليها الحامي وقديسها، وهنا مرة ثانية جرى طرد اليهود وإبعادهم إلى الحقول المتبقية، وهي: الأعمال المصرفية، وتبديل الأموال، وإقراض الأموال[56]، ولذلك صار اضطهاد اليهود أيضاً وسيلة موائمة ليتخلص الإنسان من المستدين منهم، واتخذت المناقشات الدينية حجة من قبل الملوك المستلفين للأموال لتسويغ مصادرتهم للمتلكات اليهودية، ولطرد اليهود من ممالكهم[57].

وأصبح كل واحد استحوذ على سلطة مرشحاً لأن يكون هدفاً للكنيسة، ومن ذلك مثلاً أن فرسان الداوية، الذين كانوا بالأصل مجموعة تشكلت لحماية الصليبين، ثم أصبح هؤلاء الفرسان - وقد حصلوا على نفوذ سياسي -، مقرضين للأموال موثوقين[58]، ومن المعتقد أنهم جلبوا معهم لدى عودتهم غنوصية، وقبالا (تصوف باطني يهودي)، وتصوُّفاً إسلامياً، وخشيت الكنيسة - ومعها الملوك - من ازدياد القوة السياسية للداوية، وصار هؤلاء مرتابين بما بدا من معتقدات دينية مستقلة، واستولت عليهم الغيرة بسبب ثرواتهم، ولذلك امتلكت كل من الكنيسة وبعض الملوك سبباً لاضطهادهم، ومثلما كان الحال مع اليهود، بدأت حكايات لاتصدق تروج حول الداوية، بما في ذلك روايات عن ممارسات طقوسية، تتضمن إنكار المسيح، والرب، والعذراء، والبصاق، والدوس، والتبول على الصليب، كما أنهم اتُّهموا باللواطة، وبقتل الأطفال غير الشرعيين، وبالسحر، وبناء عليه جرى قتل الداوية، وصودرت ممتلكاتهم[59].

ووجدت الكنيسة نفسها في وضع غريب وعدائي مع صنوف من الناس في العصور الوسطى، فكانت ردات فعلها سريعة، وقمعت بحدة وشدة البذور الأولى للقومية والرغبة بالاستقلال عن روما، وعندما نشبت خلافات حول دفع الضرائب في عام 1275، حرم البابا كنسياً، مدينة فلورنسا كلها[60]، وعندما نظمت مجموعة من دول المدينة الإيطالية الصغيرة ثورة ضد سيطرة البابا في عام 1375، استأجر نائب البابا في إيطاليا، روبرت أوف جينيفا Geneva عصابة من المرتزقة لإعادة الاستيلاء

على المنطقة، وبعدما أخفقت في الاستيلاء على مدينة بولونيا، انطلقت هذه العصابة للهجوم على بلدة سيسنا[61] Cessna الصغرى:

«مقسمين قسم رحمة بيمين مهيب على قبعة الكاردينال، وأقنع الكاردينال روبرت رجال سيسنا حتى يلقوا أسلحتهم، وكسب ثقتهم بطلب خمسين رهينة، فكان أن أطلق سراحهم على الفور، بمثابة بادرة حسن نية، ثم حشد مرتزقته وجمعهم... وأمرهم بالقيام بمذبحة عامة (لتطبيق العدالة)... ولمدة ثلاث أيام وثلاث ليال بدأت في الثالث من شباط 1377م، وبينما كانت أبواب المدينة مغلقة تولى الجنود الذبح (وباتت جميع الساحات مليئة بالموتى)، وفي محاولة للنجاة، غرق مئات في الخنادق، وطعنوا بظهورهم بسيوف لا تعرف الشفقة، واعتُقلتْ نساء من أجل الاغتصاب، وفرضت الفدية على الأطفال، وأعقب النهب القتل، وتلاه، ودمرت أعمال فنية، وتم إفساد المصنوعات الحرفية، وكل ما لم يمكن حمله والذهاب به، أحرقوه، أو جعلوه غير قابل للاستخدام، أو نثروه محطماً فوق الأرض، وكان عدد القتلى ما بين 2500 إلى 5000»[62].

وعين روبرت أوف جينيفا بابا بعد مضي ثلاثة أعوام في 1378، وأصبح يعرف باسم كليمنت السابع[63].

واعتماداً على الحدة المتناهية التي هجمت فيها الكنيسة على مجموعة اسمها الكاثارية Cathars، نستخلص أن عظمتها تهددت بهذه الهرطقة أكثر مما تهدَّدتْ من قبل أي هرطقة أخرى في التاريخ، وانتعشت الكاثارية ونشطت في جنوب فرنسا في منطقة عرفت آنذاك باسم اللاندوك Langedoc، كانت متميزة سياسياً وثقافياً عن الشمال، وكانت لاندوك متسامحة تجاه الاختلافات، فقد عاش هناك كثير من الأجناس مع بعضهم بوئام من: إغريق، وفينيقيين، ويهود، ومسلمين، ولم يكن اليهود متحررين فقط من الاضطهاد، بل إنهم احتلوا مكانة عالية، ووظائف استشارية مع اللوردات، لا بل حتى مع الأساقفة، وكان هناك تمييز طبقي أدنى وأخف، وشكل ألطف من أشكال الأقنان، ومدن حرة، ونظام قضائي مقام على القانون الروماني[64]، ولم يكن السكان في أي مكان آخر يمثل ثقافة سكانها، حيث كانت الثقافة والتجارة مزدهرتين، جاعلين منطقتهم أكثر المناطق ازدهاراً في أوربا.

وكان في الكاثارية ومندمج فيها الكثير من العناصر الدينية المختلفة، وهناك بينة قوية على وجود علاقة متينة بين الكاثارية وجماعات التصوف الإسلامي، وتقاليد القبالا اليهودية[66]، وشغلت النساء وظائف الكهنة وكان بإمكانهن القيام حتى بأكثر الطقوس أهمية مثل الـ Consolamentam[67]، وكان للكاثاريين علاقة وطيدة مع التوربادور، ومع كتاب الشعر الرومانسي، وقيل بأنهم اعتقدوا بأن الربّ تجلّى في ألوان الطبيعة والأصوات[68]، وكانوا محبوبين ومحميين من كل من الطبقات العليا ومن قبل جيرانهم الكاثوليك، إلى حد أنه عندما اختارت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فيما بعد قتالهم، اختار كثير من الكاثوليك الموت على التخلي عن جيرانهم الكاثاريين، وتسليمهم إلى الكنيسة[69].

ورداً على ازدياد شعبية الكاثاريين، اتهمتهم الكنيسة الكاثوليكية بالإثم العظيم: أي بتحقير الصليب والقربان المقدس، وبأكل لحوم البشر، وبرفض المسيح، وبالإباحة والعربدة الجنسية[70]، ومع ذلك فإن القديس برنارد الكاثوليكي الذي لا يمكن وصفه بأنه صديقٌ للكاثاريين قد قال عنهم:

«إذا ما استجوبتهم، لن يكون هناك شيءٌ أكثر مسيحية، أما بالنسبة لأحاديثهم لا شيء يستحق التوبيخ، والذي يقولونه يبرهون عليه بالأفعال، وبالنسبة لأخلاق الهرطقي وسلوكه، هو لا يغش أحداً ولا يخدعه، وهو لا يظلم أحداً، وهو لا يضرب أحداً، وجنتاه شاحبتان من الصيام، وهو لا يأكل خبزَ الكسالى، وهو يعمل بيديه من أجل عيشه»[71].

وجاء نشر الحكايات التآمرية المشوهة عن شرور الكاثاريين وفظاعاتهم، إما للجم شعبية الكاثاريين أو أنها جاءت لاجتثاث تيار التسامح، والتفكير الاستقلالي، وقد أثر هذا قليلاً بالاستخفاف بواحد من أشد عقوبات الكنيسة، حيث أن بلدة فيتربو Viterbo أقدمت على انتخاب واحد من المحرومين كنسياً حاجباً كبيراً[72].

وفي عام 139 ام بدأت الكنيسة بالدعوة إلى مجامع كنسية لإدانة الكاثاريين وجميع الذين يؤيدونهم[73]، ومع عام 1179م أعلن البابا الاسكندر الثالث حرباً صليبية ضد أعداء الكنيسة هؤلاء، واعداً بغفران عامين، والإعفاء من العقوبة لاقتراف الذنوب، إلى الجميع الذين سوف يحملون السلاح، مع خلاص سرمدي لكل من سوف يموت، واستخدمت كل هذه الإجراءات لتزويد الكنيسة بقوة عسكرية

لمحاربة الخلافات الكنسية الخاصة[74]، وقد أخفقت في حشد قوة ضد الكاثاريين المتمتعين بالشعبية، ثم قام في عام 1204م البابا إنوسنت الثالث في تدمير ما بقي من استقلال لدى الكنائس المحلية، وذلك عندما سلح نوابه بصلاحيات بأن «يدمروا، وأن يطيحوا، أو أن يقتلعوا ويجتثوا كل ما ينبغي تدميره، وبالإطاحة، أو باقتلاع، أو بزرع، أو بناء كل الذي سيبنى أو يزرع»[75]. وفي عام 1208م عندما منح إنوسنت الثالث بالإضافة إلى الغفرانات والخلاص السرمدي، أراضيَ، وممتلكات الهراطقة مع مؤيديهم، إلى أي واحد سوف يحمل السلاح، هكذا بدأت الحملة الصليبية الألبينية Albigensian بذبح الكاثاريين.



انوسنت الثالث - بابا من 1198 حتى 1216م

وأتلفت الوحشية التي امتدت ثلاثين عاماً عُشْر سكان لاندوك، ففي كاتدرائية القديس الناصري وحدها جرى قتل اثني عشر ألف إنسان، وأعدم فولق Folque أسقف طولوز عشرة آلاف إنسان[76]، وعندما انقض الصليبيون على بلدة بيزيرس Beziers، سئل النائب البابوي أرنود Arnaud الذي كان متولياً القيادة: كيف يمكن تمييز الكاثوليكي عن الكاثاري؟ فأجاب: «اقتلوهم جميعاً، لأن الرب يعرف جماعته»[77]، لذلك لم ينج من القتل ولا واحد من الأطفال ولم يستثنَ، وقد كتب واحد من المؤرخين يقول: «حتى الميت لم يكن آمناً من الإهانة، وكانت أسوأ أعمال الإهانات هي تكويم الأموات وتكديسهم فوق النساء»[78]، وكان عدد الذين قتلوا في بيزيرس عشرين ألفاً حسب رواية النائب البابوي، وحسب المؤرخين الآخرين ما بين ستين ألفاً ومائة ألف[79]، وقد قتلت الحملة الصليبية الألبينية مليونا من الناس، فهي لم تقتل الكاثاريين وحدهم فقط، بل قتلت كثيراً من سكان فرنسا، وبعد ذلك ضمت أراضي جنوب فرنسا إلى الشمال، بعدما تمت إبادة سكانها تقريباً، وبعدما تركت أبنيتها أكواماً من الخرائب، وبعدما جرى تدمير اقتصادها.

وعجزت الكنيسة الكاثوليكية، وهي مطوقة بهيكلها السلطوي، وكذلك مُلْتهمة من قبل اعتقادها بتفوقها الخاص، ولم تكن قادرة على التجاوب مع النمو السريع، والتغير الذي شمل مجتمع العصور الوسطى، وعوضاً عن ذلك طالبت بالطاعة إلى إملاءات البابا، وعندما أخفقت الحروب الصليبية ضد المسلمين، والإغريق واليهود الكفار، ولم تستطع إقامة وحدة أوربية دائمة تحت راية المسيحية، وجهت الكنيسة ضرباتها بالقرب إلى الوطن، وقاتلت أي واحد يهدد سلطتها، أولا يطيع أوامرها، وبالحرب التي امتدت ثلاثين عاماً، بشرت الحملة الصليبية الألبينية بنهاية مدة زمانية طولها خمسمائة عام من الظلم والتنكيل الوحشي، وهي مدة بطولها وبمدى اتساعها وشمولها لا نظير لها في العالم الغربي.

الفصل السادس

التحكم بالروح البشرية: محاكم التفتيش والعبودية (1250 - 1800م)

لم يكن هناك جهدٌ منظمٌ من قبل أي ديانة للتحكم بالناس، ولإحتواء روحانياتهم أقوى من محاكم التفتيش المسيحية، وهي قد تطورت خلال الإطار القانوني الخاص بالكنيسة، وقد حاولت محاكم التفتيش إرعاب الناس في سبيل الطاعة، وكما قال قاضي محكمة التفتيش فرانسيسكو بينا Francisco Pena في عام 1578م: «ينبغي أن نتذكر أن المقصد الأساسي من المحاكمة وتنفيذ الإعدام ليس إنقاذ الأرواح العائدة للمدانين، بل الوصول إلى الصلاح العام، وزرع الخوف في الآخرين»[1]، وقضت محاكم التفتيش على أعداد لا تحصى من الحيوات في أوربا، وفيما حول العالم حيث سارت في أعقاب المبشرين ولحقت بهم، ومع طغيان محاكم التفتيش قدم رجال الكنيسة، أيضاً تسويغاً لممارسة الاسترقاق والعبودية.

فقد بدت الروح غير الخاضعة في العصور الوسطى العليا فقط أنها تزيد فقط من تفاقم مطالب الكنيسة بطاعة غير مترددة، وعمياء كاملة، ذلك أن فهم الكنيسة للرب هو الفهم الوحيد، ولذلك يتوجب أن لا يكون هناك نقاشٌ ولا جدل، وذلك حسبما قال قاضي محكمة التفتيش برنارد غي Bernard Gui، وكذلك ينبغي أن لا يتناقش الرجل غير اللاهوتي مع غير المؤمن بل «أن يغرس في أحشاء الرجل ويدفعه بقدر ما يمكن أن يخرق»[2]، وفي الأيام المزهرة حول الروحانية، أصرت الكنيسة على أنها هي الأفق الوحيد والمكان المسموح فيه للإنسان أن يعرف الرب من خلاله، وقد أعلن

البابا إنوسنت الثالث: «إن أي إنسان سوف يحاول بناء رأي شخصي عن الرب يتعارض مع عقيدة الكنيسة، ينبغي حرقه من دون شفقة»[3].

وقبل أن تأخذ محاكم التفتيش طريقها كاملاً، رحبت الكنيسة بعودة الهراطقة إلى حظيرتها تحت شروط اعتقدت أنها معقولة، وفيما يلي مثال من هذه الشروط:

«ينبغي تجريد التائبين من ملابسهم حتى أوساطهم لمدة ثلاثة أيام أحد، وأن يجلدوا من قبل كاهن عند مدخل البلدة... حتى مدخل الكنيسة وبابها، وعليه أن يمتنع أبداً عن أكل اللحوم، والبيض، والجبن، إلاّ في أيام عيد الفصح، وعيد العنصرة، وعيد الميلاد، وعندما سيأكلها سوف يكون ذلك بمثابة إشارة تخليه عن ذنوبه وآثامه المانوية، وعليه لمدة عشرين يوماً، مرتين في العام أن يمسك عن تناول السمك واستخدامه، وكذلك عليه أن لا يتناول لمدة ثلاثة أيام من كل أسبوع: السمك، والخمرة، والزيت، وأن يصوم إذا كانتْ صحته وأعماله تسمحان له بذلك، وعليه أن يرتدي ثياباً رهبانية، مع صليب صغير مخاط على كل ثدي، وعليه إذا كان ممكناً الإصغاء إلى قداس يومياً، كما عليه أن يتلو سبع مرات صلوات الساعات القانونية، وذلك بالإضافة إلى الصلاة الربانية عشر مرات في كل يوم، وعشرين مرة في كل ليلة، وعليه أن يلتزم بدقة بالعقوبة، وعليه أن يعرض هذه الورقة على الكاهن ويريه إياها، وعلى الكاهن التأكد من مراعاة ما فيها وتنفيذه بدقة متناهية، ولسوف يبقى هذا السلوك الحياتي مستمراً ومحافظاً عليه إلى أن يرى النائب البابوي أنه بات من الموائم تغييره، في حين أن الإخلال في التوبة سوف يجعله معدوداً بين الحانثين لعهودهم وهرطقياً، وسيجري طرده وعزله عن جماعة المؤمنين ومجتمعهم»[4].

وعاد عدد قليل من الهراطقة إلى الكنيسة طواعية وبإرادتهم الذاتية.



قاضي محكمة تفتيش وهو يقوم بوظيفة معذب وقاض. تاركا امكانية قليلة جدا للمتهم بالهرطقة حتى يتمكن من البرهنة على براءته.

وحولت الكنيسة قانونها الشرعي لتأصيل وكالة يمكنها أن تفرض الالتزام والطاعة للسلطة الكنسية، وفي عام 1231م أقام البابا غريغوري التاسع محاكم التفتيش وجعلها بمثابة محاكم عرفية منفصلة، ومستقلة عن الأساقفة ورجال الكنيسة، حيث بات القضاة التفتيشيون مسؤولين فقط أمام البابا[5]، وحل قانون محاكم التفتيش محل القاعدة التقليدية في القانون الشرعي وهي: «إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته»، حيث صارت القاعدة الآن: «إن المتهم مدان حتى تثبت براءته»[6]، وعلى الرغم من المظاهر القضائية الخادعة، لم تترك إجراءات محاكم التفتيش إمكانية أمام المتهم ليثبت - أو تثبت - براءته، وخلصت الإجراءات ووصلت إلى نتيجة هي إدانة أي واحد حتى ولو كان متهماً بالهرطقة[7]، وكان المتهم محروماً من حق الاستشارة[8]، ولم يعطَ استثناء أو تقدير لوقت وزمان أو مكان الهراطقة المتهمين، أو إلى نوع الهرطقات المتهمين بها مهما كانت، وكانت صداقة مشكوك بها ومتهمة مع هرطقي مدان هي جريمة أيضاً، ومع ذلك لم تعطَ أية معلومات حول أية هرطقة كان المدان ينتمي إليها، وتم إبقاء أسماء شهود الاتهام سرية[9]، وكان المجال الوحيد والسبيل الفريد أمام الإنسان هو تقديم التماس إلى البابا في روما، العمل الذي كان مخفقاً وسخيفاً هزلياً[10]، وقد أعلن الراهب برنارد ديليسي Delicieux:

«لو أن القديس بطرس والقديس بولص اتهما بعبادة هرطقية، وجرى تعذيبهما وقمعهما وفقاً لمذهب محكمة التفتيش وطريقتها، سوف لن يكون مفتوحاً أمامهما سبيل للدفاع»[11].

وترأس قضاة محاكم التفتيش وأداروا محاكم التفتيش بمثابة قضاة ومعذبين مضطهدين، وفي الوقت الذي كان فيه على القاضي من الناحية الإجرائية الفنية أن يتوصل إلى قراره بعد التشاور مع جمع من الخبراء من اختياره، جرى على الفور إهمال هذا العمل الذي كان يضبط سلطته[12]، وجرى اختيار قاضي محكمة التفتيش بالدرجة الأولى بناء على قاعدة غيرته ولهفته لتعذيب الهراطقة وقمعهم[13]، وكان مسموحاً له ولمساعديه، ولرسله ولجواسيسه بحمل الأسلحة، وفي عام 1245م منحه البابا الحق في تحليل هؤلاء المساعدين من جريرة أية أعمال عنف يقترفونها[14]، وحوّل

هذا المرسوم محاكم التفتيش، التي كانت محررة من أي إشراف قضائي مدني، إلى محاكم غير محاسبة حتى أمام المحاكم العرفية الكنسية.

وبات قضاة محاكم التفتيش على درجة كبيرة من الثراء، حيث كانوا يتلقون الرشاوى والغرامات السنوية من الأثرياء الذين دفعوا في سبيل النجاة من الاتهام[15]، فقد كانت محكمة التفتيش تستولي على جميع الأموال والأملاك العائدة للمتهمين بالهرطقة[16]، وبما أنه كانت هناك فرصة صغيرة أمام المتهم حتى يبرهن على براءته، لم تكن هناك من حاجة لانتظار الإدانة حتى تتم عملية المصادرة لممتلكاته أو ممتلكاتها[17]، وعلى خلاف القانون الروماني الذي كان يبقي بعضاً من الأملاك إلى الورثة الأقرب من المدان، لم يترك قانون وشرعة محاكم التفتيش شيئاً، وبيّن البابا إنوسنت الثالث وأوضح بأن الرب قد عاقب الأطفال من أجل ذنوب والديهم، وهكذا ما لم يتقدم الأطفال ويصلوا بصورة تلقائية لشجب أبويهم، كانوا يتركون مفلسين بلا مال، واتهمت محاكم التفتيش حتى الأموات بالهرطقة، وفي بعض الحالات حتى بعد مضي سبعين عاماً على موتهم، حيث أخرجوا من قبورهم، وأحرقت عظام المتهم بالهرطقة، ثم أعقب ذلك مصادرة جميع أملاك الورثة[18].

ونادراً ما تشارك قضاة محاكم التفتيش بالمال المجموع مع البلاطات والإدارات الأسقفية، والحكومات المدنية، أو أنفقوا تلك الأموال على بناء الكنائس، كما كان مخططاً[19]، وكتب أحد المؤرخين وبين كيف قام قاضي محكمة التفتيش في الغالب «بالاستيلاء على كل شيء والاحتفاظ به لنفسه دون أن يرسل حتى أي حصة إلى موظفي محاكم التفتيش في روما»[20]، وكان قضاة محاكم التفتيش رافضين حتى نفقات إطعام ضحاياهم حيث كانوا يشجعون الأسر أو الجماعة على دفع مثل هذه التكاليف، ولم يكن أبداً أمر مصادفة أن تشوّق قاضي محكمة التفتيش وتطلعه إلى منطقة معطاة كان متناسباً مع الفرص للمصادرة[21].

وإنه لمن دواعي السخرية والدهشة أنه غالباً ما جرى اختيار قضاة محاكم التفتيش من رهبنتي الدومينيكان والفرنسيسكان، اللّتين آمنتا وتعهدتا بالأصل بتبني الفقر، وعملت الكنيسة قليلاً لتشجيع فكرتهم المثالية بالفقر، ومع أنها عدّت مؤسس رهبنة الفرنسيسكان، فرانسيس أوف أسيسي Assisi قديساً فإن الكنيسة اضطهدت أتباع فرانسيس الذي رفع راية عقائد الفقر، والذين عرفوا باسم فراتيسيللي

أو «الفرانسيسكان الروحيّين» أدانتهم الكنيسة وتبرأت منهم، أي من Fraticelli الفراتيسيللي على أنهم «خبثاء مزيفون» وقامت في عام 1315م بحرمانهم كنسياً[22]، وقد أمر البابا مارتين الخامس بتسوية قريتهم ماغنالاتا Magnalata بالأرض وبذبح كل واحد من سكانها[23]، أما الفرنسيسكان الذين تخلوا عن مذهب فرانسيس، وهجروا تعاليمه، فغالباً - على كل حال - ما جرى تعيينهم قضاة محاكم تفتيش، وفي الوقت الذي لم تقم فيه الكنيسة بالإقرار علنياً وبقبول شره قضاة محاكم التفتيش وفسادهم، لم تبذل هذه الكنيسة سوى القليل من الجهد لإيقاف ذلك.

ودمرت محاكم التفتيش الاندماج الاقتصادي، فبالإضافة إلى الاستيلاء المباشر على أملاك تجار ناجحين باتهامهم بالهرطقة، فقد حطم قضاة محاكم التفتيش التجارة بعدّهم بعض العمليات التجارية بأنها مريبة، من ذلك على سبيل المثال أن الخرائط، وصانعي الخرائط، الذين كانوا لا يستغنى عنهم من قبل التجار البحريين والحرفيين، نظر إليهم نظرة ريبة كبيرة جداً، فقد اعتقد قضاة محاكم التفتيش أن الكلمة المطبوعة هي قناة للهرطقة، وبذلك عرقلوا الاتصالات التي أُنتجت في القرن الخامس عشر عن طريق اختراع الصحافة المطبوعة[24]، وكان مجرد الشك بالهرطقة يلغي جميع حقوق الفرد المشكوك فيه[25] وعندما يوجه الاتهام لإنسان بالهرطقة، فإن جميع الديون التي عليه، وجميع الرهائن والضمانات لهذه الديون تصبح لا شيء ولاغية، وقد كتب المؤرخ هنري شارل لي Lea يقول:

«بما أنه ما من إنسان يمكنه أن يكون متأكداً من أرثوذكسية الآخر، سيكون من الجلي كم من عدم الثقة لابد وقد ألقي حتى على عمليات التبادل الحياتي العامة، وألقى هذا بنفوذه المأساوي على تطور التجارة والصناعة، وهذا ما يمكن بسهولة فهمه وتصوره ببداهة، وجاء هذا عندما بدأت أوربا تتحرك وبدأ هذا التحرك يبشر بفجر الثقافة الحديثة»[26].

وفي الوقت الذي ازدهر فيه قضاة محاكم التفتيش ونشطوا، تركت عملياتهم الجماعات في حالة من الفقر المدقع.

وكانت محاكم التفتيش من دون رحمة مع ضحاياهم، ذلك أن الرجل نفسه الذي كان هو المضطهد والقاضي كان هو الذي اتخذ قرار الإدانة، وفي عام 1244م قرر مجمع أربونه (نربون) ورسم أنه في إصدار قرار الإدانة على هراطقة، ينبغي عدم

استثناء زوج بسبب زوجته، ولا زوجة بسبب زوجها، ولا أبوين بسبب أولادهما الذين لا حول لهم ولا طول، وما من قرار إدانة، يجوز تلطفيه أو تخفيفه بسبب المرض أو التقدم بالعمر[27]، وكان كل قرار إدانة بلا استثناء يتضمن الجلد.

وبالنسبة لقرارات الإدانة كان الحج يعدّ ألطفها، لكن أن يقوم بذلك على الأقدام، فإن مثل هذه العقوبة قد يستغرق تنفيذها أعواماً، خلالها يمكن أن تهلك أسرة المحكوم عليه[28]، وكان يحكم عليه أن يحمل أعظم الوصمات، فعدا عن الحج كان عليه «أن يرتدي الصلبان»، وكان أيضاً يعرف باسم Poena Confusibilis أو «العقوبة المذلة»، وكان يطلب من المعاقب أن يرتدي صلباناً كبيرة زعفرانية اللون في الأمام وفي الخلف، مما أخضع المعاقبين للسخرية الشعبية، وأعاق كل جهد في سبيل كسب العيش[29]، وكان من أكثر قرارات الحكم صدوراً، القرارات التي قضت بالسجن المؤبد، وكان المسموح به للسجين قليلاً جداً من الطعام الذي تألف من الخبز والماء، وفي بعض الأحيان كان يقضى على المدان بالبقاء بالأغلال، وسمح له في بعض الأحيان بالحبس الانفرادي، وكان المتوقع دوماً أن الحياة بالنسبة لكل محكوم عليه بالسجن أن تكون قصيرة جداً[30].

وكانت أقسى العقوبات هي الإحراق بالربط إلى عمود، وكانت هذه تصدر بحق الذين إما أُخفقوا في تنفيذ عقوبة ماضية، أو عادوا فانتكسوا في الهرطقة، أو الذين يرفضون الاعتراف بأية جريمة، ومع أن الكنيسة بدأت بقتل الهراطقة في أواخر القرن الرابع، ومرة أخرى في عام 1022 في أورليان Orlean، أصرت الآن مراسيم تشريعية بابوية في عام 1231م على أن يعاني الهراطقة الموت بالنار[31]، وكان إحراق الناس بالنار حتى الموت فيه من الناحية التقنية تجنب لإراقة نقطة واحدة من الدم، وفهمت كلمات إنجيل يوحنا بجواز الإحراق وهي قوله: «إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق»[32].

وأبعدت الكنيسة نفسها ونأت بها عن القتل، بتحويل الهراطقة إلى السلطات المدنية من أجل الإحراق الفعلي، ومثل تلك السلطات المدنية لم يكن مسموح لها بالاعتذار أو الرفض، فعندما - على سبيل المثال - رفض مجلس شيوخ البندقية في عام 1521م الموافقة على تنفيذ مثل هذه العقوبات، كتب البابا ليو العاشر إلى أولئك الذين كانوا هم الموظفين المدنيين يقول:

«عليكم عدم التدخل مرة أخرى في هذا النوع من الأحكام، بل عليكم أن تقوموا على الفور من دون تغيير أو تفتيش بتنفيذ القرارات التي أصدرها قضاة كنسيون، وهي القرارات التي أمروا بتنفيذها، وإذا ما أهملوا أو رفضوا عليك أنت (النائب البابوي) أن ترغمهم بموجب قانون العقوبات الكنسي، وبموجب الإجراءات الأخرى المناسبة، فمن هذا الأمر ليس هناك استئناف»[33].

وبشكل عملي، كانت أية سلطات مدنية ترفض التعاون، تصدر بحقها عقوبة الحرمان الكنسي، وتكون خاضعة للمعاملة نفسها كهراطقة مرتاب بهم[34].

وكان الجانب الأكثر وحشية في نظام محاكم التفتيش، هو الوسائل التي انتزعت بها الاعترافات وعملت، أي غرفة التعذيب، وبقي التعذيب خياراً قانونياً بالنسبة للكنيسة من عام 1252م عندما أجازه البابا انوسنت الرابع حتى عام 1917، عندما وضع موضع التنفيذ مدونة قضائية قانونية جديدة[35]، وأجاز انوسنت الرابع استخدام وقت غير محدود لتأمين الاعترافات، وأعطى قضاة محاكم التفتيش كل ما أرادوه لتعذيب المتهمين[36]، ومع أن رسالة الشريعة حرمت تكرار التعذيب، وبسهولة تجنب قضاة محاكم التفتيش هذا الحكم ببساطة «بإدامة التعذيب دونما انقطاع»، مطلقين على أية استراحة اسم «تعليق»[37]، وفي عام 1262م جرى منح قضاة محاكم التفتيش ومعاونيهم، السلطة ليقوموا بتحليل بعضهم بعضاً بهدوء من جريمة سفك الدماء[38]، وأوضحوا بكل بساطة بأن المعذبين قد ماتوا بسبب أن الشيطان قد حطم رقابهم.

وهكذا مع الإجازة وقد منحت من قبل البابا نفسه، كان قضاة محاكم التفتيش أحراراً في سبر غور أعماق الرعب والوحشية، حيث كانوا يرتدون ثياباً سوداء زادوها خبثاً بوضع قلنسوات شيطانية سوداء على رؤوسهم، واستخرج قضاة محاكم التفتيش الاعترافات من كل واحد تقريباً، واخترع قاضي محكمة التفتيش كل وسيلة يمكن تصورها لإنزال العذاب وإحداث الألم بتقطيع الأوصال ببطء، وبتغيير أوضاع الجسد، وكتب على كثير من أدوات التعذيب المبدعة وحفر شعار «المجد للرب وحده»[39].



قداس إحراق. كان القصد منه كما قال واحد من قضاة محاكم التفتيش: «علينا أن نتذكر أن الهدف الأساسي من المحاكمة ثم التنفيذ ليس إنقاذ روح المتهم بل الوصول إلى إخضاع الناس وزرع الخوف في قلوب الآخرين».

وكان التعليق والرفع والتعذيب في الماء هي من أكثر الطرائق شيوعاً، وكان الضحايا يغلفون ويدلكون بشرائح من شحم الخنزير أو يطلون بالدهن، ويجري شيهم ببطء وهم أحياء[40]، وبنيت أفران لقتل الناس، وقد باتت هذه الأفران سيئة السمعة في القرن العشرين على أيدي الألمان النازيين، واستخدمت هذه الأفران أولاً من قبل محاكم التفتيش المسيحية في شرقي أوربا[41]، كما جرى إلقاء الضحايا في حفر عميقة مليئة بالأفاعي، ودفنوا وهم أحياء، وكانت إحدى طرائق التعذيب الشنيعة بشكل خاص، فيها قلب وعاء كبير مملوء بالفئران على المعدة العارية للضحية، ثم كانت النار توقد على ظهر الوعاء مسببة الرعب للفئران، والحفر للاختباء في المعدة[42]، وإذا ما صدف وتحمل الضحية مثل هذه الآلام دون أن يعترف، وقتها كان هو، أو هي، يحرق حياً وهو مربوط إلى عمود، وغالباً ما يكون الحرق جماعياً وعلنياً، وكان يطلق عليه اسم Autto-da-[43].

وردد الكتّاب الذين عاصروا ذلك أصداء الرعب الذي خلقته محاكم التفتيش، وقد روى لنا جوان دي ماريانا Juan de mariana أنه في العشر الأخير من القرن الخامس عشر:

«. . كان الناس قد حرموا من حرية أن يسمعوا وأن يتكلموا كما يريدون، بحكم أنه كان هناك في جميع المدن، والبلدات والقرى أشخاصٌ معيّنون لإعطاء المعلومات عما حدث، وقد عدّ هذا من قبل البعض أنه أكثر أنواع العبودية سوءاً، وأنه معادل للموت»[44].

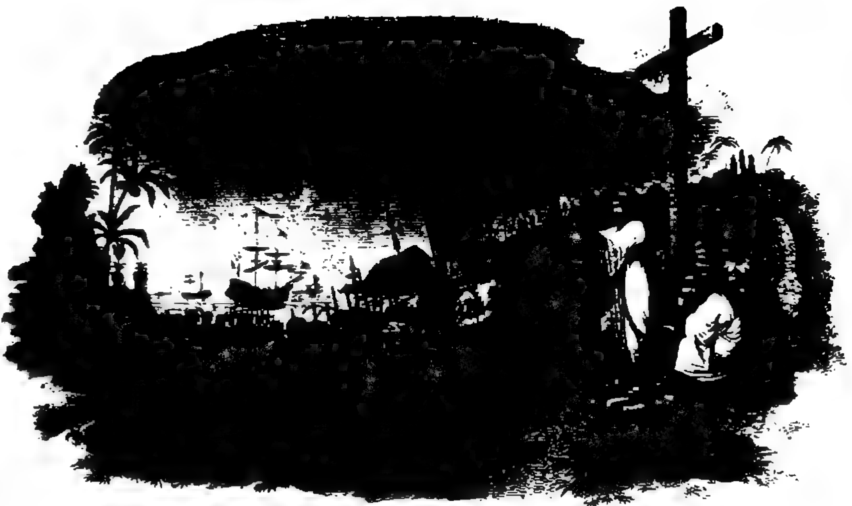
وفي عام 1538م وصف كاتب، الحياة في مدينة طليطلة الاسبانية قائلاً:

«. . لا يتجرأ الوعاظ على الوعظ، والذين يتولون الوعظ لا يتجرّؤون على ملامسة القضايا المثيرة للجدل، لأن حياتهم وكرامتهم هي في أفواه اثنين من الجهلة، وما من أحد في هذه الحياة موجود من دون شرطيه. . . وقليلاً ثم قليلاً يغادر كثير من الناس الأثرياء البلاد إلى ممالك أجنبية، من أجل أن يعيشوا حياتهم كلها بالخوف والارتعاد في كل وقت يدخل فيه ضابط من محاكم التفتيش بيتهم، لأن الخوف المستمر هو موت أسوأ من توريث مفاجئ».

وغالباً ما استهدفت محاكم التفتيش أعضاء من الديانات الأخرى بالحدة نفسها التي استهدفت فيها الهراطقة، وأعارت محاكم التفتيش سلطاتها الآن إلى

المعيار المسيحي الطويل الأمد في اضطهاد اليهود، خاصة خلال أسبوع الآلام المسيحي المقدس، وغالباً ما أثار المسيحيون الاضطراب ضد اليهود، أو رفضوا بيعهم الطعام، على أمل إجاعتهم[46]، وفي بداية القرن الثالث عشر، طلب البابا انوسنت الثالث من اليهود ارتداء ثياب متميزة[47]، وفي عام 1319م أقلع رئيس شمامسة اشبيلية «بحرب مقدسة ضد اليهود»[49]، ومع عام 1492م، أصبحت محاكم التفتيش في اسبانيا قاسية وخبيثة جداً، ففي اضطهادهم لليهود، طلبت منهم إما التحول إلى المسيحية، أو نفيهم مطرودين، وعانى المسلمون أقل قليلاً، وليس مدهشاً أن البلدان الإسلامية منحت اليهود الناجين ملاجئ آمن مما وجدوه في البلدان المسيحية.

وغالباً ما اختزل المؤرخون المسؤولية المسيحية عن محاكم التفتيش، بتقسيم تاريخ محاكم التفتيش إلى ثلاثة مراحل منفصلة وهي: الوسيطة، والإسبانية، والرومانية، واعتقدوا بأن التأثير العلماني الكبير للملك فرديناند والملكة ايزابلا يفصل محاكم التفتيش الإسبانية عن محاكم تفتيش العصور الوسطى، ومع هذا كان القائد الأعظم تأثيراً في محاكم التفتيش الإسبانية هو الدومينيكاني توماس دي تورقيمادا Tomas de Troquemada، وكان هذا قد جرى تعيينه قاضي محكمة تفتيش عاماً من قبل البابا سيكستوس الرابع Sixtus IV، وجرى طرد اليهود من إسبانيا، ليس بسبب محرض مالي (كان هناك قليلاً من المال يمكن تحصيله من طرد جماعة كبيرة، كانت ضرائبها قد دفعت مباشرة إلى التاج)، ولكن خوفاً من أن اليهود قد يلوثون المجتمع المسيحي ويفسدونه[50]، وكانت محاكم التفتيش الرومانية متميزة عن محاكم التفتيش في العصور الوسطى، لسبب رئيسي وهو أنها أعيدت تسميتها، ففي عام 1542م أعاد البابا بولص الثالث تعيين محاكم تفتيش العصور الوسطى إلى حشد طائفة محاكم التفتيش، أو المكتب المقدس، وكانت كل مرحلة - على كل حال - متميزة بسمتها، وبالمطالبة بخضوع تام للأفراد للسلطة، وهو مطلب تجذر في الاعتقاد الأرثوذكسي، بان الرب - مثل هذا - يطلب طاعة عمياء.



لوحة تصور كريستوفر كولمبوس ونزوله في العالم الجديد. وقد ظهر فيها أن عمله في سبيل تحويل السكان المحليين إلى المسيحية قد سوغ الأعمال الوحشية التي مورست ضدهم.

وكان الطغيان الموروث من الاعتقاد بتفوق واحد فقط، قد ترافق مع أعمال الكشف وبعثات التبشير خلال العالم، فعندما نزل كولومبوس في أمريكا عام 1492م أخطأ في معرفتها فظنها الهند، فأطلق على السكان المحليين فيها اسم «الهنود»، وكان هدفه المتعهد به هو «تحويل الكفار الهنود إلى إيماننا المقدس»[51]، وهذا كان ترخيصاً باستعباد آلاف من الأمريكيين المحليين وتصديرهم، وكانت نتيجة هذه المعاملة الإبادة، وهذا لم يشكل قضية، طالما أن هؤلاء السكان المحليين قد منحوا الفرصة لحياة سرمدية من خلال عرضهم على المسيحية[52]، وأعطى هذا النوع نفسه من التفكير الغربيين أيضاً الإجازة لاغتصاب النساء، ووصف كولومبوس بكلماته كيف أنه شخصياً «نال متعته» مع امرأة محلية بعدما جلدها «بحصافة» بقطعة من حبل[53].

وبسرعة لحقت محاكم التفتيش بهم وسارت على أثرهم، ففي عام 1570م أسست محاكم التفتيش محكمة عرفية مستقلة في بيرو، وفي مدينة مكسيكو بقصد «تحرير الأرض، التي أصبحت ملوثة بالهنود والهراطقة»[54]، وجرى إحراق السكان المحليين الذين لم يتحولوا إلى المسيحية مثل إحراق أي من الهراطقة[55]، وانتشرت محاكم التفتيش حتى وصلت بعيداً حتى غوا Goa، والهند حيث أخذت في أواخر القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر ما لا يقل عن 3800 حياة[56].

وحتى من دون حضور محكمة تفتيش رسمية، أوضح سلوك بعثات التبشير بما لا يقبل الشك الاعتقاد بتفوق صورة واحدة للرب، وليس بتفوق واحد شامل للربوبية كلها، وإذا كانت صورة الرب المعبودة في البلاد الأجنبية لم تكن مسيحية، كانت بكل بساطة ليست ربانية، ودمرت بعثات التبشير البرتغالية في الشرق الأقصى المعابد، وأرغمت العلماء على إخفاء مخطوطاتهم الدينية، وطمست الأعراف القديمة[57]، وكتب مايان Mayan الناسخ في وسط أمريكا:

«قبل قدوم الاسبان، لم يكنْ هناك سرقة أو عنف، وكان الغزو الاسباني هو بدايةً فرض الضرائب، وبداية دفع الرسوم للكنيسة، وبداية النزاع»[58].

وفي عام 1614م اتهم شوغون Shogun الياباني آي يازو Iye Yazu أفراد البعثات التبشيرية بأنهم «يريدون تغير حكومة البلاد وأن يجعلوا من أنفسهم سادة على التراب»[59].



شعر المبشرون أنهم يمتلكون الحق في قتل السكان المحليين الذين رفضوا التحول إلى المسيحية أو تقديم الطاعة للكنيسة.

ومع عدم فهم المشاركة بالتفوق والسلطة، تحارب أفراد البعثات التبشيرية فيما بين بعضهم بعضاً مثلما فعل أوائل المسيحيون الأرثوذكس، الذين أراداو أن يأمر أحدهم الآخر[60]، وفي اليابان والصين تحارب الدومينيكان بمرارة مع الجيزويت، وفي الشرق الأدنى تقاتل الفرنسيسكان مع الكيوشيين[61]، وفي 1805م سأل مقدم سينكى Seneca واحداً من رجال البعثات التبشيرية الموارفانية Moravian: «مادامت هناك ديانة واحدة، لماذا الناس البيض مختلفون إلى هذا الحد حولها»[62]؟.

وغالباً ما شارك رجال البعثات التبشيرية في أعمال الاستثمار العشوائية للبلدان الأجنبية، وصار كثيرون رجال بعثات تبشيرية للحصول على الثروة بسرعة، ومن ثم يعودون إلى أوربا ليعيشوا على ما جنوه، وكان معروفاً في المكسيك أن الدومينيكان، والأوغسطينيين، والجيزويت، كانوا يملكون أكبر قطعان الأغنام، وأفضل أنواع السكر، وأحسن المزارع عناية وحفظاً[63]. . .، وأيدت الكنيسة - خاصة في جنوب أمريكا - استرقاق السكان المحليين، وسرقت الأراضي المحلية، وفي عام 1493م سوغ مرسوم بابوي إعلان الحرب على أي سكان محليين في جنوب أمريكا، الذين يرفضون اعتناق المسيحية[64]، وادعى القاضي اينسيسكو Encisco في عام 1509:

«بأن للملك كل الحق في إرسال رجاله إلى الهنود ليستولوا على أراضي هؤلاء الكفار ويأخذوها منهم، لأنه تلقاها من البابا وتسلمها، وإذا ما رفض الهنود، يمكنه بصورة قانونية تماماً أن يحاربهم، وأن يقتلهم، وأن يسترقهم، تماماً كما قام يوشع باستعباد سكان بلاد كنعان»[65].

ودافع المسيحيون الأرثوذكس عن العبودية على أنها جزء من القانون الرباني في المراتب اللاهوتية، وهناك نص في التوراة يؤيد نظام الاسترقاق جاء فيه:

«وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيداً وإماء، وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم. وتستملكونهم لأبنائهم من بعدكم ميراثَ مُلْك، تستعبدونهم إلى الدهر»[66].

وأمر القديس بولص العبيد بإطاعة أسيادهم[67]، وكتب القديس القديم جون خريسوستوم Chrysostom: «على العبد أن يستسلم لقدره ففي إطاعته لسيده، هو يطيع الرب. . . »[68].

وكتب القديس أوغسطين في مدينة الرب:

«الرق الآن عقوبة في الصفة، ومخطط له بوساطة القانون الذي يأمر بالحفاظ على النظام الطبيعي ويمنع الاضطراب»[69].

وبينما كان هناك رجال بعثات تبشير اعترفوا ببشرية الأمريكيين المحليين، وعملوا بإخلاص لتحسين أحوالهم، قلة هم الذين اعترفوا بوجود عدالة موروثة في فكرة العبودية، حتى الجيزويني المعروف بشكل جيد أنطونيو فيرا Antonia Vieira الذي سجن من قبل محكمة التفتيش لعمله لصالح السكان المحليين، دافع عن استيراد الأفارقة السود للخدمة كرقيق من أجل المستوطنين المستعمرين، وظل يعتقد بأن الهاربين من الرق مجرمين باقتراف الذنب، ويستحقون الحرمان الكنسي[70].

وأيد المسيحيون الأرثوذكس أيضاً ممارسة الاسترقاق في شمالي أمريكا، وأوضحت الكنيسة الأنكليكانية في القرن الثامن عشر تماماً بأن المسيحية حررت الناس من الإدانة الدائمة، وليس من أغلال العبودية، وكتب أسقف لندن إدموند غبسون Edmund Gibson:

«إن الحرية التي أعطتها الكنيسة هي الحرية من أغلال الذنب والشيطان، ومن تحكم شبق الرجال، ومن نوبات الانفعال، والرغبات الجامحة، ولكن بالنسبة لأوضاعهم الخارجية، إنها مهما كانت من قبل، سواء أكانوا أرقاء أم أحراراً، طالما أنهم تعمدوا، وأصبحوا مسيحيين، ليس من الضروري إحداث تغير في ذلك»[71].

وعلى كل حال من المتوجب تحويل الأرقاء إلى المسيحية، بحجة أنهم سوف يصبحون أسهل انقياداً وطاعة[72].

واعتمدت كل من محاكم التفتيش والذين أيدوا ممارسة الرق على التسويغ الديني نفسه، وفي المحافظة والبقاء مع الإيمان المسيحي الأرثوذكسي في رب واحد ومخيف، رب يحكم من فوق ذروة المراتب اللاهوتية فإن القوة بقيت كامنة فقط مع

السلطة، وليس مع الفرد، وهكذا جرى تقدير الطاعة والخضوع تقديراً قيمته أعلى بكثير من الحرية، والاستقلال باتخاذ القرار الذاتي، ولقد شغلت محاكم التفتيش وأسهمت في صنع أكثر النتائج ظلاماً لهذا النمط الإيماني، وذلك حين سجنت وقتلت الأجساد والأرواح لعدد لا يحصى من الناس، وفعلت ذلك ليس لمدة قصيرة من الزمن، فقد عاشت محاكم التفتيش لمدة قرون، وظلت نشطة عاملة في بعض الأماكن حتى عام 1843م[73] .

الفصل السابع

الإصلاح الكنسي: تحويل الجماهير (1500 - 1700م)

حاولت كل من حركة الإصلاح البروتستانتية، وردات الفعل الإصلاحية الكاثوليكية، تنقية المسيحية من العناصر الوثنية المسيحية، ففي الوقت الذي تبنت فيه كنيسة العصور الوسطى العقيدة الأرثوذكسية نظرياً، شغلت نفسها عملياً إلى أبعد الحدود بجمع الثروات، وبفرض الطاعة الاجتماعية، وآثرت ذلك على التوجيه الروحي لعامة الناس، وانطلق الإصلاحيون الآن يشرون بين الشعوب الأوربية ويدعونهم إلى فهم أفضل للمسيحية الأرثوذكسية القويمة، فبإخافة الناس وإرعابهم بقصص عن الشيطان وعن مخاطر السحر، أقنعوا الناس في أن يؤمنوا بإله مسؤول وصاحب سلطة، هو الذي طالب بالنظام وبالصراع، وبالتخلي عن المتع الجسدية.

واحتجاجاً من مارتن لوثر على كنيسة يتعلق اهتمامها الأعظم بجمع الأموال، أكثر من اهتمامها بتعليم ما جاء في الكتابات المقدسة، قام بعمله هذا بتأصيل الإصلاح البروتستانتي، وعندما وضع أطروحاته الخمس والتسعين على أبواب كنيسة بلدته في عام 1517م، رفع لوثر صوتاً انتشر بالطول والعرض، دعا إلى رفض الكنيسة، ووجدت احتجاجاته تأييداً بين الفلاحين المستمرين والمستغلين، ولدى الذين نادوا بالاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذين رفضوا إرسال الأموال إلى الكنيسة في روما، وتملك الكنيسة لممتلكات كبيرة جداً من الأراضي، وانتشرت البروتستانتية على الفور في جميع أنحاء ألمانيا، وسويسرا والبلاد المنخفضة، وإنكلترا، وسكوتلندا، وممالك إسكندنافيا، وكذلك خلال أجزاء من فرنسا وهنغاريا، وبولندا.



صورة مارتن لوثر وهو يحرق المرسوم البابوي، وكان احتجاجه ضد الكنيسة الكاثوليكية وراء قيام حركة الإصلاح البروتستانتية.

وجاءت استجابة الكنيسة الكاثوليكية بالقيام بإصلاحها الخاص، والذي أطلق عليه اسم الإصلاح المضاد، وقد تمحور حول قرارات وقوانين مجمع ترنت Trent التي اجتمع فيما بين 1545 و1563م، واشتعلت العداوة بين البروتستانت والكاثوليك على شكل سلسلة من الحروب الأهلية في فرنسا، وانكلترا، وكذلك في حرب الثلاثين عاماً الدموية، التي تورطت فيها ألمانيا، السويد، وفرنسا، والدانمارك، وإنكلترا ونزلاند (هولندا)، والإمبراطورية الرومانية المقدسة ممثلة بآل هابسبورغ Haspsburgs، وبما أن الجانبين عدّوا أنفسهم مسيحيين، ولم يخففوا من سفك الدماء، ففي يوم 24 آب عام 1572م على سبيل المثال، فيما بات يعرف باسم مذبحة يوم عيد القديس بارثلميو Bartholomew جرى ذبح عشرة آلاف بروتستانتي في فرنسا، وقد كتب البابا غريغوري الثالث عشر إلى ملك فرنسا شارل التاسع يقول: «نحن نبتهج معك، أنه بعون الرب قد حررت العالم من هؤلاء الهراطقة الأشرار»[1].

ومع ذلك اهتم كل من البروتستانت والكاثوليك وانشغلوا بإقامة مسيحية مؤسسة على العقيدة الأرثوذكسية القويمة، ووجه البروتستانت جهودهم نحو الدعوة إلى ارتباط دقيق بالكتابات المقدسة، واستعانت البروتستانتية بالصحافة المطبوعة وبذلك عبرت الرسالة البروتستانتية عن تماسك وانضباط أكبر، فكانت أقل قبولاً، وأدنى تبنياً للعقائد الوثنية القديمة[2]، واحتلت العقائد القاسية للعهد القديم مكانة أسمى، وذلك بدلاً عن التضرع لمشاركة الرب كصديق معاون في الحياة حسبما استمر كثيرون يعتقدون، وآمن البروتستانت أن على الإنسان أن يكون أكثر اهتماماً بالتوسل إلى الرب وطاعة إرادته الحاكمة، وينبغي النظر إلى يسوع ليس ككائن بشري، به ينبغي الارتباط، بل كجزء من الرب القدير، وأنكر بعض البروتستانت حتى القبول بأن يسوع المسيح قد تجسد على شكل مخلوق بشري، فجسده كان جسداً لاهوتياً[1].



مذبحة البروتستانت في كاليبرا



مذبحة يوم عيد القديس بارثلميو. فلقد حوّل وجود فرعين رئيسين للمسيحية كل فرع منهما يرى عن قناعة أن طريقه هو الطريق الوحيد إلى الرب أوربا إلى حمام دم.

وكانت وجهة نظر البروتستانت نحو عبادة القديسين وعبادة مريم - التي كان نغمة شخصية كثيفة - على أنها شكل من أشكال الوثنية، وأنها أزالت انتصار يسوع الذي صنعه وحْدَهُ، وكأفراد آمنوا أنه ينبغي تطوير علاقة دقيقة مع الرب من خلال كلمة الكتابات المقدسة، بدلاً من أن يكون ذلك من خلال نصب صور للمسيح، ومريم، والقديسين، أو حتى من خلال الرموز، ومثلما قام مسيحيو القرن الرابع بتدمير متعمد للأماكن المقدسة وللتماثيل العائدة إلى تقاليد أكثر قدماً، قام الآن رعاع البروتستانت، لدى إثارتهم وتحريضهم من قبل الوعاظ، وبخطابات ذات مسؤولية علنية عامة، فدمروا تماثيل القديسين[4] وبسبب أن البروتستانتية أنكرت بعنف الحاجة الضرورية للكنيسة كوسيط بين الفرد والرب، فقد أزالت معظم الوسائل، التي من خلالها يمكن أن تتطور علاقات مباشرة وشخصية.

وأزالت الإصلاحات الكاثوليكية أيضاً عبادة القديسين، وبات ينبغي أن ينظر إلى القديسين على أنهم شخصيات بطولية، ومثل عليا للأخلاق والفضائل، وليس كأصحاب أو جالبين للنفع[5]، لكن الكنيسة الكاثوليكية كانت متأبية رافضة للتخلي عن السلطة التي بنتها خلال قرون، وصحيح أنه ينبغي أن يكون مصدر الإيمان المسيحي هو التوراة، ولكن - كما أعلن مجمع ترنت - كان كتاب التوراة قد شرح وأوضح بالشكل الأفضل من قبل «شهادات الآباء المقدسين المعترف بهم، والمجامع، وأحكام الكنيسة وإجماعها»[6]، وكان الكاثوليك على غير استعداد للتخلي والاستغناء عن الطقوس وعن الطبيعة اللاهوتية لقداسات الكنيسة، ومن جانب آخر، رفض بعض البروتستانت رفضاً كلياً الطقوس وقداسات القربان، وأصروا على أن الإنسان ينبغي عليه أن يكتشف الرب ويلاقيه بدقة فقط من خلال الوعظ، أو قراءة الكتابات المقدسة[7].

واعتنق قادة البروتستانت بحماسة شديدة أفكار القديس أوغسطين حول الإرادة الحرة والقضاء والقدر، أي أن سقوط آدم من الجنة قد ترك البشرية ناقصة ومعيبة بالوراثة، وغير قادرة على التصرف أو العمل بشكل صحيح، وهكذا معتمدة بشكل مطلق على رحمة الرب، فالخلاص بات الآن ممكناً فقط من خلال نعمة الرب، وليس من خلال القرار الفردي، وقد قال لوثر في عام 1518م: «إن الإرادة الحرة بعد السقوط هي لاشيء سوى كلمة، حتى عمل ما فيه كذب، يجعل الإنسان

يقترف ذنباً مميتاً»[8]، واعتقد معظم الكاثوليك أنه في الوقت الذي مال بنا ذنب آدم نحو الشر، وأزال إرادتنا الحرة، لكن ذنبه لم يدمر إرادتنا الحرة تماماً، فقد جاء في الفقرة الرابعة من قرارات مجمع ترنت ما يلي:

«إنه إذا ما قال أي واحد بأن الإرادة الحرة للإنسان، تتحرك وتثار من قبل الرب، وأنه لا يمكنه التعاون مطلقاً بإعطاء موافقتها إلى الرب عندما يسأله ويدعوه. . . . . . . وأنه لا يمكنه أن لا يوافق، إذا ما أراد ولكن هو مثل مخلوق فاقد القدرة والحيوية، وهو جامد غير فعال تماماً، وسلبي، مثل هذا ينبغي تكفيره»[9].

ومع أن البروتستانت افتقروا إلى المراتب اللاهوتية الكاثوليكية المنظمة، حتى يتمكنوا من تحديد من هو أحسن من، استمروا في الإيمان بالطبقية الإنسانية، فقد آمن مارتن لوثر أن الفوارق بين الذكر والأنثى، وفي الطبقة، والعرق، والعقيدة، تشير إلى الوضع المتفوق للمخلوق أو الوضع المتدني، فقد كتب في عام 1533م، يقول: «تبدأ الفتيات بالكلام وبالوقوف على أقدامهن أسرع من الصبيان، بسبب أن الأعشاب تنمو دائماً بسرعة أكبر من المحاصيل الجيدة»[10]، وفي عام 1525م دعم القمع الذي لم يعرف الرحمة لحرب الفلاحين، وهي ثورة ساعدت دعوته وحماسه للاستقلال عن الكنيسة الكاثوليكية على إشعالها[11]، ومع أن لوثر لم يجد نصاً مقدساً يرخص إبادة اليهود، آمن بأنه ينبغي استعبادهم، أو الإلقاء بهم إلى خارج الأراضي المسيحية، وأنه يتوجب إحراق أحيائهم وكنسهم[12]، وقد آمن بأنه ينبغي قتل الثوار القائلين بتجديد العماد، وبلغ فيه الأمر أنه أيد علناً في عام 1531م مرسوماً صدر عن لاهوتيي ويتنبرغ Wittenberg منح المصادقة المقدسة على إعدامهم[13].

ولم يكن القادة البروتستانت الآخرون أكثر اعتدالاً، فقد كتب جون كالفن Calvin الذي شكلت عقيدته قاعدة الكنيسة البروتستانتية المشيخانية:

«إن المبدأ السرمدي، الذي قرر الرب به الذي سوف يصنعه مع كل إنسان، هو أنه لم يخلقهم سواسية، بل عين بعضهم لحياة خالدة، وعين آخرين لإدانة خالدة»[14].

وأسس كالفن في جنيف دولة بوليسية لاهوتية، طاغية بعنف وقوة متناهية، ولعل أحسن ما يمكن تذكره عنه هو إحراق الطبيب المعروف والواسع الشهرة مايكل سيرفيتوس Michael Servetus بسبب رفضه آراء المسيحية ووجهات نظرها، وأدان

جـون نوكـس Knox ، تلميـذ كـالفن جميــع العقـائد الأخـرى ، فعندمـا تمـزق البـروتستـانت ، ادعت كـل فرقـة جديـدة امتلاكـها الحقيقـة الربانيـة الوحيـدة ، وأدانـت جميع الآخرين.

وقـام كـل مـن البروتسـتانت والكـاثوليك ، مماشـاةً لاعتقـادهم في رب صـاحب سلطة مـسؤولة بالدفاع عن فرض دقيق لتصوراتهم لشرائع الرب ، وكانت الكاثوليكية قد أسـست - منذ زمـن - الوسـائل التـي بهـا يشـرفون على المجتمـع وفـرض الطاعـة ، وافتقـر البروتسـتانت - علـى كـل حـال - إلـى البنـاء القضـائي المتطـور بشـكل جيـد ، والطبقات اللاهوتية مثل الكنيسة الكاثوليكية ، وافتقروا أيضاً إلى وسـائل الانتشـار أو الوصـول العالميـة ، وعوضـاً عـن ذلـك نقلـوا فرْضَ مبـادئ الفضيلـة الشـخصية إلـى الدولة ، حيث توجـب الآن على الدولـة أن ترعـى تطبيـق مبـادئ الفضيلـة الأخلاقيـة النقية ، وذلـك بصـرف النظـر عـن أعمـالها الدنيوية[15] ، وأخـذت الوحـدة الأسـرية الداخليـة المحكومـة مـن قبـل الأب ، أهميـة جديـدة علـى أنـها الأصـل الجُزيئـي للبنـاء السـلطوي.

وأزال كل من البروتسـتانت والكـاثوليك أهميـة دور الجماعـة ، جـاعلين الأمـر أسـهل بالنسبة لكل من الكنيسـة والدولة لامتـلاك إشـراف مباشـر أكثر مراقبـة للفـرد ، ولم يشجع الإصـلاح الكنسـي الإخوانيـات التـي زودت في العصـور الوسـطى أفرادها وقـت الضـرورة بما احتاجوه ، مثل الاحتفالات المنظمة والألعاب ، ومساعدات العنايـة من أجل الفقراء ، وإقامة المشـافي[16] ، وكانت الأعياد الجماعيـة أساسـية وحاسـمة مـن أجل الوئام الاجتماعي وفي سبيل حيويته وخصبـه ، لكنـها بترت الآن وقطعـت ، أمـا بالنسبة للاعتراف الكاثوليكي الذي كان عملاً علنياً للغفران ساعد على إعادة المذنب إلى الجماعة ، فقد أصبـح الآن مسـألة سـرية خاصـة بين الفـرد والكـاهن مـع إحداث صندوق الاعتراف واعتماده في عام 1565م[17] ، وتمت إزالة دور الأبوة الربانية ، التـي أسهمت في تمتين الأواصر الاجتماعية بوسـاطة طقوس الصداقة[18] ، وبـدت حركـة الإصـلاح الكنسـي المقدرة على التدخل لدى سلطات الكنيسة ، أو الدولة ، أو السـيادة الأبوية للأسرة.

وأحلـت الحركات الإصلاحية الكنسـية لكل من البروتستانت والكاثوليك محـل المكانة المهمـة للوئـام الاجتمـاعي ، الإلحـاح على النظام الربـاني والطاعـة ، وأخـذت

الوصايا العشر مكان عقيدة الذنوب السبعة المميتة التي شكلت قلب الفضائل الأخلاقية للعصور الوسطى وهي: التغطرس، والحسد، والغضب، والجشع، والزنا، والكسل، والفسوق، ومن بين هذه الذنوب التي دمرت مشاعر الجماعة، عدّ الأسوأ بينها: الغطرسة، والحسد، والغضب، والجشع، وكان - على كل حال - الأكثر أهمية بين الوصايا العشر، هو ليس أن يرفع الإنسان من شأن الوئام الاجتماعي بل السلطة الأبوية والمدنية، أي «أكرم أباك وأمك»[19]، ووصلت بعض القوانين في إنكلترا الجديدة المتطهرة إلى حد إصدار مراسيم بعقوبة الإعدام على الشاب الذي يلعن والديه أو «يضربهما»[20]، وبات الذنب الذي ينظر إليه على أنه شيء يفسد الوئام الاجتماعي، هو عدم تقديم الطاعة للسلطة[21].

وأصبح الإصلاحيون مدركين ليس فقط للمقدار القليل من الاحترام الذي تتمتع به الكنيسة، ولكن المدى الواسع الذي كان فيه عامة الناس جاهلين للمسيحية الأرثوذكسية القويمة، ووصف في عام 1547م ستيفن غاردنير Gardner أبرشية في كمبردج بقوله: «عندما يمضي القس إلى المنبر ليقرأ الذي كان قد كتبه، وقتها تمضي حشود الأبرشية مباشرة إلى الخارج، وتغادر الكنيسة وتذهب إلى بيوتها لشرب الخمرة»[22]، وروى المؤرخ كيث توما Keith thomas كيف أنه عندما كان قس في اسكس Essex «يعظ في عام 1630م حول آدم وحواء واتخاذهما لنفسيهما رداءين من أوراق شجر التين، أراد واحد من أهل الأبرشية أن يعرف بصوت مرتفع، من أين حصلا على الخيطان للخياطة بها»[23]، وباتت الأرثوذكسية المسيحية القويمة غريبة بشكل خاص بالنسبة للناس في المناطق الريفية، وقد كتب جون نوردن Norden في عام 1607م يقول:

«في كثير من المناطق التي سافرت إليها، حيث هناك مساحات كبيرة وشاسعة من الأراضي المهملة، والجبال، والأراضي البور. العديد من الأكواخ المشيدة، وينصرف الناس نحو بذل القليل من العمل أو لا شيء، يعيشون ببؤس شديد على خبز الشوفان، ومصل اللبن الحامض، وحليب الماعز، ويقطنون بعيداً عن أية كنيسة أو بيعة، وهم جاهلون لا يعرفون الرب أو أي سبيل للحياة مثل المتوحشين كثيراً بين الكفار».

وفي التعامل مع وثنية عامة الناس، ركز البروتستانت والكاثوليك أثناء الإصلاح الكنسي على التبشير بمبدأ وجود رب سماوي واحد، وفي مقابل فهمهم

للألوهية خلال أوجه متعددة وهو الذي يمكن الإحساس به في كل جانب من جوانب الحياة، عُلّم الناس الآن أن يفهموا الرب ويتصوروه بدقة بمثابة أب سماوي، لم يعد أبداً جزءاً من العالم المادي أو مهتماً به، ورست الروحانيات أو العلاقة مع الرب، في رفض المتعة الجسدية، التي لم تشتمل مشاعر المتعة الجسدية فقط، بل الراحة أيضاً، وذهب ترونسون Tronson في أواخر القرن السابع عشر إلى حد الإعلان:

«إنك إذا أردت أن تكون وارثاً ليسوع والفردوس العائد إليه، وإذا أردت أن لا تدان إلى الأبد، بل أن تكون سعيداً دائماً أبداً في الجنة، وقتها عليك التخلي عن الدنيا نهائياً، وأن تقول لها وداعاً إلى الأبد»[25].

وبات أيضاً من المتوجب رفض الجسد المادي أيضا، بما أن الرب لم يعد موجوداً في العالم المادي، وعليه فإن الجسد ليس ربانياً، وتبارى البروتستانت والكاثوليك مع بعضهم بعضاً حول الحدود الدنيا التي يمكن بها العناية بأجسادهم، مستخدمين قليلاً من الصابون والماء خلال أيام الحياة[26]، وأوضح واحد من رجال الجيزويت في العقد الأول من القرن الثامن عشر بأن «الاعتدال الديني» يكفي بأن تمنع أي واحد من الاستحمام، وروى حكاية عن واحد خرق التحريم، وكتب يقول:

«تجرأ شاب على الاستحمام في واحد من بيوت بلادنا، فغرق هناك، ولعل هذا كان بموجب القضاء الرحيم للرب، لأنه ربما رغب في أن يستخدم هذا المثل المرعب بمثابة قانون»[27].

ونصحت موعظة قداس كاثوليكي من حوالي عام 1700م الإنسان «أن يعامل جسده وكأنه عدو لدود، وأن يخضعه ويسيطر عليه من خلال العمل، والصوم، والمسوح من الشعر، ووسائل الإماتة الأخرى للجسد»[28]، وحذر رئيس دير سوربوني ولاهوتي اسمه يوسف لاميرت Lambert عوامّ الأرياف وأنذرهم بقوله:

«عليك أن تعد كل نوع يلمس جسدك أو أجساد الآخرين، وكل حرية بمثابة الذنوب الأكثر وقعاً، ومع أن هذه الأعمال الفاسقة قد تكون بالفعل سرية، إنها ممقوتة بنظر الرب، الذي يراهم جميعاً، ويغضب من اقترافهم، ولن يمتنع مطلقاً عن معاقبتهم بالشدة الأعظم»[29].

مع أن المسيحية الأرثوذكسية القويمة عدت ممارسة الجنس لمدة طويلة لأي قصد غير الإنجاب هي إثماً، وخلال الإصلاح الكنسي فقط علم معظم عامة الناس

بهذا وعرفوه، والتاريخ المسيحي متخم بالإدانات لممارسة الجنس من قبل البشر، وفي القرن الخامس طور القديس أوغسطين نظرية ليس فقط كيف ينتقل الذنب من جيل إلى جيل بوساطة ممارسة الجنس، ولكن أيضاً كيف أن الرغبة الجنسية في نفسها برهان على انعدام حرية الإرادة لدى الإنسان، وكتب واحد من قضاة محاكم التفتيش في القرن السادس عشر، يقول بأن: «الرب قد منح الشيطان سلطة أكبر على العمل التناسلي، الذي بوساطته حدث الذنب الأول، وليس بسبب أية أعمال بشرية أخرى»[30]، وأخذ الإصلاحيون الكنسيون مثل هذه الميول، وقاموا بتحريض الناس العاديين بالامتناع عن المتعة الجنسية حتى من خلال الزواج من جنس آخر، وأصبح عملاً شائعاً - على سبيل المثال - اقتباس رأي جيروم بأن الزوج يقترف الإثم إذا ما تمتع بالجنس مع زوجته كثيراً[31].

وأصبحت المتعة الآن من أي نوع عملاً ممقوتاً، ولقد أدان غريغنون دي مونتفورت Grignon de montfort الذي كان من رجال التبشير الكاثوليكي أغاني الحب، والحكايات، والرومنسيات «التي انتشرت مثل الطاعون. . . وأفسدت بذلك كثيراً جداً من الناس»، وكرر واحد من كبار كهنة القرن الثامن عشر من الأوغسطينيين إدانته وشجبه للاحتفالات العامة، «ذلك أن الأعمال العامة والممارسات هي بالوراثة معارضة لروح المسيحية»، و«وتعطي الألعاب دروساً خطيرة فقط» و«الألعاب هي مصدر خلافات واضطرابات أيامنا»[33]، وفي القرن السابع عشر في إنكلترا الجديدة، حيث تحكم المتطهرون بالمجتمع كثيراً، قاموا بتحذير أو بالحري، بإنزال العقوبة الفعلية بأي شاب أمسك وهو يتزلج، أو هو يسبح، وأية بالغين أمسكوا ببساطة وهم يمتعون أنفسهم، في الوقت الذي عليهم شغل أنفسهم بمشاغل أفضل»[34]، وعدّ قيام الإنسان بتمتيع نفسه في يوم السبت إثماً عظيماً، وحرم قانون صدر في ماساشوسيتي[*] Massachusetts في عام 1653م التمشي في يوم الأحد وزيارة الميناء، وعدّ إضاعة للوقت، وجرى التحذير من لعب الأطفال أو جولات النزهة للشباب والشابات، على أساس انشغالهم في «أشياء تقود إلى إهانة الرب كثيراً، وإلى الاستخفاف بالدين، وخرق حرمة يوم السبت المقدس»[35]، وأحضر

(*) إحدى ولايات الولايات المتحدة الأمريكية في إنكلترا الجديدة على المحيط الأطلسي.

جون لويس وساره شابمان Chapman إلى أمام المحكمة في لندن الجديدة في عام 1670م لأنهما كانا «جالسين معاً في يوم الرب تحت شجرة تفاح في بستان غودمان شابمان Goodman Chapman»[36].

وكان التمتع بالجمال البدني والجمالية مثل ذلك أمراً ممنوعاً، ونظر معقل التطهير في إنكلترا الجديدة نظرة تقطيب وعدم رضا في القرن السابع عشر، نحو التزيينات من أي نوع، وكان الأثاث والمساكن فجّة وبدائية بالمرة، وعدت الثياب الجميلة إثماً، ومنعت المحكمة العامة في 1634م الملابس:

«التي عليها أي شريط تزييني، أو خيط من الذهب أو الفضة . . وكذلك جميع الأعمال المقصوصة، أو المطرزة، أو أعمال الإبرة، وأغطية الرأس، والأربطة، والمشاجب . . وجميع الأحزمة الذهبية والفضية، وأربطة القبعات، والمشدات، وأطواق الرقبة المكشكشة، وقبعات جلد السمور»[37].

وكانت الملابس التي تبيح جسد الانثى غير قانونية، وفي عام 1650م حرم قانون في إنكلترا الجديدة «الأكمام القصيرة، التي من الممكن أن ينكشف فيها الذراع العاري»[38]، ووصل المسيحيون إلى اعتقاد أن أي شيء يجذب الانتباه إلى العالم المادي كان لا ربانياً.

وأنتج مفهوم الانفصال الكامل والدقيق للبشرية عن الرب السماوي، شعوراً كبيراً بالخجل أثناء حركة الإصلاح الكنسي، ولقد أعلن إغناطيوس أوف لويولا Ignatius of Loyola مؤسس اليسوعية:

«أنا مجرد روث، وعليّ أن أسأل ربي أنني عندما أموت أن يرمي جسدي على كومة من الروث، من أجل أن التهم من قبل الطيور والكلاب . . أوليس هذا يشكل رغبتي في أن تكون عقوبتي من أجل ذنوبي»[39].

وكتب كالفن:

«نحن جميعاً عُملنا من طين، وهذا الطين ليس هو فقط على طرف ثيابنا، أو على نعال أحذيتنا، أو في أحذيتنا، بل نحن مليّثون به، ونحن لا شيء سوى طين وقذارة في كل من الداخل والخارج»[40].



امن جون نوكس مؤسس الكنيسة المشيخانية بان العالم المادي غير رباني، وقد أدان الإصلاحيون البروتستانت المتعة من أي نوع: الجسدية، والجنسية، أو التمارين الرياضية.

وفي منتصف العقد الأول من القرن الثامن عشر وعظ اللاهوتي الكالفيني جوناثان ادواردز Jonathan Edwards قائلاً:

«أنت مجرد مخلوق بائس وخسيس، وعلقة، ومجرد لاشيء، وأقل من لاشيء، حشرة شريرة، انبعثت بتحد ضد جلالة السموات والأرض»[41].

وعلى الإنسان التعامل مع طبيعة الشر الفطرية فيه، من خلال الالتزام والانضباط، والتأديب والصراع، ومجد الإصلاحيون الكنسيون الانضباط والصراع، على أنّهما معياران للروحانية الشخصية والربوبية، حتى يمكنهم أن يُعلموا بشكل أفضل الانضباط وشرائع الرب القدير إلى أهل أبرشياتهم، وصارت العقوبة الذاتية وسيلة لتجنب السلوك المذنب، بدلاً من عمل كفارات عن ذنوب جرى اقترافها[42]، وأكد المتطهر كوتن ماثر Cotton Mather القيمة الكبيرة للعقوبة، وردد أصداء قول أوغسطين «أرغمهم على الدخول» مع عبارته المشهورة: «استخدام السوط أفضل من اللعنة»[43].

وطبعت المعاناة والشدائد الحياة الحقيقية للأرثوذكسية القويمة، ولم يفهم العمل الأعظم ليسوع على أنه معجزاته في الشفاء، أو ثورته الشجاعة ضد الظلم، بل آلامه وموته على الصليب وطوبت الكنيسة أفراداً وعدتهم قديسين ليس بسبب سهولة إنجازاتهم، لكن بسبب آلامهم واستشهادهم، وكما كتب الشاعر صاحب نشيد الروح: على الإنسان «أن لا ينظر إلى المسيح من دون صليب»، و«الآلام هي كبد الذين يحبون. . . »[44]، ووعظ في القرن السابع عشر أنطويني غوديو Antoine Godeau قائلاً: «ينال المسيحي الحقيقي المتعة بامتلاكه بعض البلوى ليتألم، بسبب أن البلوى هي رباط المسيحي الحقيقي»[45].

وأصبح السحر، أو الاعتقاد بأن الرب يمكنه أن يتدخل ليجعل الحياة المادية أسهل، علامة مؤكدة على الكفر وعدم الإيمان بربوبية أثناء الإصلاح الكنسي، فالرب حكم من الأعلى وطلب عملاً شاقاً ومعاناة، وآلاماً، وكما قال المؤرخ كيث توماس Keith Thoams: «كان على الإنسان أن يكسب خبزه بالتعرق وتقطيب الجبين»[46]، وجرى أيضاً تصور السحر على أنه محاولة رعناء لتجسيد الرب، لأنه، كما تساءل في عام 1554م واحد من الإصلاحيين الكنسيين قائلاً: «إذا كان بإمكانك أنت وأنت مرتاح أن تعمل مثل هذه الأشياء لطرد الشيطان وإبعاده، ولتعامل مع

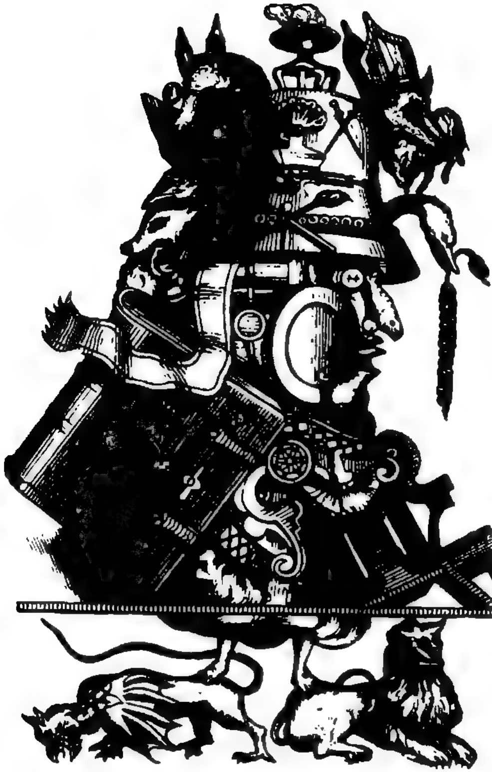
الجسد والروح ما هي حاجتك إلى المسيح؟»[47]، وتبعاً لفرانسيس بيكون Francis Bacon من القرن السابع عشر، ينبغي تجنب المعالجات السحرية، لأنهم: «يقدمون هذه المؤثرات النبيلة التي غرسها الرب في الإنسان حتى يجري ابتياعه بثمن التعب لكي تجري رعايته بوساطة بعض الملاحظات السهلة والرخية»[48].

وكتب جون كوتا John Cotta، وهو طبيب إنكليزي من الحقبة الزمانية نفسها، يقول:

«ما أعطى الرب شيئاً إلى الإنسان، إلاّ من خلال الكدح والآلام، وفقاً لأعماله الشاقة، والعناية، والحكمة، وحسن التدبير، والكد، والمواظبة، ووضع فيه كل شيء صالح، ولم يأمر بالكرامات والمعجزات لتزويد ورفد حاجاتنا العامة، أو لتلبية المناسبات الخاصة، أو استخدامات حياتنا».

وكان هذا كله جديداً بالنسبة لمعظم أوربا العصور الوسطى، فقد كان كثير من الناس ما يزالون يؤمنون برب متعدد الوجوه، من الممكن دعوته للمساعدة في حياة كل يوم، ولما كانت الكنيسة القديمة غير قادرة على تحويل الناس عن مثل هذا الاعتقاد، فقد أسست نظامها الخاص بالسحر اللاهوتي الكنسي[50]، فقد امتلكت الكنيسة سلسلة كاملة من الصيغ، المتعلقة بالصلوات، ودعوة اسم الرب وهي دعوة مصممة لتشجيع مساعدة الرب بشكل عملي، وفي القضايا العلمانية، وكان الاعتقاد قوياً جداً بالإيمان بقدرة الكلمة المتفوهة، وعلى سبيل المثال لم تشجع الكنيسة الناس على الحفظ الدقيق للذي كان الكاهن يقوله، خوفاً من أن يكونوا قادرين على استخدام مثل هذه الكلمات القوية لعمل سحرهم الخاص[51]، وكان الاعتقاد قوياً جداً أن الحنث باليمين سوف يجلب انتقام الرب، وأن الكنيسة اعتمدت على أمانة الشاهد في تقديم الشهادة، بعد أن قام هو أو هي بأداء القسم على الكتاب المقدس أو على آثار مقدسة[52]، وما زال الاعتقاد بالقوة السحرية للكلمة منتشراً في انكلترا البروتستانتية إلى حد أن البرلمان أجاز في عام 1624م قانوناً حرم الإقسامَ واللعنات[53].

وعلى عكس مصادقة كنيسة العصور الوسطى على السحر، تمرد البروتستانت بحدة متناهية - كما كتب كالفن - ضد «إدعاء الكاهن بوجود قوة سحرية في القرابين المقدسة، مستقلة عن فعالية الإيمان..»[54]، وأعلن جيمس كالفهل James Calffihl الكالفيني بأن أخبث السحرة والمشعوذين على الأرض كانوا هم:



يسخر هذا الكاريكاتور من طبيعة القداس لدى الكنيسة الكاثوليكية، وكان واسع الانتشار بين البروتستانت في إنكلترا، وهولاندا وألمانيا لمدة تزيد على قرن من الزمان. وفيه الأدوات التي استخدمت في العبادة الكاثوليكية وقد تألف الجسد من القبعة التي هي ناقوس الكنيسة وقد زين بالماء المقدس. والفم هو قارورة خمرة مفتوحة. والعين هي كاس قربان مغطى بماء مقدس. والوجنة هي صحن يستخدم في قداس القربان. والكتف كتاب القداس.

«الكهنة الذين يكرسون الصلبان، والرماد، والماء، والملح، والزيت، والقشدة، والأغصان، والعظام، والعصي، والحجارة، والنواقيس المسيحية المعلقة في أبراج الكنائس، ومناشدة الديدان التي تزحف في الحقول واستحضار أرواحها، وإعطاء إنجيل يوحنا حتى يعلق حول رقاب الناس».

وهاجم البروتستانت القداسات على أنها لا تثبت شيئاً بقولهم بأنها:

«مجرد شعوذة شيطانية ظاهرة، وسحر، وخداع، وحيل، وكل ما هو لا شيء مجرد عبث، حيث يقوم الكاهن بتمتمة بضع كلمات لاتينية على الطفل، فيسحره، ويصلب عليه، ويلطخه بزيت آسن وبابوي نتن، ويربط قطعة من الكتان حول رقبة الطفل، ويرسله إلى البيت...»[56].

وكتب جون كاني John Canne في عام 1634م: «إن قداسات القرابين لم يأمر بها الرب لتستخدم... كسحر وشعوذة»[57].

ولم يخضع السحر إلى ما شهد به الإصلاحيون الكنسيون، واعتقدوه على أنه فهم زائف للرب، بل تدخل أيضاً مع المذهب الجديد المشير إلى المراتب الاجتماعية، فقد قدر مجتمع ما قبل الإصلاح الكنسي، وحدد مرتبة الرجل إما على أساس منْصَبه داخل المراتب اللاهوتية المتسلسلة للكنيسة أو بوضعه كنبيل أو مقاتل، لكن مع انحدار المراتب اللاهوتية الكنسية ودور النبالة، صار النجاح المالي وأصبح الوسيلة الوحيدة لتحديد مكانة الإنسان في سلم المراتب اللاهوتية، وباتت الثروة هي الرمز إلى عمل الإنسان الشاق، والارتقاء الروحي، مثل هذا «العمل الأخلاقي الطاهر» كان سيتقوض، لو أن إنساناً - على كل حال - يمكنه تحقيق الإزدهار سحرياً.

ولم تقد زيادة أهمية النجاح المالي - على كل حال - رجال الكنيسة إلى تشجيع الناس الفقراء على النجاة من الفقر، أو العمل على تحسين حظوظهم، فقد كان على الفقراء تحمل الظلم المالي من دون اعتراض، وقد أوضح واعظ من القرن السابع عشر أنه:

«إذا كان هناك أناس يسيئون استخدام سلطات الحكام، ويفرضون عليك ضرائب غير عادلة، الرب يسمح بذلك في سبيل فرض عدالته، ومن أجل معاقبة ذنوبك، والاستخدام السيء الذي تعمله في استخدام ممتلكاتك»[58].



بشر الإصلاحيون الكنسيون بأن الربّ لم يعد له دور في العالم المادي، وصار العالم هو مملكة الشيطان وحده مع أعوانه مثل المرسوم هنا على قطعة من الخشب، وبات الآن أي شيء سحري أو غير طبيعي هو عمل شيطاني.

وحثت ترتيلة تبشيرية من القرن الثامن عشر، اسمها «نصيحة للناس العاملين» الناس ونصحتهم بتحمل أوضاعهم الحياتية بهدوء:

لا تتألم لتشكو،
من آلام الحياة الصعبة.
ولا يكن لديك حَسَدٌ
للذين يسكنون في الأعالي[59].

وأن تعتقد بأنك يمكنك أن تغير وضعك وحالتك من خلال أية واسطة غير العمل القاسي والكفاح، وأن تؤمن بوجود مساعدة ربانية، يومىء إلى التصادم مع الشيطان، وبشر الإصلاحيون الكنسيون وقالوا بأن الرب هو في السماء، وليس على الأرض، ولذلك فإن أي نشاط متفوق وغير اعتيادي في العالم المادي، لا يمكن أن يكون سوى عمل إبليس وشياطينه، وفي الحقيقة وصل الاعتقاد الكلي بالشيطان والخوف منه، إلى الذروة خلال الإصلاح الكنسي، وقد روي أن مارتن لوثر دخل في صراعات بدنية مع الشيطان وقد كتب: «نحن جميعاً خاضعين للشيطان في كل من الجسد والصلاح..»[60]، وتبعاً للوثر «الشيطان يعيش فيك، ويحكم في خلال العالم كله..»[61]، وقال جين كالفن بأن على القديس المسيحي الحقيقي أن ينخرط في «صراع غير متوقف ضده»[62]، ودعا جون نوكس الشيطان بـ «الأمير ورب هذا العالم»[63]، ورددت ترتيلة التعليم الشفهي المفرغة في قالب السؤال والجواب أهمية الاعتقاد بالشيطان:

كثيرون يتصورون أن القضية كلها خيالية،
وبما أنهم لا يعتقدون ذلك، هم لا يقاتلون أنفسهم
وهذا يعني أنهم واقعون تحت سلطان
الشيطان، وليس لديهم فضيلة مسيحية
ولهذا فإنَّ الشيطان لا يحتاج إلى إغوائهم
بما أن أرواحهم هي مقر سكنى الشيطان[64].

وأصبح الإيمان بالشيطان نظيراً جوهرياً للإيمان بالرب، وقد كتب البروتستانتي روجر هتشنسن Roger Hutchinson:

«إذا كان هناك رب، ينبغي أن نؤمن به بثقة وثبات، وبلا ريب هناك شيطان أيضاً، وإذا كان هناك شيطان، فليس هناك حجة أكثر تأكيداً، ولا برهان أقوى، ولا بينة أوضح بأن هناك رباً»(65)

وأوضح كاتب آخر «إنَّ الذي لا يؤمن بوجود شيطان، عليه قبل ذلك بكثير أن يؤمن أنه ليس هناك رب. . »(66).

ومثلهم مثل المانويين الأوائل، ألح الإصلاحيون المسيحيون على الإيمان بالشيطان، بقدر إن لم نقل أكثر من الإيمان بالرب.

وذكرت على سبيل المثال ترتيلة التعليم الشفهي المفرغة في قالب السؤال والجواب، لكانيسيوس Canisius اليسوعي، ورددت اسم الشيطان أكثر من ترددها لاسم يسوع(67).

وتزايدت قوة الشيطان المتصورة نسبياً مع انتشار المسيحية الأرثوذكسية القويمة، وصار الاعتقاد بالشيطان وسيلة لإرعاب الناس في سبيل تحقيق الطاعة، ولم يكن رجال الكنيسة العائدين للإصلاح الكنسي يختلفون عن الأوائل من المسيحيين الأرثوذكس الذين عدوا الخوف أمراً لابد منه، وفي 1674م نصح كريستوفي سكرادر Christophe Schrader الوعاظ الآخرين بضرورة أن يمتلكوا:

«خوفاً عظيماً من الرب الكلي القدرة والعظيم الذي طرد الملائكة العصاة من الجنة، وآباءنا الأولين من الجنة، ودمر العالم كله تقريباً بالطوفان، وأطاح بممالك كاملة وبمدن»(68).

والشيطان هو بالضرورة نظير مقابل لهذا الرب «الكلي القدرة والعظيم»، ويقوم الشيطان بتنفيذ أحكام الرب، فيعذب المذنبين إلى الأبد، وهو مثلما دعاه الملك جيمس الأول «جلاد الرب»(69).

ومثلما هو حال كثير من العقائد الأرثوذكسية والأفكار، جعل الإيمان بالشيطان الناس يشعرون بأنهم لا حول لهم ولا طول، وبعزو الشرور والسلبيات إلى الشيطان، تمت بذلك إزاحة المسؤولية عن بني البشر، وكذلك القوة التي ترافق المسؤولية، لأنه إذا كان أي واحد مسؤولاً لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئاً سوى أن يقبع مرتجفاً في خوف، أو رعب من هجوم الذين يمثلون الشيطان، ومثل الإيمان

بانعدام حرية الإرادة البشرية ، يولد الإيمان بالشيطان الشعور بالعجز المطلق ، مما يجعل الناس من السهل التحكم بهم .

وجلب الإصلاح الكنسي تغييراً عميقاً ومثيراً ، فقد ادعت أمم وسلطات إمبراطوريَّة استقلالها عن البابا ، وتغير البنيان الاجتماعي للعصور الوسطى ، وكذلك تقدير قيم الأشياء ، ولعل الأكثر أهمية هو أن الإصلاح الكنسي غير الطريقة التي تصوَّر بها الناس العالم ، فالعالم المادي ، الذي كان من قبل خلقاً لاهوتياً وسحرياً ، بات يفهم الآن على أنه غريب عن الرب ، يعود فقط إلى الشيطان ، وصار السبيل الروحي ، ينبغي أن يحمل علامة المعاناة والكفاح ، والضرب والتأديب ، وحوَّل الإصلاحيون الكنسيون البروتستانت والكاثوليك الذين قاموا بالإصلاح المضاد ، حولوا مع بعضهم الناس في أوربا المسيحية الأرثوذكسية القويمة .

الفصل الثامن

مطاردة السحرة ونهاية السحر والمعجزات
(1450 - 1750م)

لم يحول الإصلاح الكنسي الشعب في أوربا إلى المسيحية الأرثوذكسية من خلال الوعظ والتعليم الشفهي فقط، بل إن الذي حوله حقبة ثلاثمائة عام أمضيت في مطاردة السحر، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، وهو ما دعاه ر. هـ. روبنز R.H.Robbins: «الكابوس المرعب، والجريمة الأقذر، والعار الأعمق في الحضارة الغربية»[1]، فذلك هو ما ضمن تخلي الأوربيين عن الإيمان بالسحر، فقد أوجدت عقيدة محكمة حول عبادة الشيطان، ثم استخدمت التنكيل لإزالة الانشقاق إزالة كلية، وأخضعت الفرد لرقابة سلطوية، وبشكل معلن شوهت سمعة النساء.

وكانت أعمال مطاردة السحرة هي هيجان مسيحي أرثوذكسي لتجريم النساء والحط من شأنهن، ذلك أنهن «الوعاء الأضعف» حسب تعبير القديس بطرس[2]، وقد كتب القديس كليمنت Clement الإسكندريّ في القرن الثاني م: «ينبغي على كل امرأة أن تشعر بالعار، من خلال التفكير أنها امرأة»[3]، وأوضح الأب الكنسي تيرتوليان Tertillian وشرح لماذا تستحق النساء وضعهن كمرذولات، وعدهن مخلوقات بشرية أدنى بقوله:

«أو لا تعرفين بأنك حواء، وقضاء الرب على جنسك هذا الذي يعيش في هذا الجيل: الجريمة لابد بالضرورة من عيشها أيضاً، أنت باب الشيطان، وأنت لست سوى البائعة لتلك الشجرة، وأنت أول من تخلى عن الشريعة اللاهوتية، وأنت التي أقنعته، وهو الذي لم يكن الشيطان شجاعاً بما فيه الكفاية حتى يهاجمه، وأنت التي

دمرت بصورة فائقة السهولة صورة الرب، وبسبب ذلك إنك تستحقين الموت، حتى لقد توجب على ابن الرب أن يموت»[4].

وعبر آخرون عن هذا الرأي بفظاظة أكبر، فقد كتب الفيلسوف المسيحي من القرن السادس بوثيوس Boethius في كتابه مواساة الفلسفة: «المرأة هيكل بني على بالوعة قاذورات»[5]، وفي القرن السادس صوت الأساقفة في مجمع ماكون Macon الكنسي حول فيما إذا كان للنساء أرواح[6]، وفي القرن العاشر أعلن أودو Odo، من ديركلوني «أن تعانق امرأة هو أنك تعانق جوالق من السماد»[7]، واقترح في القرن الثالث عشر القديس توماس الأكويني Thomas Aquinas بأن الرب اقترف خطأ في خلق المرأة بقوله: «ما كان ينبغي خلق أي شيء في بداية التأسيس فيه عيب أو غش، لذلك توجب عدم خلق المرأة وقتها»[8]، وناقش اللوثري ويتنبيرغ Winttenberg وتساءل «عما إذا كانت النساء مخلوقات بشرية حقاً»[9]، وعدّ المسيحيون الأرثوذكس النساء مسؤولات عن جميع الآثام والذنوب، كما جاء في التوراة الأبوغرافية: «من المرأة جاء الذنب في البداية، وشكراً لها، نحن جميعاً لابد أن نموت»[10].

وفي الغالب جرى فهم النساء على أنهن معيقات للروحانيات في محيط يحكم الرب فيه بدقة من السماء، ويطلب التخلي عن المتعة البدنية، كما جاء في رسالة بولص الأولى إلى أهل كورنثوس حين أعلن 1/ 7: «من الأفضل للرجل أن لا يكون له علاقة بامرأة»، وأوضح قاضي محكمة التفتيش الذي كتب «مطرقة السحرة Malleus Maleficarum بأن النساء أكثر قابلية بأن يكن ساحرات أكثر من الرجال:

«بسبب أن عنصر الإناث يكنّ مشغولات بالأشياء المتعلقة بالجسد أكثر من الرجال، بسبب أنهن خلقن من ضلع الرجل، وهن فقط حيوانات غير كاملات وملتويات الأعناق، في حين يعود الرجال إلى الجنس صاحب الامتيازات، الذي وسطه ظهر المسيح»[11].

وقدر الملك جيمس الأول أن نسبه النساء إلى الرجال الذين تورطوا في أعمال السحر هو عشرون امرأة إلى ذكر واحد[12]، ومن الذين تكل بهم رسمياً من أجل السحر كان ثمانين إلى تسعين بالمائة من النساء[13]، ووجد المسيحيون في النساء جميع

الأخطاء من جميع الأنواع التي يمكن عدّها، وأورد مؤرخ أن واعظاً من القرن الثالث عشر قال:

«تشجب النساء من الجهة الأولى من أجل. . . إثارة الفسق والشهوانية بملابسهن، ومن الجهة الثانية لأنهن متصنعات إلى أقصى الحدود، ومشغولات كثيراً بالأولاد وبخدمة البيت، فهن مرتبطات بالأرض لا يمكنهم منح ما ينبغي من تفكير، للأشياء اللاهوتية» [14].

ووفقاً لما جاء عن واحد من الرهبان الدومينيكان من الحقبة التاريخية نفسها: «إن المرأة هي سبب اضطراب الرجل، وجعله حيواناً غير مستقر، ويعيش في قلق دائم، وفي حروب لا تعرف التوقف، مع دمار يومي، وعواصف يتيه. . وإعاقة عن الإنصراف إلى العبادة والتقوى» [15].

ومع انتشار حمى الإصلاح الكنسي، أصبح الجانب الأنثوي للمسيحية، في عبادة مريم موضع شك، ففي خلال العصور الوسطى كان من المعتقد أن قدرات مريم وقواها مؤثرة بفعالية في كبح قوى الشيطان وقدراته [16]، لكن البروتستانت تخلو نهائياً عن تبجيل مريم، في حين قام الإصلاحيون الكنسيون الكاثوليك بإنقاص أهميتها، وأصبحت عبادة مريم في الغالب مؤشراً على عبادة الشيطان، وفي جزر الكناري كانت ألدونكا دي فارغاس Aldonca de Vargas قد شكيت إلى محكمة التفتيش بعدما ابتسمت لدى سماعها ذكر العذراء مريم [17]، وشوه قضاة محكمة للتفتيش تمثال للعذراء مريم تشويهاً متعمداً ومصمماً، فقد غطوا الجانب الأمامي من تمثال لمريم بسكاكين حادة ومسامير وتولّت عتلات فصْل ذراعيْ التمثال ثم جرى قلب التّمثال وتحطيمه فوق السكاكين والمسامير [18].

وأظهرت أعمال مطاردة السحرة خوفاً كبيراً من الجنس عند الإناث، وأوضح الكتاب الذي كان يعد بمثابة دليل لقمع أعمال السحر، أي كتاب «مطرقة السحرة» كيف أن الساحرات كن معروفات بالقيام «بجمع أعضاء الذكور في أعداد كبيرة، يبلغ عددها مع بعضهنّ عشرين أو ثلاثين عضواً، ووضعهم بعد ذلك في عشّ طير» [19]، وروى الكتاب حَكاية رجل فقد قضيبه، فذهب إلى ساحرة حتى يسترده:

«فأخبرت الرجل المصاب أن عليه أن يتسلق شجرة محددة، وأنه يمكنه أن يأخذ القضيب الذي يعجبه من العش الذي كان فيه وقتها عددٌ من القضبان، وعندما حاول

أخذ قضيب كبير قالت الساحرة: عليك أن لا تأخذ هذا القضيب، مضيفة: بسبب أنه عائد إلى أسقف أبرشية»[20].

وبكى رجل في 1621م واشتكى «من المرأة غير الطبيعية، والشبقة التي لا تشبع.. فأي منطقة وأية قرية لا تبكي وتشتكي»[21].

وفي الوقت الذي أصبح فيه ما بات معروفاً باسم السحر قد اخترع من قبل المسيحيين، مثلت بعض عناصر ممارسة السحر تقاليد وثنية أقدم، وربطت ممارسة السحر، لا بل عدت رديفاً للاهوتيات، مما عنى ليس فقط الإخبار المسبق للمستقبل، لكن أيضاً اكتشاف المعرفة بوساطة عون القوة المتفوقة وغير العادية[22]، وهي تقترح بهذا بأن هناك مثل هذه القوى وهي متوفرة، وهو شيء أصرت الأرثوذكسية المسيحية على أنه يمكن أن يكون فقط هو قوة الشيطان، لأن الرب لم تعد له علاقة بالعالم المادي.

وجاءت كلمة «Witch» (الساحر - الساحرة) من الكلمة الإنكليزية القديمة Wicce وwicca بمعنى مشاركة الذكر والأنثى في التقاليد المسيحية القديمة، التي تضع الذكورة، والأنوثة، والأوجه الأرضية للرب موضع تبجيل كبير، وهذا بالحري أكثر من الرب الذي هو واقف فوق العالم، انتقل وزال من الحياة العادية، وفهمت اللاهوتية في التقاليد «السحرية Wiccan» على أنها متشربة وموجودة في السماء والأرض، وتعيد هذه التقاليد إلى الذاكرة حقبة عملت فيها المجتمعات الإنسانية ونشطت من دون طبقات لاهوتية، سواء أبوية أو أمومية، ومن دون تمييز بالجنس، أو العرق أو وجود نظام طبقي دقيق، فلقد كانت تقاليد أكدت أن المهم بالنسبة للإنسانية هو أن تعيش من دون تحكم أو خوف، وهذا أمر أصرت المسيحية الأرثوذكسية على أنه غير ممكن(*).

(*) إن فكرة إمكانية عيش البشرية من دون تحكم وعنف، هي بعيدة تماماً عن الخيال العقائدي، حيث إنها باتت مؤكدة بوساطة صورة جديدة للتاريخ الإنساني، فقد أوضح كتاب جيمس ميلاأرت Mellaert وماريجا غيمبوتاس Mariy Gimbutas، ورينه إيزلر Raine Eisler بأن الإنسانية قد عاشت ما يقارب خمسة وعشرين ألف عام بسلام، وهذه مدة أطول بكثير من مدية الـ 3500 - 5000 عام التي عاشتها مع الحروب والتحكم.

وحاولت الكنيسة المبكرة اجتثاث آثار هذه التقاليد القديمة، وغير ذات المراتب الكهنوتية المتسلسلة، بوساطة إنكار وجود سحرة أو سحر خارج الكنيسة، وأمر القانون الأسقفي، وهو تشريع كنسي ظهر للمرة الأولى في عام 906م، بالإيمان بأن السحر كان من مراتب التسلسل اللاهوتي، فبعدما وصف طقوساً وثنية تنشغل النساء فيها بعرض قوى غير اعتيادية أعلن:

«لأن حشوداً لا تحصى خدعت بهذا الرأي الزائف، والإيمان بأن هذا صواب، ويمثل هذا الاعتقاد يضل الإنسان ويبتعد عن الإيمان الصحيح، ويتورط في خطيئة الوثنيين، عندما يعتقدون بوجود أية ربوبية أو قدرة، إلاّ في الرب الواحد»[24].

ومع ذلك ظلّ الاعتقاد بالسحر منتشراً باتساع كبير في القرن الرابع عشر، إلى حد أن مجمع تشارترز Chartres أمر بالتفوه بالتكفير ضد السحرة في كل يوم أحد، وفي كل كنيسة[25].

واحتاجت الكنيسة إلى وقت طويل لإقناع المجتمع بأن النساء يملن إلى السحر الشيطاني وإلى عبادة الشيطان، وغيرت سياستها في إنكار وجود السحرة، وبدأت الكنيسة في القرن الثالث عشر في رسم صورة السحرة على أنهم عبيد للشيطان[26]، ولم يعد الساحر أو الساحرة مربوطين بالتقاليد الوثنية الأقدم تاريخاً، كما لم يعد يعتقد بأن الساحرة هي مفيدة في معالجة الأمراض أو نافعة، أو معلمة، أو امرأة حكيمة أو واحدة لديها إمكانية الوصول إلى السلطة اللاهوتية، فقد باتت وكيلة للشيطان الشرير، وشرعت الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في تفويض عمل رسوم وصور مرعبة للشيطان[27]، وظهرت الصور الأولى للساحر وهو راكب مكنسة في عام 1280م(28)، ورسمت فنون القرن الثالث عشر وصورت الحزم الشيطانية وقد ظهر فيها الشياطين وهم يريدون الاستيلاء على الأطفال، وفيها الآباء أنفسهم وهم يرغبون بتسليم أولادهم إلى الشيطان[29]، ورسمت الكنيسة الآن السحرة وفق الصور نفسها، التي استخدمتها مراراً لتصوير الهرطقة، «. . . عبارة عن عصبة صغيرة من المتآمرين متورطين ومشغولين في ممارسات ضد الإنسانية، بما في ذلك قتل الأطفال، والحشرات، وأكل لحوم البشر، والانغماس في الشهوات البهيمية، وطقوس عربدة جنسية. .»[30].

وطورت الكنيسة فكرة عبادة الشيطان بمثابة رمز صارخ مضاد للطقوس المسيحية، والممارسات، حيث يفرض الرب الشريعة اللاهوتية، ذلك أن الشيطان يطلب الارتباط بحلف، ففي الوقت الذي يظهر المسيحيون فيه التبجيل للرب بالجثو على الركب، يقدم السحرة فروض الطاعة إلى الشيطان بالوقوف على رؤوسهم، وأصبحت قداسات القرابين في الكنيسة الكاثوليكية عمليات تغوط في كنيسة الشيطان، وصار قداس العشاء الرباني يحاكي استهزاءً بقداس أسود[31]، وصارت الصلوات المسيحية من الممكن استخدامها لعمل الشر بقراءتها بشكل معكوس[32]، وجرى تقليد خبز القربان المقدس بقداس شيطاني بوساطة نبات اللفت، وعملية التعميد أو سمة الأسرار، جرى تقليدها ومحاكاتها بطبع علامة الشيطان على جسد الساحر ببرثن يد الشيطان اليسرى[33]، وحيث إنَّ القديسين امتلكوا فضيلة البكاء، فقد قيل بأن السحرة غير قادرين على سفح الدموع[34]، وكانت عبادة الشيطان محاكاة بسيطة وتقليد للعبادة المسيحية، وفي الحقيقة كانت فكرة الشيطان هي بالذات مكرسة حصراً على التوحيد، وليس لها أهمية داخل الوثنية، أو التقاليد السحرية Wiccan .

وأقحمت الكنيسة إطار مراتبها اللاهوتية المتسلسلة في أعمال السحر الجديدة هذه، حيث صارت كنيسة الشيطان منظمة بشكل يتمكن فيه المتميزون من تسلق المراتب حتى الوصول إلى مرتبة أسقف مثلما عليه الحال تماماً في الكنيسة الكاثوليكية[35]، وأوضح هذا جوليو كارو باروجا Julio Caro Baroja بقوله:

«يتسبب الشيطان بظهور الكنائس والمذابح مع الموسيقى. . . ويتزين الشياطين ويلبسون مثل القديسين، ويصل السادة إلى مراتب الأساقفة، ونواب الشمامسة، والشمامسة، والكهنة الذين يقيمون القداسات، ويجري استخدام الشموع والبخور من أجل القداسات، ويجري رش الماء من قبل حاملي المباخر، وهناك تقدمات، وقداسات ومباركات على ما يعادل الخبز والنبيذ. . وبناء عليه ما من شيء ينبغي أن يكون مفقوداً هناك حتى الاستشهاد الزائف في التنظيم»[36].

ومجدداً إن هذه المراتب الكهنوتية المتسلسلة التي أقحمت كلياً من قبل الكنيسة، لا تحمل أدنى شبه بالوثنية القديمة، وبملاحظة مدركة لكل من أوجه الرب الذكرية والأنثوية، وبفهم للرب وتشريبه خلال العالم المادي لم تكن التقاليد السحرية القديمة بحاجة إلى مراتب كهنوتية متسلسلة دقيقة.



لوحة خشبية محفورة من القرن الخامس عشر، عنوانها «سبت السحرة» وكانت هذه الممارسات السحرية ذات سمات معاكسة للطقوس المسيحية، والطقوس التي أوجدها رجال الكنيسة كان لها علاقة بسيطة أو بالحري لم يكن لها علاقة بتقاليد السحر لما قبل المسيحية.

وأضفى البابا جون الرابع والعشرين سمة رسمية على اضطهاد السحر وقمعه في عام 1320م، عندما منح وأعطى محاكم التفتيش سلطة قمع السحر[37]، ومن ذلك الوقت فصاعداً ازدادت المراسيم البابوية والإعلانات قسوة وحدة كثيراً في إدانتها للسحر، ولجميع الذين «يعقدون أحلافاً مع الجحيم»[38]، وفي عام 1484م أصدر البابا انوسنت الثامن مرسوم Summis desiderante منح فيه التفويض والسلطة إلى اثنين من قضاة محاكم التفتيش هما كريمر Kramer وسبرنجر Sprenger كي يتوليا وضع نظام لقمع السَّحرة والتنكيل بهم[39]، وبعد عامين من إصدارهما كتاب «مطرقة السحرة» ونشره، أعيد طبع الكتاب أربع عشرة مرة في الأعوام ما بين 1487 و1520م، وما لا يقل عن ست عشرة طبعة فيما بين الأعوام 1574 و1669[40]، ودعا مرسوم بابوي صدر في عام 1488م أمم أوربا إلى إنقاذ كنيسة المسيح التي كانت «مهددة بفنون الشيطان»[41]، ونجحت البابوية ومحاكم التفتيش في تحويل السحر من ظاهرة كانت الكنيسة قد نفت وجودها من قبل بكل شدة، إلى ظاهرة عدّت حقيقية تماماً، مخيفة كثيراً، ومضادة للمسيحية، وتستحق القمع والتنكيل تمام الاستحقاق.

وبات الحال الآن أنك هرطقي إن لم تؤمن بوجود السحرة، وبين كاتبا «مطرقة السحرة»: «أنَّ الإيمان بوجود مثل هذه الأشياء مثل السحر هو جزء أساسي في العقيدة الكاثوليكية، ذلك أن علينا المحافظة بعناد والتمسك بالرأي المضاد للذة المذاق التي تمتلكها الهرطقة»[42]، واقتبست نصوص من التوراة مثل قوله: «أنت لن تعاني من السحر مادمت حياً» لتسوغ التنكيل بالسحرة[43]، وآمن كل من كالفن ونوكس أنك إذا أنكرت السحر معناه إنكار سلطة التوراة[44]، وأعلن في القرن الثامن عشر جون ويزلي Joho Wesley مؤسس الكنيسة المنهجية Methodism إلى الذين يشككون بوجود السحر: «إن التخلي عن الإيمان بوجود السحر، هو جهد للتخلي عن الإيمان بالتوراة»[45]، وكتب واحد من أشهر الإنكليز يقول: «إن إمكانية الإنكار، لا بل الإنكار الفعلي بوجود السحر والشعوذة، هو إنكار على الفور ومعلن بوجود الكلمة الموحاة من الرب في مختلف نصوص كل من العهدين القديم والجديد، ومضاد لهما»[46].

ومكنت أعمال التنكيل بالسحر الكنيسة من إطالة عمر المنافع من محاكم التفتيش، فقد تركت محاكم التفتيش مناطق مدمرة اقتصادياً إلى أبعد الحدود، حتى

إنَّ قاضي محكمة التفتيش آيمِرك Eymeric اشتكى قائلاً: «لم يبقَ في أيامنا هراطقة أغنياء. . وإنه لمن المؤسف حقاً أن مؤسسة مفيدة مثل مؤسستنا تبقى هكذا غير متأكدة من مستقبلها»[47]، وبإضافة السحر إلى الجرائم التي ينبغي التنكيل بها، تمكنت محاكم التفتيش من استعراض جماعة كبيرة جداً من الناس، منهم كلهم من الممكن جمع المال، وقد استغلت كل منفعة وفائدة من هذه الفرصة المناسبة، وبينت الكاتبة بربارة وولكر Brabara Walker:

«أن المتهمين توجب عليهم الدفع عن كل حبل ربطوا به، وكذلك ثمن الحطب الذي أحرقوا به، وكان لكل إجراء من إجراءات التعذيب ثمنه وأجرته، وبعد إعدام ساحر ثري، دعا الرسميون أنفسهم إلى وليمة على حساب ممتلكات الضحية»[48].

وفي عام 1592م كتب الأب كورنليوس لُوس Cornelius loss يقول:

«أرغمت مخلوقات بائسة على الاعتراف بأشياء لم يفعلوها قط بوساطة القسوة المتناهية للتعذيب، . . وهكذا حدث أنه بوساطة الذبح الوحشي أخذت حيوات أبرياء، وتم بوساطة الكيمياء الجديدة صنع نقود من الفضة والذهب من الدماء البشرية»[49].

وفي كثير من مناطق أوربا بدأت محاكمات بتهم السحر عندما توقفت المحاكمات بالهرطقات الأخرى[50]، وجاءت إجراءات التنكيل بالسحرة رسمياً بعد الإجراءات الأشد قسوة لمحاكم التفتيش، وصار الحال أنه ما أن يتهم إنسان بالسحر، حتى بات من المستحيل فعلياً أن ينجو من الإدانة، فبعد فحص عابر، كان يجري فحص جسد المتهم بحثاً عن علامات السحر، ووصف المؤرخ وولترنيغ Walter Nigg الإجراءات بقوله:

«. . بعدما كانت المتهمة تجرد من ثيابها وتصبح عارية، كان الجلاد يحلق جميع شعر جسدها بحثاً عن العلامة في الأماكن السرية من الجسد، وهي العلامة التي طبعها الشيطان على أجساد عصبته، واتخذت الثآليل، والنمش، وعلامات الولادة أدلة وبراهين على وجود علاقات محبة فطرية مع الشيطان»[51].

وإذا لم تظهر امرأة ولا علامة على وجود السحر، كان من الممكن إثبات الإجرام بطرائق كثيرة، مثل غرز إبر في عيني المتهمة، وفي مثل هذه الحالة من الممكن إثبات الإدانة الجرمية، إذا ما تمكن قاضي محكمة التفتيش من إيجاد بقعة بلا شعور أثناء الإجراءات[52].

ووقتها كان يجري انتزاع الاعترافات بوساطة طرائق شنيعة، وهي طرائق شائنة كانت قد تطورت خلال المراحل المبكرة لأعمال محاكم التفتيش، وقد كتب الملك جيمس الأول في كتابه «دراسة المعتقدات المرتبطة بالشياطين والعفاريت» يقول: «هم يشمئزون من الاعتراف من دون تعذيب[53] ويمقتون ذلك»، وتحدث طبيب كان يعمل في سجون السحرة عن نساء دفعن بالتعذيب حتى صرن شبه مجنونات:

«. . بوساطة تعذيب متوال. . أبقين لمدة طويلة وسط قذارة وفساد وظلام زنزاناتهن. . وكن يجرجَرْنَ بصورة مُستمرة إلى الخارج حتى يتعرضن إلى تعذيب وحشي فظيع إلى أن يصلن إلى حالة يصبحن فيها مسرورات باستبدال هذا الوجود الأكثر مرارة بالموت، ويصبحن على استعداد للاعتراف بأية جرائم تقترح عليهن، مؤثرين ذلك على الإلقاء بهن وإعادتهن إلى زنزاناتهن القذرات، وسط تعذيب مستمر الوقوع»[54].

وما لم تمت الساحرة أثناء التعذيب، كانت تحمل إلى عمود الحرق، وبما أن عمليات الحرق كانت تجري في الساحات العامة، كان قضاة محاكم التفتيش يمنعون الضحايا من الحديث مع الجماهير باستخدام سدادات خشبية للأفواه، أو بقطع ألسنتهم[55]، وبخلاف الهراطقة واليهود الذين كانوا يحرقون وهم أحياء فقط بعدما يكونون قد انتكسوا وارتدوا إلى هرطقتهم أو يهوديتهم، كانت الساحرة، أو الساحر يحرق أثناء إدانته الأولى[56].

ولم يكن التشويه الجنسي والتمثيل بالسحرة المتهمين أمراً غير كثير التداول، ومع الفهم الأرثوذكسي بأنه ليست هناك علاقة مطلقة، أو علاقة قليلة، للربوبية مع العالم المادي، جرى تصور الرغبة الجنسية وفهمها على أنها عمل غير رباني، وعندما كان الرجال يتولون التنكيل بساحرات متهمات، ويجدون أنفسهم وقد أثيروا جنسياً، يذهبون إلى القول بأن مثل هذه الرغبة لم تنبعث عنهم أنفسهم، بل انبعثت من المرأة وصدرت، فيهاجمون الأثداء والأماكن الجنسية بكلاكيب، وبكماشات حديدية محماة إلى حد الاحتراق، وكانت بعض الأحكام تتغاضى عن الإساءات الجنسية بالسماح إلى رجال عدّوا على أنهم «كاثوليك متعَصِّبون» بزيارة السجينات على انفراد في أماكن محددة ومحصورة، ولم يسمحوا قط بالزيارات الأنثوية، وكان شعب طولوز على

قناعة تامة بأن قاضي التحقيق فولكوي دي سنت جورج Foulques de saint George كان يستدعي النساء إلى المحاكمة لا لغرض سوى إساءة التعامل الجنسي معهن، حتى إنَّهنَّ أقدمْنَ على خطوة خطيرة وغير اعتيادية بجمع الأدلة ضده[57].

ولم يعرف رعب مطاردة السحرة أدنى حدود، ولم تعامل الكنيسة قط أبناء الآباء المنكل بهم بالرحمة، بل كانت معاملتها لأبناء السحرة وحشية بشكل خاص، وكان الأطفال عرضة للتنكيل والتعذيب بتهمة السحر، ومراراً جرى تعذيب فتيات كن بالتاسعة والنصف من أعمارهن والتنكيل بهن، وكذلك كان يجري تعذيب الأولاد والتنكيل بهم لدى بلوغهم العاشرة والنصف[58]، وكان يجري تعذيب الأطفال الأصغر سناً من أجل استخراج شهادات يمكن استخدامها ضد آبائهم[59]، ووصل الأمر إلى حد عدّوا فيه شهادة الأطفال ممن بلغوا الثانية، شهادات مقبولة في قضايا السحر، مع أن مثل هذه الشهادات لم تكن مقبولة في أنماط المحاكمات الأخرى[60].

واشتهر واحد من القضاة الفرنسيين بتساهله وعطفه، بسبب أنه كان يصدر أحكاماً على الأطفال المتهمين بالسحر، بالجلد عوضاً عن الإحراق، لكنَّهم كانوا يجلدون أثناء مراقبتهم إحراق آبائهم[61].

وكان السحرة يستدعون للاستجواب عند حدوث أية مشكلة من المشاكل، وعند أي اضطراب اجتماعي، ولدى أية قضية تتعلق بالسلطات، وبات الآن أي عمل عصيان يمكن أن يعزى إليهم، أو يتهم العصاة بالسحر، ويجري التنكيل بهم على أساس أنهم عصاة، وليس أمراً مدهشاً أن المناطق التي كانت تشهد تحركات سياسية واضطرابات، وصراعات دينية، كانت تعاني من أكثر أعمال المطاردة كثافة للسحرة، ومالت أعمال مطاردة السحرة لأن تكون أكثر قسوة وحدة في ألمانيا، وسويسرا، وفرنسا، وبولندا، وسكوتلندا، مما كانت عليه في البلدان الكاثوليكية المتجانسة مثل إيطاليا وإسبانيا[62]، وأعلن الذين تولو مطاردة السحرة أن «العصيان هو أم السحر»[64]، وفي إنكلترا قال المتطهر وليم بيركنز William Parkins في وصفه السحر بأنه: «الخيانة الأشد سوءاً وشهرة والتمرد الأعظم الذي يمكن أن يكون..»[65].



التعذيب الذي انزل بامرأة اتهمت بالسحر، وكان هذا النوع وحشياً بصورة خاصة

وأسهمت حركة الإصلاح الكنسي بدور حاسم في إقناع الناس بتوجيه اللوم إلى السحرة من أجل مشاكلهم، وبشر البروتستانت والإصلاحيون الكنسيون الكاثوليك وعلموا بأن أي نوع من السحر كان إثماً بما أنه يشير إلى اعتقاد بوجود مساعدة لاهوتية في العالم المادي، لأن القوة المتفوقة في العالم المادي هي موجودة بالشيطان، ومن دون سحر، للتصدي للشر، أو لسوء الحظ، يعني أن الناس قد تركوا من دون حماية سوى القيام بقتل وكلاء الشيطان، يعني السحرة، ونجد بشكل خاص في البلدان البروتستانتية، حيث باتت أعمال طقوس الحماية مثل: أن يرسم الإنسان على نفسه علامة الصليب، وأن يرش الماء المقدس، أو أن يدعو القديسين، والحراس من الملائكة، غير مسموح بها، نجد أن الناس شعروا أنهم بلا حماية[66]، وكما قال بروسبيرو Prospero الذي كان من شخصيات شكسبير في الإغواء:

والآن وقد أطيح بسحري كله
فأية قوة أنا أمتلكها بنفسي
هي ليست متلاشية. . .[67].

ونجد في الأغلب أن قداسات كل من الكاثوليك والبروتستانت، قد تولى الوعاظ فيهم إثارة أعمال مطاردة السحرة، وبدأت الأعمال الرهيبة لمطاردة السحرة في بلاد الباسك (البشكنس) في عام 1610م، بعدما جاء الراهب دومنغودي ساردو Domingo de Sardo للوعظ حول أعمال السحر، وعلق على ذلك واحد من المعاصرين اسمه سالازار Salazar بقوله: «لم يكنْ هناك لا سحرة ولا مسحورون حتى بدؤوا يتحدثون عن ذلك ويكتبون»[68]، وبدأت عمليات مطاردة السحرة في سالم Salem وماساتشوستس Massachusetts بشكل مماثل بوساطة قداسات مرعبة ومواعظ تولاها صموئيل باريس Samuel Paris في عام 1692[69].

واقتادت أجواء الرعب التي أوجدها رجال الكنيسة من أتباع الإصلاح الكنسي إلى موت أعداد لا تحصى من المتهمين بالسحر بصورة مستقلة عن محاكم التفتيش، أو الإجراءات القضائية، فعلى سبيل المثال نجد في إنكلترا أنه لم تكن هناك محاكم تفتيش ولا أعمال مطاردة سحرة، لأنها لم تقدم فوائد مالية، أو الذي قدمته كان قليلاً، نجد كثيراً من النساء قتلن بسبب السحر من قبل الدهماء، وعوضاً عن اتباع أية أجراءات قضائية، استخدم هؤلاء الدهماء طرائق لتأكيد جريمة السحر، مثل «سباحة

الساحرة» حيث كانت تؤخذ المرأة المتهمة فتكتّفُ ثم يلقى بها في الماء، لمشاهدة فيما إذا كانت ستطفو، ذلك أن الماء تعميد وسطي، فهو إما سيلفظها ويبرهن على أنها مجرمة باقتراف السحر، أو أن المرأة سوف تغطس فيبرهن على أنها بريئة، مع أنها كانت ستموت غرقاً[70].

وتبنى الناس عقيدة جديدة مفادها أن العالم هو المملكة الرهيبة المرعبة للشيطان، ووجهوا اللوم إلى السحرة من أجل كل نازلة سوء حظ، وبما أن الشيطان قد خلق جميع أمراض الدنيا، فإن وكلاءه - أي السحرة - يمكن أن يوجه إليهم اللوم من أجلهم، واعتقد بعضهم أن الساحر يمتلك من القوة مثلما يمتلك المسيح إن لم يكن أكثر منه، فبإمكان السحرة إحياء الموتى، وتحويل الماء إلى نبيذ أو حليب، والتحكم بالأنواء، ومعرفة الماضي والمستقبل[71]، وعدّ السحر والسحرة مسؤولين عن كل شيء من الإخفاق في مخاطرات مشاريع الأعمال إلى ضعف الحركة والعطاء، فعلى سبيل المثال جرى اتهام امرأة سكوتلندية بالسحر، وأحرقت حتى الموت بسبب أنها شوهدت وهي تضرب سنوراً، وذلك في الوقت ذاته الذي تحولت فيه دفعة من البيرة فصارت حامضة[72]، وشغل السحرة الآن دور أكباش الأضحية، وهو الدور الذي شغله اليهود من قبل، فقد نظر الآن إلى أي سوء حظ شخصي، أو سوء موسم، أو مجاعة، أو وباء، على أنه خطأهم الآثم.

وزاد الهيجان الاجتماعي - الذي تسببت حركة الإصلاح الكنسي بخلقه - من وتيرة مطاردة السحرة، فقد أزالت حركة الإصلاح الكنسي دور الجماعة وأحلت محل ذلك المطلب الأعظم من أجل الكمال الخلقي الشخصي، ومع لحاق الدمار بالتقاليد الجماعية بتبادل المساعدات، واندثار نظام العزب الريفية الذي كانَ يتولى بكرم تجهيز الأرامل وإمدادهن، وزواله، ترك كثير من الناس بحاجة إلى الصدقات[73]، وصار شعور الإنسان بالذنب بعد رفض تقديم العون إلى واحدة محتاجة، صار من السهل تحويله ضد تلك المحتاجة باتهامها بالسحر، ووصف كاتب معاصر لهذا اسمه توماس أدي Thomas Ady حالة مماثلة نتجت عن الإخفاق في أداء بعض الواجبات الاجتماعية التي كانت حتى الآن من العادات الجارية قائلاً:



كان من المعتقد أن الساحرات اللاتي رسمن في هذه اللوحة امتلكن قوى خارقة. ونشرت حركة الإصلاح الكنسي الاعتقاد بأن القوى الخارقة أو السحر قد جاء من عند الشيطان، وأن الرب لم يعد يقدم أي سحر فيه وقاية، والوسيلة الوحيدة التي بقيت للذين كانوا في حالات الرعب هي التخلص من وكلاء الشيطان أي: السحرة.



كانت النساء العجائز الفقيرات في الغالب أول من وجهت إليهن تهمة ممارسة السحر

«وصرخ على الفور ساكن أحد البيوت وأعلن أن واحداً من الفقراء الأبرياء من الجيران أنه - أو أنها - سحرته، لأنه قال بأن رجلاً عجوزاً - أو امرأة - جاءت مؤخراً إلى بابي، ورغبت بالحصول على بعض المساعدة، وأنا رفضت تقديم ذلك، وليسامحني الرب، إن قلبي قد ثارَ ضدها.. وعلى الفور حدث أن ولدي، وزوجتي، وأنا شخصياً، وحصاني، وبقرتي، وشاتي، وبذاري، وخنزيري، وكلبي، وسنوري، أو آخرين، لحقهم المس، هكذا، هكذا، بطريقة غريبة جداً، وأتجرأ على أن أقسم أنها كانت ساحرة، وإذا لم تكن كذلك، كيف يمكن لهذه الأحداث أن تقع»[74].

وبشكل عام كان أكثر الضحايا عرضة للاتهام بالسحر، النساء اللائي شابهن تمثال العجوز الشمطاء، وبحكم أن المرأة الحكيمة العجوز هي تجسيد للقوة الأنثوية الناضجة، كانت تشكل تهديداً لبناء، كان يعترف فقط بالقوة والتحكم على آفاق للسلطة، ولم تتساهل الكنيسة قط مع تمثال العجوز الشمطاء، حتى في القرون الأولى عندما شابهت التماثيل المنتشرة للفتاة وللأم في تمثال مريم، ومع أن أية امرأة لفتت الانتباه، كانت عرضة للاتهام بالسحر، إما بسبب جمالها، أو بسبب مظهر غريب ملاحظ فيها، أو نقْص وتشويه فيها، مع ذلك كانت أكثر الضحايا بشكل عام هن النساء العجائز، وكانت النساء العجائز الأكثر عرضة للاتهام فوراً، حتى حيث مطاردة السحرة قد استنفدَتْ أغراضها بوساطة إجراءات محاكم التفتيش، التي ربحت باستهداف الأفراد الأكثر ثراءً.

وكانت النسوة العجائز، الحكيمات اللائي يتولين المعالجة الطبية، بشكل خاص أهدافاً لأعمال مطاردة السحرة، وقد كتب رينالد سكوت Reginald scot في عام 1584م يقول: «في هذه الأيام، لا فرق في أن تقول باللغة الإنكليزية: هي ساحرة، أو هي امرأة حكيمة»[75]، واعتمد عامة الناس في أوربا ما قبل الإصلاح الكنسي على النساء الحكيمات وعلى الرجال العقلاء من أجل معالجة الأمراض أكثر من اعتمادهم على رجال الكنيسة، أو الرهبان، أو الأطباء، وقد كتب روبرت بيرتون Robert Burton في عام 1621م يقول:

«السحر والشعوذة منتشران تماماً، والرجال الدهاة البارعون، والعرافون، والسحرة، البيض - كما يسمونهم - موجودون في كل قرية، وهم إذا ما قُصدوا، فإنهم سوف يساعدون كل الضعفاء والمرضى بأجسادهم وفي عقولهم»[76].

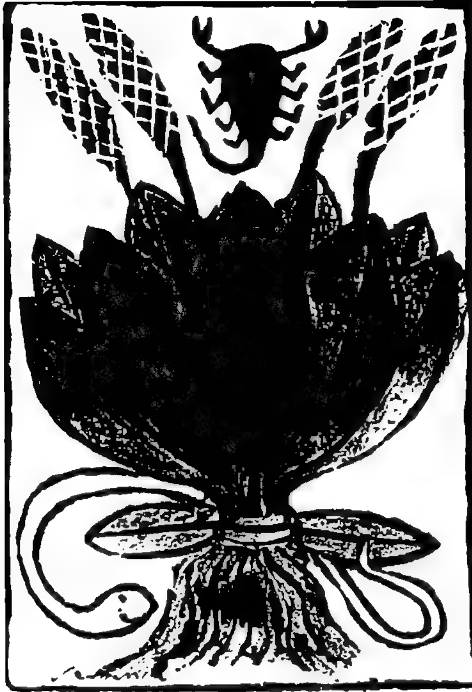
وقدّم هؤلاء المعالجون بجمعهم بين معارفهم، وبين بعض الأعشاب الطبية، مع الدعاء وطلب المساعدة الربانية، وأمدوا الناس بمعالجات يمكن تحمل نفقاتها، كما كانت في الغالب أدوية أكثر تأثيراً، وأعظم مما كان متوافراً في أي مكان آخر، وعارض رجال كنيسة الإصلاح الكنسي الطبيعة السحرية لهذا النوع من المداواة، على الرغم من تفضيل الناس لها وإيثارها على المعالجات التي تقدمها الكنيسة، أو الأطباء المجازين من الكنيسة، وعارضوا أيضاً السلطة والقوة التي أعطيَتْ للنساء.

وإلى أن انتشر رعب مطاردة السحرة، لم يفهم كثير من الناس لماذا يجب أن يعد المداوون الناجحون أشراراً، وقد كتب جون ستيرن John Stearne يقول: «بالحري على الناس رفع شأنهم، وأن يقولوا: لماذا ينبغي استجواب أي رجل لفعله الخير؟..»[77]، وقد تذكر راهب من بردجتاين Bridgettine ومن أوائل القرن السادس «النساء البسطاء» وهم يقولون له كما قال: «لقد سمعتهم كثيراً جداً يقولون لي شخصياً.. نحن نعني الخير، ونؤمن بالخير، ونعتقد أنه عمل صالح ومفيد وفيه خير أن تداوي شخصاً مريضاً، أو حيواناً مريضاً..»[78]، وفي عام 1555م أكدت جوان تيري Joan Tyrry أن «عملها في مداواة إنسان وحيوان بالقوة التي علمها الرب إياها بوساطة... الجنيات هو رباني وصالح..»[79].

وفي الحقيقة إن الابتهالات نفسها التي استخدمت من قبل النساء الحكيمات تتمتع تماماً بالسمة المسيحية من ذلك على سبيل المثال أنه في عام 1610م جرى إنشاد قصيدة أثناء التقاط عشبة «رعي الحمام Vervian»، وهي العشبة المعروفة أيضاً باسم «حشيشة القديس يوحنا St. Johns Wort»، نقرأ منها الأبيات التالية:

«مباركة أنت يا حشيشة رعي الحمام، وأنت تنمين
على الأرض/ لأنه في جبل الجمجمة هناك
تم العثور عليك للمرة الأولى/ فأنت التي شفيت مخلصنا
يسوع المسيح، وعالجت جرحه النازف
/ باسم الآب، والابن، وال
ـروح القدس/ ألتقطك من الأرض»[80].

ولكن بنظر المسيحيين الأرثوذكس، أعطت هذه المعالجات السلطة إلى الناس لتقرير مجرى حياتهم، عوضاً عن الخضوع بلا حول ولا طول لإرادة الرب، فتبعاً لرجال الكنيسة، ينبغي أن تأتي الصحة من الرب، وليس من خلال جهود بني البشر، وقد قال الأسقف هول Holl: «نحن لا نمتلك القدرة لأن نأمر، ينبغي أن نصلي..»[81].



استخدم العشب المرسوم على هذه اللوحة الخشبية للوقاية من عضة الافعى ولسعة العقرب. وكانت هذه العشبة بين أعشاب كثيرة استخدمت للمعالجة. وإنه لأمر مأساوي أن كل واحد او واحدة - امتلك فهماً ومعرفة بالأعشاب الطبية صار هدفاً للمطاردة بتهمة السحر. مما أدى إلى تدمير التقاليد الغربية حول استخدام الأعشاب.

واعتادت المحاكم الكنسية أن تجعل زبائن السحرة يعترفون بشكل معلن بأنهم «آسفين من قلوبهم لأنهم طلبوا مساعدة إنسان. ورفضو مساعدة الرب. . »[82].

وأوضح واعظ من عصر الملكة اليزابث الأولى أن أية معالجة من المعالجات «لم تتم بالمناشدة أو الربوبية، حسبما يؤمن الكهنة البابويين ويمارسون، بل بالتوجه إلى الرب بتواضع من خلال الصوم والصلاة. . »[83]، وتبعاً لكالفن ما من دواء يمكنه أن يغير مجرى الأحداث، التي جرى تقريرها من قبل الرب القدير[84].

وحاول الواعظون والذكور المجازون من قبل الكنيسة أن يملؤوا مكان نشاط المعالجين، ومع ذلك غالباً ما عدّت معالجاتهم غير فعالة بالمقارنة مع معالجات النساء الحكيمات، واعترف الحافظ على سجن كانتربري أنه أطلق سراح امرأة حكيمة في عام 1570م بسبب «أن السحر أفاد أكثرَ بوساطة طبابتها، مما قام به السيد بودل Pudall والسيد وود Wood، اللذان هما واعظان بكلمة الرب. . »[85]، وتحدث صك صدر في عام 1593م بعنوان: «حوار يتعلق بالسحر» عن امرأة حكيمة محلية «بأنها فعلت من الخير في عام واحد أكثر مما فعله جميع رجال الكتابات المقدسة هؤلاء وسيفعلونه طوال العمر الذي سيعيشونه. . »[86].

ولقد تبين أنه حتى الذكور من الأطباء الذين أجازتهم الكنيسة، والذين اعتمدوا على التخلص من الأعضاء المصابة ببترها، وعلى الفصد، وعلى التبخير، وعلى العلق، وعلى المبضع، وعلى المواد الكيماوية السامة مثل الزئبق، تبين أنهم أدنى خبرة ولا يمكن مقارنتهم بمعارف النساء الحكيمات بالأعشاب[87]، ومثلما تساءل الطبيب المشهور كثيراً باراسيلسوس Paracelsus بشكل إيجابي صحيح بقوله: «ألم تتمكن ممرضة قديمة في الغالب من هزيمة طبيب؟»[88]، حتى فرانسيس بيكون Francis Bacon الذي أظهر قليلاً جداً من الاحترام للنساء، قد اعتقد أن «النساء المجربات والعجائز كن أكثر سعادةً في كثير من الأوقات وأكثر نجاحاً في معالجاتهن من الأطباء المتعلمين»[89].

وغالباً ما عزا الاطباء عجزهم وإخفاقهم إلى السحر كما كتب توماس أداي Thomas Ady يقول:

«السبب هو الجهل، وطيلسان خبيث وتعويذة، مجرد رداء لتغطية جهل الطبيب، وعندما لا يمكنه اكتشاف طبيعة المرض، يقول: إن المصاب مسحور»[90].

وعندما كان من غير الممكن فهم مرض من الأمراض، كانت حتى الهيئة الطبية الأعلى في إنكلترا، أي الكلية الملكية للأطباء في لندن، معروفة بقبول تعليل وجود السحر[91].

ولذلك ليس مدهشاً إقدام رجال الكنيسة على تصوير النساء المداويات على أنهن الأكثر شروراً بين جميع السحرة، وقد أعلن وليم بيركنز William Perkins: «إن التنين الأكثر إرعاباً والأبشع والأكثر كراهية.. هي الساحرة الجيدة»[92].

وأدخلت الكنيسة في تعريفاتها المحددة لممارسة السحر، أي واحد لديه معرفة بالحشائش والأعشاب، لأن «هؤلاء الذين يستخدمون الأعشاب من أجل الشفاء، يفعلون ذلك من خلال تحالف مع الشيطان، إما بشكل بيّن أو شكل ضمني»[93]، هذا وكانت الطبابة والأدوية مقرونة منذ زمن طويل مع الأعشاب والسحر، والكلمتان الإغريقية واللاتينية للدواء هما «فارماكيا Pharmakeia وفينيفيكيوم Veneficium، وهما تعنيان «السحر» و«الدواء»[94] معاً، وهكذا صار مجرد امتلاك زيوت أعشاب أو دهون، أرضيَّةً كافيَةً من أجل الاتهام بالسحر[95].

واقتادت مقدرة أي شخص على المداواة بسهولة إلى الإدانة بالسحر، ففي عام 1590م باتت امرأة من نورث بيرويك North Berwick موضع ريبة واتهام، لأنها كانت قادرة على مداواة «جميع الذين كانوا يعانون من الاضطراب، أو الأسى أو الحزن، مع كل نوع من الأمراض أو العجز»[96]، وكان رئيس الأساقفة المريض لأسقفيَّة سيت أندروز Andrews قد استدعى لمعالجته ألسون بيرسون أوف بايرهيل Alison Peirsoun of Byrehill، وبعدما نجحت بمعالجَته، لم يرفض فقط أن يدفع لها أجورها، بل أمر باعتقالها بتهمة السحر، وأحرقها حتى الموت[97]، وكان ببساطة مجرد معالجة بعض الأطباء المرضى وغير الأصحاء بغسلهم سبباً كافياً لإدانة امرأة أسكوتلنديَّة بممارسة السحر[98].

واستهدفت أعمال مطاردة السحرة أيضاً القابلات، وقد اعتقد المسيحيون الأرثوذكس أن عملية الإنجاب تدنس كلا من الأم والمولود، وفي سبيل إعادة القبول في الكنيسة، يتوجب على الأم أن تتطهر من خلال العادات «الكنسية» التي تتألف من مدة حجر مقدارها أربعون يوماً، إذا كان مولودها ولداً ذكراً، ولمدة ثمانين يوماً إذا

كان مولودها أنثى، حيث تعد هي ومولودها خلال هذه المدة كفاراً، واعتقد بعضهم أن المرأة التي تموت خلال هذه المدة، ينبغي عدم منحها دفناً مسيحياً، وإلى أن جاء وقت الإصلاح الكنسي ارتؤي أن القابلة ضرورية لتولى القيام بالعمل الذي عدّ عملاً قذراً، أي عملية الإنجاب والمساعدة على الولادة، وهو اختصاص مهين، كان من الأفضل تركه بين أيدي النساء، ولكن مع مجيء الإصلاح الكنسي، ازداد إدراك قوة القابلات، فقد باتت القابلات الآن موضع ريبة في امتلاكهن البراعة والمقدرة على إجهاض الجنين، وتعليم النساء وتدريبهن حول تقنيات التحكم بالولادة(*)، وتخفيف آلام الوضع عند المرأة[99].

ونظر إلى امتلاك القابلة شيئاً من المعلومات عن أعشاب تساعد على تسكين آلام الوضع، على أنه تحدٍّ مباشر ومواجهة للقضاء الرباني الذي حتم وجود آلام وضع، وفي نظر رجال الكنيسة، يطال قرار العقوبة الذي أصدره الرب ضد حواء جميع النساء، حسبما جاء في سفر التكوين:

«وقال [الربُّ] [للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حملك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»[100].

ولسوف يكون الإقدام على تسكين آلام الوضع عند المرأة، حسبما ارتأى رجل دين إسكوتلندي، «إبطال اللعنة الأولى على المرأة»[101]، وتسبب إدخال استخدام المخدر لمساعدة المرأة أثناء آلام الوضع في جلب المعارضة نفسها وإثارتها، وتبعاً للاهوتي كير في إنكلترا الجديدة:

«إن المخدر فخ نصبه الشيطان، يقدم بالظاهر نفسه لمباركة النساء، ولكنه في النهاية سوف يجعل المجتمع قاسياً، ويحرم الرب من الصرخات العميقة والمخلصة، التي ترتفع في وقت الاضطراب، والحاجة إلى المساعدة»[102].

وكتب مارتن لوثر: «لو أن النساء أصبحن متعبات، أو حتى متن، فهذا لا يشكل مشكلة»[103]، وبناء عليه ليس مدهشاً أبداً أن غدت النساء اللائي لا يمتلكن

(*) تعود الشواهد على استخدام الأعشاب لمنع الحمل إلى ما لا يقل عن 1900 ق.م (Noon.an92)، وأوصلت المعلومات حول منع الحمل خلال العصور الوسطى ونشرت من قبل المعالجين والقابلات.

المعرفة الطبية فقط، ولكن اللائي يستخدمن تلك المعرفة لمواساة النساء الأخريات والعناية بهن، أصبحن المتهمات الأول في ممارسة السحر».

هذا ومن غير الممكن معرفة الذين فقدوا حياتهم، خلال قرون مطاردة السحرة، ولن يمكن معرفته، وتفاخر بعض أعضاء رجال اللاهوت كثيراً حين ذكروا عدد الذين أدانوهم بالسحر، مثلما فعل أسقف وورتزبيرغ Wartzburg الذي ادعى إعدام 1900 حياة، خلال خمسة أعوام، أو كما ادعى الأسقف اللوثري بندكت كاربزوف Benedict Carpzov بأنه حكم بالإعدام على عشرين ألفاً من عبدة الشيطان[104]، ثم إن الغالبية العظمى من السجلات قد فقدت، ومن المشكوك فيه أن تكون تلك الوثائق قد سجلت أعداد الذين قتلوا خارج المحاكم.

وأشارت روايات عاصرت الأحداث إلى حجم المحرقة، فقد كتبت بربارة وولكر Barbara Walker «أن مؤرخ تريف Treves ذكر أنه في عام 1586م تمت إبادة جميع الإناث من السكان في قريتين إبادة كاملة من قبل قضاة محاكم التفتيش، باستثناء امرأتين فقط تركتا على قيد الحياة»[105]، وكتب رجل في حوالي عام 1600م يقول:

«ألمانيا كلها مشغولة تقريباً بتشييد محارق للسحرة.. وأرغمت سويسرا على محق كثير من قراها بسببهم، ويمكن للمسافرين في اللورين أن يشاهدوا آلافاً وآلافاً من الأعمدة التي إليها ربط السحرة»[106].

وفي الوقت الذي استمر فيه التنكيل الرسمي بالسحرة من 1450 حتى 1750م، فإن القتل المتقطع للنساء، على أساس الاتهام بالسحر، قد استمر حتى الوقت الحالي، ففي عام 1928م تمت تبرئة أسرة فلاحية هنغارية من جريمة ضرب امرأة عجوز حتى الموت، حيث ادعوا أنها كانت ساحرة، وبنت المحكمة قرارها على أساس أن الأسرة تصرفت صدوراً عن إرغام لا يمكن مقاومته[107]، وفي عام 1976م اتهمت العانس المسكينة اليزابث هاهن Elizabeth Hahn بالسحر، وباحتفاظها بقرناء من الجن، أو بوكلاء للشيطان، على شكل كلاب، وقام جيرانها في قريتها الألمانية الصغيرة بنبذها، ورموا بالصخور عليها، وهدَّدُوها بالضرب حتى الموت قبل حرق بيتها، وقد تعرَّضَتْ هي للاحتراق بشكل سيِّء، كما أنهم قتلوا حيواناتها[108]، وبعد عام جرى قتل رجل عجوز في فرنسا بسبب الزعم أنه كان ساحراً[109]، وفي عام

1981م قتل جمهور من الناس في المكسيك امرأة برجمها بالحجارة لمظهرها وكأنها ساحرة، حيث إنَّهم اعتقدوا بأنها حرضت على الهجوم على البابا يوحنا بولص الثاني[110].

ولم تكن أعمال مطاردة السحرة صغيرة لا من حيث الإطار ولا التطبيق، حيث لم يمارسها عدد ضئيل من الأفراد الشاذين، بل كانت أعمال التنكيل بالسحرة هي السياسة الرسمية لكل من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية[111].

فقد اخترعت الكنيسة جريمة ممارسة السحر، وأسست الإجراءات التي بوساطتها تمّ التنكيل بها، ثم أصرت على أن السحرة قد جرى التنكيل بهم، وينبغي التنكيل بهم، وبعدما رفض كثير من المجتمع السحر على أنه خداع ووهم، كان بعض ممن أصر على استمرار السحر ودوره بين رجال اللاهوت[112]، وتحت ذريعة الهرطقة أولاً، ثم السحر ثانياً صار من الممكن تعرض أي واحد منهم للتهمة والمساءلة، وخاصة ممن شكك بسلطة المسيحية أو بوجهة نظرها حول العالم.

وضمنت أعمال مطاردة السحرة تحول أوربا إلى الأرثوذكسية المسيحية، فمن خلال رعب مطاردة السحرة، تمكن المسيحيون من أتباع الإصلاح الكنسي، من إقناع عامة الناس بالاعتقاد بوجود رب ذكر يحكم من الأعلى، أي أنه منفصل عن الأرض، وأن السحر كان عملاً شيطانياً، لأن هناك شيطان قوي مقتدر، وأن النساء هن الأكثر مواءمة لأن يكونوا وكلاءَهُ، وكنتيجة عرضية من نتائج مطاردة السحرة، تحول ميدان الطبابة إلى أن يكون ميداناً محصوراً بأيدي الذكور، وتعرضت التقاليد الغربية المتعلقة بالأعشاب إلى الدمار الواسع، ويجعل العدد الهائل من الناس الذين تعرضوا إلى العذاب الوحشي والذين قتلوا، وكذلك التأثير الهائل على التصور العام للرب، يجعل هذا كله مطاردة السحرة واحداً من أكثر الفصول ظلاماً في التاريخ الإنساني.

الفصل التاسع

الانسلاخ عن الطبيعة

أبعدت المسيحية البشرية عن الطبيعة، فعندما أخذوا يتصورون الرب بمثابة قوة متفوقة انفصلت عن العالم المادي، فقدوا احترامهم للطبيعة، ففي نظر المسيحية، أصبح العالم المادي مملكة للشيطان، فقد بدأ مجتمع اعتاد من قبل على الاحتفاء بالطبيعة من خلال أعياد موسمية، بدأ بإعادة ذكريات الحوادث التوراتية، التي لا علاقة لها ولا ارتباط بالأرض، وفقدت العطل كثيراً من روحها الاحتفالية، وتحولت إلى نغمة التوبة والأسف، فالوقت الذي اعتقد فيما مضى أنه يدور مثل المواسم والفصول، جرى تصوره الآن على أنه خط ضيق وطويل، ويرفض المسيحيين الأرثوذكس للطبيعة الدورانية للحياة، أخذوا يركزون على الموت أكثر من التركيز على الحياة.

فالأرضية مترادفة مع اقتراف الذنوب في معظم ثنايا جنبات التوراة، وعلى سبيل المثال قال كولوسيانس Colossians:

«على هذا أمتْ كل ما هو أرضي فيك: اللاأخلاقي، والشغف، والرغبة الشريرة، والجشع التي هي كفر، فبسبب هذه الأشياء وعلى أساسها قادم غضب الرب»[1].

وهناك نص مماثل موجود في سفر جيمس حيث قال: «إن هذا [الحسد المرير، والطموح الأناني في قلوبكم] هو لم ينزل هكذا من الأعلى، لكنه أرضي، وغير روحي وشيطاني»[2]، ووصف بولص أعداء صليب المسيح على أنهم أناس «إلههم بطنهم... وهم الذين يفتكرون في الأرضيات»[3]، وهكذا باتت الرسالة واضحة هي: إن الأرض غير ربانية.

ويقترح الكتاب المقدس أن الرب هو نفسه الذي قضى بوجود العداوة بين البشرية والطبيعة، فالرب عاقب آدم لأنه أكل من شجرة المعرفة المحرمة، وقال لآدم: «.. ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل...»[4].

وبتضاد حاد مع التقاليد القديمة، التي كان فيها الوئام مع الطبيعة هو علامة الربوبية، فهم المسيحيون الأرثوذكس بأن الرب قد أمر بأن تصبح الأرض أجنبية ومعادية.

وعوضاً عن ذلك رُئيت الأرض على أنها مملكة الشيطان، واختارت الكنيسة تمثال بان Pan الإله الإغريقي للطبيعة لتصوير الشيطان، فقد ربط الإنسان الذي له قرنين والذي له حافران، ورجلا تيس مع عدد من شخصيات الخصب، وعدّ من قبل مهماً وأساسياً لحسَن أحوال الريف، فتحت توجيه بان وقيادته ساد اعتقاد بأن جميع المخلوقات الميثولوجية للأرض تعمل بوئام مثل: الجنيات، والأقزام، والشياطين، وكان بان بارعاً بالعزف بالمزمار، ولذلك ساد اعتقاد بأنه كان يملأ الغابات والحقول بموسيقى شجية، وكان معنى اسمه «بان»، «الجميع» و«الخبز»، ولكن خاصة بعد نهاية الألف الأول، عندما قامت الكنيسة بإجازة بعض الصور المحددة للشيطان، أصبح بان مشهور السمعة، يثير الرعب أو الخوف الشديد كتمثال للشيطان.

وأثّر مفهوم تصور فصل الطبيعة عن الرب على معاملة الحيوانات، فقد أعلن اللاهوتي توماس الأكويني في القرن الثالث عشر، بأن الحيوانات ليس لها حياة أخرى، وليس لها حق الوراثة، وأنه «بوساطة القضاء العادل تماماً للخالق، كل من حياتهم وموتهم خاضع لاستخداماتنا»[5]، وغالباً ما راج اعتقاد بأن الحيوانات هي وكلاء الشيطان، وقد كتب لويس ريجنستين Regenstein في كتابه «إعادة تزويد الأرض» المنشور في عام 1991م أنه:

«في القرون العشرة التي تقدمت على القرن الحالي، هناك روايات عن: محاكمة، وتعذيب وإعدام (غالباً بالشنق) لمئات من الحيوانات، وجاء ذلك في الغالب على يد محاكم كنسية كانت تعمل تحت ظل افتراض أن الحيوانات يمكن استخدامها من قبل الشيطان للقيام بهذا العمل»[6].



قرن الإله الإغريقي بان مع الطبيعة والخصب قبل المسيحية.
ثم رسمته المسيحية فيما بعد على أنه الشيطان نفسه

وتولت محاكم التفتيش الاعتقاد المرعب بوجود المستذئبين (أناس مسخوا ذئاباً)[7]، وفي عام 1484م أمر البابا انوسنت الثامن بشكل رسمي بإحراق الهررة البيتية مع الساحرات، وهي ممارسة استمرت طوال قرون مطاردة السحرة[8].

وأسهم الاعتقاد بأن الحيوانات كانت وكلاء الشيطان في تدمير الإشراف الطبيعي على القوارض، وغالباً ما استهدف المسيحيون المتشددون: الهررة، والذئاب، والأفاعي، والثعالب، والفراخ، والديكةَ البيض، على أنها حيوانات ينبغي إبادتها، وبما أن كثيراً من هذه الحيوانات ساعدت على تحكم الناس بمحاصيل الأطعمة، وبالقوارض الحاملة للأوبئة، فإن إبادتها زاد كثيراً جداً من حدوث الأوبئة وانتشارها[9]، ولكي تزداد الأمور سوءاً، أجازت الكنيسة ما أمر به الأطباء بقتل الهررة، والكلاب أثناء أوقات الطاعون، على أساس الاعتقاد أن هذا سوف يوقف العدوى[10]، وطبعاً كان العكس تماماً هو الحقيقة.

وأمضت الكنيسة قروناً في تحريم إظهار الاحترام لما يتعلق بالطبيعة، وأن العبادة ينبغي أن تتم داخل البيوت بعيداً عن العناصر الطبيعية، ودمرت المسيحية المعابد المفتوحة خارج البيوت، وبنت عوضاً عن ذلك كنائس لها أسقف، وأدانت الكنيسة تقديم الاحترام والتقدير للأشجار وللينابيع، حيث كان الناس يضعون الشموع أو وسائل الزينة، وفي القرن السادس تساءل الأسقف مارتن أوف براغا Braga قائلاً: «ولكن ما الفائدة من إشعال الشموع وإضاءتها عند: الصخور، أو الأشجار، أو الآبار، أو مفترق الطرق، إذا لم تكن لعبادة الشيطان»[11]، وأصدر التجمع العام لرجال اللاهوت التابع لشارلمان في عام 789م مرسوماً جاء فيه:

«إنه بالنسبة للأشجار، والصخور، والينابيع، وأي مكان آخر يضع فيه الناس الجاهلون مصابيح، أو يصنعون أشياء مدركة وملاحظة أخرى، نحن نبين إلى كل واحد بأن هذا العمل هو الممارسة الأكثر شراً، وهي ممارسة ممقوتة من الرب، وبناء عليه، إنهم حيثما وجدوا، ينبغي نزعهم وتدميرهم»[12].

وحاولت قصص أن توضح أن عناصر القدرة في الأشجار، والأحراش، والطبيعة، قد خضعت للمسيح، ويقال بأن القديس مارتن أوف تور Tours وقف في القرن الخامس تحت شجرة صنوبر محترمة، عندما أمر بقطعها، وعندما كانت الشجرة هاوية فوقه، رسم علامة الصليب، فرفعت الشجرة نفسها، ثم سقطت ثانية

بعيداً عنه، وهناك حكاية مماثلة من القرن الثامن تعلقت بالقديس بونيفيس Boniface في هسي Hesse، فعندما كان يقوم بقطع شجرة سنديان مقدسة، قيل بأن الشجرة انفلقَتْ إلى أربعة أقسام متساوية، ووقعت على الأرض على شكل صليب، ويوجد في مخطوط من القرن الثاني عشر مشهد مرسوم يصور امرأة عمياء حاملة فأساً ومتوجهة إلى شجرة، وعلى الرغم من وجود روح الشجرة الذي قام مرعوباً، فإن أسقفاً وقف إلى جانبها يبارك عملها، وعوضاً عن أن تعاني المرأة من أية نتيجة مضرة، فإنها استردت بصرها[13]، وتبعاً لمثل هذه الحكايات، فإن القوة المتفوقة للأرض قد خضعت للقوة المتفوقة لرب الكنيسة المسيحية.

ولكن حتى عصر الإصلاح الكنسي، ومطاردة السحرة، لم يؤمن معظم الناس بهذا، وحيث إنَّ الكنيسة المبكرة لم تكن قادرة على إقناع الناس بغياب الرب وبعدم وجوده في الطبيعة، قامت عوضاً عن ذلك بدمج جميع جوانب عبادة الطبيعة بالذات وأدائها، ومثل هذا ووفق الطريقة نفسها قامت بتطوير سحر كنسي، عندما لم تتمكن من محق السحر الوثني وإزالته، وهكذا وجدت صور وتماثيل ونماذج شخصيات الخصب، وكانت بالعادة من الذكور، ولها قرون في بعض الأحيان، ومغطاة أحياناً بأوراق نباتات، وبنباتات متقيئة، وجدت سبيلها إلى صور الأيقونات المسيحية، وإلى وسط رسوم المخطوطات، وأصبحت أوراق الأشجار موضوعاً دائم التكرار في الفن المسيحي، وغالباً ما ظهرت الأشجار المجلة بشكل تقليدي في ساحات الكنائس[14]، ونحتت أعمدة الكنائس حتى تشابه جذوع الأشجار، لا بل ربما في بعض الأحيان لتماثل حتى شجرة الحياة الأسطورية[15]، وفي محاولة من الكنيسة لاستيعاب الناس الذين كانوا ما يزالون يظهرون تبجيل الطبيعة، دمجت الصنم نفسه واستوعبته، وهو الصنم الذي أصرت الأرثوذكسية على ربطه بالشيطان.

أيام العطل:

واستوعبت الكنيسة أيضاً الأعياد السنوية الوثنية وأيام العطل، مدعية بأنَّها مسيحيَّة، وكان الناس قد اعتادوا على وضع علامات للفصول باحتفالات وطقوس دمجت نشاطاتهم مع دورات الأرض، ووضعت الكنيسة أيام العطل المسيحية حتى

تتماشى مع هذه الأعياد الأقدم، على أمل الحصول على قبول أسهل، واعتراف بالديانة الجديدة، وفي الوقت الذي كانت فيه المعاني التقليدية لمعظم أيام العطل هذه لا علاقة لها بالمسيحية الأرثوذكسية، تساهلت الكنيسة عادة تجاه الطقوس القديمة، وفعلت ذلك أثناء قيامها بتعليم المعاني التوراتية الجديدة، وفقط أثناء الإصلاح الكنسي أصرت المسيحية الأرثوذكسية على أن التوجه الطبيعي القديم بمنح الأهمية لأيام العطل قد أزيل.

فقد جرت العادة على أن تمتلك دورة العام عند كل تغير في الفصول الأربعة، وكذلك ذروة كل موسم، أهمية عظمى، وهكذا كان الانقلاب الشتوي، واليوم الأشد ظلاماً في السنة، وقتاً لميلاد جديد، وغالباً ما جرى تمثيله ورمز إليه بميلاد شخص ذكر سنوي يمثل الخصوبة، وهو تمثيل لشمس السنة الجديدة، وعدت ذروة الشتاء على أنها الموعد الوسط بين الانقلاب الشتوي والاعتدال الربيعي، ووقتاً لتغذية الحياة الجديدة، فالربيع بات على وشك تشجيع الخصوبة، ويكون ذلك عندما ستتحد الأرض والشمس، فتجلب الأرض المواسم الوافرة، والثراء الكبير من الصيد، ومن الانقلاب الصيفي وخلال الخريف تنتقل طاقة الشمس إلى المحاصيل، وكانت الاحتفالات بذروة الصيف وبالاعتدال الخريفي احتفالات بموسم السنة وخصبها، وكانت نهاية العام عندما تصبح الحقول في حالة سبات، وعندما تبدو الأرض وكأنها تموت في ذروة الخريف، كان هذا الوقت هو موعد تشريف الميت وتكريمه، وإطلاق سراح الماضي.

ولدى قيام الكنيسة المبكرة بتبني هذه الأعياد، على أنها مسيحية، استهدفت من كلّ ذلك نيل ولاء الناس وكذلك تسخير حيوية مثل هذه الأعياد واستثمارها، ففي الوقت الذي لا شيء فيه يشير إلى التاريخ الفعلي لميلاد يسوع، جرى بسهولة ربط هذه الحادثة بأعياد الانقلاب الشتوي، وعلى سبيل المثال كان أيضاً الاحتفال الروماني بعيد ميلاد إله الشمس ميثْرا، يجري في الخامس والعشرين من كانون الأول، وفي مصر وسورية لما قبل المسيحية شارك في طقوس الإنقلاب الشتوي أناس توجب عليهم العودة إلى معابد ومزارات تشبه داخل الرحم، وذلك حتى منتصف الليل، وهو الموعد الذي يخرجون فيه معلنين قائلين:



تقترح هذه اللوحة الخشبية من العصور الوسطى نموذجاً للحكايات التي حاولت الكنيسة نشرها آملة من وراء ذلك إقناع الناس بالتخلي عن احترامهم للطبيعة. ففي مثل هذه الحكايات يقدم المسيحيون على قطع الأشجار المقدسة مع عدم احترامها، لإظهار المدى الذي خضعت فيه الطبيعة وقواها إلى رب المسيحية.

«لقد ولدت العذراء واشتعل الضوء»[16]، ولم تفلح أعمال الاستنكار ضد الاحتفال بيوم العطلة هذا من قبل تيرتوليان Tertullian، والقديس أوغسطين، والبابا ليو Leo الأول[17]، فكان أن تبنت الكنيسة موعد الانقلاب الشتوي، وجعلته يوم عيد الميلاد، وبسهولة جرى ربط عيد ميلاد إله الشمس في يوم الانقلاب الشتوي، بعيد ميلاد ابن الرب.

وصار موعد الاحتفال المصري بعيد الانقلاب الشتوي، الذي هو عيد ميلاد أوزيريس Osiris، الذي هو التمثيل اللاهوتي للخصوبة الذكرية، والذي كان يتم في السادس من كانون الثاني، صار الآن عيد الغطاس المسيحي[18]، وأعلنت الكنيسة أنها تهتم كثيراً في إظهار لاهوتية يسوع، ومع ذلك فإن روح كل من عيد الميلاد، وعيد الغطاس المسيحي احتويا على الاحتفالات غير المحددة التاريخ بالانقلاب الشتوي، وكانت الفوارق فيما بينهما عائدة بصورة أكبر إلى الفوارق بين التقاويم، ولم تكن فوارق في المعنى، وقد كان التقويم المصري متأخراً اثني عشر يوماً عن التقويم اليولياني[19]، وهكذا لم تقع تواريخ الكثير من أيام العطل الدارجة، تماماً في موعد الانقلاب، أو الاعتدال، أو ذروة الفصل، لسبب مشابه، وقد اختلفت وسائل تحديد الوقت اختلافاً هائلاً، فتقويمنا الحالي لم يجر تبنيه بشكل كامل في إنكلترا حتى عام 1715م، وفي روسيا حتى عام 1919م، وفي الصين حتى عام 1949م[20].

ووجدت الاحتفالات التي تحدد ذروة فصل الشتاء، أيضاً طريقها إلى المسيحية، من ذلك مثلاً نجد أن الاحتفالات في الثاني من شباط أو في الرابع عشر منه، وهي احتفالات كانت تقام على شرف الوجوه الأنثوية اللاهوتية مثل بريجيت Brigit وفينوس Venus، اللتان شجعتا: الفن، والشعر، والمداواة، والنار، والحكمة، نجدها قد غدت مثبتة في التقاويم المسيحية[21]، وعوضاً عن ذلك بات عبارة عن نهاية مدة أربعين يوماً احتاجتها العذراء حتى تتطهر بعد ولادتها.

وتبنت الكنيسة احتفالات موعد الاعتدال الربيعي، بجعله عيداً للفصح، فهذا الوقت كان واحداً من أوقات الاحتفال القائمة بقيامة الشمس، والعودة إلى الألق والعظمة، ولم يتطلب الاحتفال بقيامة ابن الرب تغييراً كبيراً في الفهم والاعتقاد، وفي الحقيقة كانت احتفالات عيد الفصح مشابهة تماماً للاحتفالات الأقدم ـ خاصة الاحتفالات التي تتعلق بالاعتراف بقيامة أدونيس البابلي، وأبولو الإغريقي، وأتيس

Attis الروماني - ولذلك قامت نقاشات مريرة ضد ادعاء الوثنيين بأن الاحتفالات بعيد الفصح ما هي إلاّ تقليد كامل للتقاليد الاحتفالية القديمة[22]، ووجدت الاحتفالات بالاعتدال الربيعي بإشعال النيران في الفضاء، والتي جرى بالأصل تحريمها من قبل الكنيسة، وجدت طريقها إلى داخل الطقوس الرسمية في روما في القرن التاسع[23]، واستمرت رموز الخصب التي كانت مرتبطة بالربيع، مثل البيض، والأرنب الولود بشكل غير معقول والخصب كثيراً، استمرت حية وموجودة أيضاً.

التبني المسيحي	تقاليد ما قبل المسيحية أو الوثنية	الموعد في العام
عيد الميلاد عيد الغطاس	ولادة الأنثى للشمس أو ولادتها لذكر يمثل شخصية الخصوبة، وغالباً ما جرى بهذا العيد إحراق قطع من الخشب كبيرة، ومسيرات مشاعل، وبشجرة مزينة.	الانقلاب الشتوي
عيد طهارة مريم العذراء	وقت تغذية، وإلهامات تشريفية وخلاقة. ممارسات تتضمن احتفالات بالنور. ارتداء أقنعة حيوانية وجلود حيوانية أيضاً على أمل تدشين موارد العام المقبل.	فصل الشتاء
عيد الفصح	قيامة الشمس وكسبها التفوق والعظمة على الليل - احتفالات لها علاقة بالخصوبة، تتضمن رموزاً مثل البيض، والأرنب الولود.	الاعتدال الربيعي
عيد العنصرة عيد الصعود	زواج الأرض والسماء الذي سيأتي منه موسم العام، وغالباً ما يجري الاحتفال به برقص حول سارية، وبالتزين بأوراق نباتات جديدة.	فصل الربيع
عيد القديس يوحنا	ذروة ضوء الشمس الاحتفال بنيران كبيرة في الفضاء - إحراق بقايا أعشاب والتزين بالورود.	الانقلاب الصيفي
عيد رفع مريم	انتقال طاقة الشمس إلى المحاصيل - مباركات طقوسية للمحاصيل - والأعشاب. والحقول والجبال والمحيط. وصنع تماثيل من الدمى أو القمح أو الحبوب.	فصل الصيف
عيد القديس ميكائيل عيد ميلاد مريم	وقت لتقديم الشكر على المحاصيل - ولائم وتزيينات بفواكه الخريف - والحبوب، والخضار.	الاعتدال الخريفي
عيد جميع الأرواح. عيد جميع القديسين	اعتراف باكتمال العام - إكرام الموتى وتشريفهم - تشريف الماضي وإطلاق سراحه.	فصل الخريف

ومع ذلك، حدث مع انتشار المسيحية، أن احتفالات الربيع والصيف أخذت تفقد معناها الأصيل بالتدريج، وهكذا غدا تاريخ ذروة الربيع عيد العنصرة أو أحد الشعانين، وهو احتفال ليس بناء على الأخذ بالخصوبة، بل احتفاء بحادثة توراتية عندما أخذ الناس يتحدثون بلغات متعددة (بلبلة الألسن) وتكريماً لذكرى ميلاد الكنيسة، ولم يعد الانقلاب الصيفي يعدّ عيداً بوصول ضوء الشمس إلى الذروة، بل صار بالحري عيداً على شرف القديس يوحنا(*) الذي عمّد المسيح، وغدت الاحتفالات بفصل الصيف أعياداً من أجل العذراء مريم، مثل «يوم عشبة ستنا مريم» ويوم «عيد الصعود» أي اليوم الذي «صعدت» فيه مريم إلى السموات[24].

ودمجت احتفالات الاعتدال الخريفي وتطورت حتى صارت تعرف باسم عيد القديس ميكائيل (عيد ميكائيل رئيس الملائكة، قاهر الشيطان) وعيد ميلاد مريم، وبقيت أعمال الشكر والامتنان من أجل المواسم، ومباركة الأعشاب الطبية للسنة جزءاً من أيام عطل الخريف هذه، فحتى هذه الأيام يجري تغطية مزارات مريم بسنابل القمح، ممثلاً بذلك الصور الوثنية للقمح الذي يتوفر في الخريف[25].

وكان يعتقد أن ذروة الخريف، ونهاية دورة الأرض السنوية، هو الوقت الذي يصبح فيه الحجاب الذي يفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، قد أصبح رقيقاً جداً، وعلى الرغم من محاولات الكنيسة لمنع الاحتفال بيوم العطلة هذا، حدث أنه مع القرن التاسع جرى نقل عيد جميع القديسين إلى أوّل تشرين الثاني ومع عام 1045م بدأت ديرة كلوني بمراعاة هذا الوقت وعدّه «يومَ جميع المغادرين»[26]، واستمرت الطبيعة المبكرة المتوجهة نحو أهمية ومكانة الفَصل بكمال أكبر، وذلك من خلال الاحتفال بعيد جميع القديسين.

(*) الصحيح النبي يحيى، وتسميته حنا أو يوحنا ليست صحيحة، لأن اسم حنا اسم قديم الاستخدام معناه الحنان، وأما يحيى فاسم فريد جديد معناه الحياة، لأنه ولد بإعجاز من أبوين عجوزين، مثلما ولد المسيح عليه السلام من دون أب.



انتقل الكثير من التبجيل والتقديس الذي كان موجوداً قبل المسيحية للعناصر الأنثوية اللاهوتية إلى عبادة مريم العذراء. وكانت المحصلات قيام عطل كثيرة على اسمها من خلال دورة كل عام.

وقام الوثنيون أيضاً بمراعاة دورات القمر، وغالباً ما تضمنت هذه الاحتفالات تقديم التبجيل للجوانب الأنثوية من الرب. وأدان اللاهوتيّون المسيحيون

الاحتفالات التي راعت دورات القمر واعتمدتها، وهي التي عرفت باسم - La Luna، وعدتها أعمالاً جنونية أو «حماقات كبرى Lunacy»، وفي الوقت نفسه أدان القديس أوغسطين رقص النساء تشريفاً للقمر الجديد، وعدّه «وقحاً وقذراً»[27]، وعندما لم تتمكن الكنيسة من إيقاف مثل هذه الاحتفالات، دمجتها من جديد في التقويم المسيحي، وكما جرت العادة تحت غطاء تشريف مريم وتكريمها، واعترفت الكنيسة بشكل رسمي بالتواريخ التالية:

الثامن من كانون الأول، هو اليوم الذي حملت فيه القديسة حنة بمريم، والثامن من أيلول هو اليوم الذي ولدت فيه مريم، والخامس والعشرين من آذار هو اليوم الذي حملت فيه مريم بيسوع، وهو اليوم الذي أعلن لها بذلك، ولذلك يدعى أيضاً بعيد البشارة، وكان اليوم الذي تطهرت فيه مريم من بعد الولادة هو اليوم الثاني من شباط، أو الرابع عشر، وكان اليوم الذي صعدت فيه مريم إلى السماء، أو عيد الصعود هو الخامس عشر من آب، وكانت الاحتفالات غير الرسمية بمريم حتى أكثر من هذا بكثير.

الاحتفال:

وفي الوقت الذي أعانت فيه عمليات تبني الأعياد ذات التوجهات الطبيعية على حشد الأعضاء للكنيسة المبكرة، فإن الروح الاحتفالية لهذه الأعياد قد تعارضت مع وقار الأرثوذكسية وزهدها، وعلى هذا الأساس حذر في القرن السادس عشر غليوم بريكونت Briconnet بقوله: «إن أيام العطل ليست لمتعة الجسد، ولكن من أجل إنقاذ الروح، وليست من أجل الضحك والمرح، بل من أجل البكاء»[28]، ومع الإصلاح الكنسي حاولت كل من الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية أن تزيل ليس فقط التوجهات الطبيعية في ممارسات الأعياد، بل أن تزيل أيضاً روح السرور التي رافقتها، فقد توجب الآن أن تكون أيام العطل أيّامَ تذكّرٍ دقيقة لوقائع توراتية، لا علاقة لها ولا ارتباط بفصول الأرض ومواسمها.

وتولت الكنيسة تحديد الممارسات الوثنية على أنها هي الممارسات التي تظهر فيها إما السرور والبهجة بالطبيعة أو الارتباط بها، وجرى ربط احترام الطبيعة ربطاً قريباً جداً مع التعبير عن المتعة والفرح، حتى إنَّ القديس أوغسطين اعتقد أن كلمة

ابتهاج Jubilation مشتقة من كلمة Jubilus التي هي أغنية كان يغنيها الذين يرعون الكروم والزيتون ويعتنون بها[29]، وذكر المجمع الكنيسي الذي عقد في روما في القرن التاسع بأن «كثيراً من الناس، ومعظمهم من النساء يأتون إلى الكنيسة في أيام الأحد وفي الأيّام المقدّسة ليس للمشاركة في القدّاس بلْ للرقْص وللغناء بأغان بذيئة وعمل الأشياء الأخرى مثل الأعمال الوثنية»[30]، ووصف الـ "Catechisme de Meaux" الممارسات الوثنية كما يلي:

«الرقص حول النار، واللعب، وإقامة الولائم، وغناء أغان عامية، ورمي الأعشاب فوق النيران، وجمع الأعشاب قبل منتصف الليل، أو قبل الصباح، وارتداء الأعشاب، والاحتفاظ بها طوال العام، وإبقاء الجمرات أو الرماد الناتجة عن النيران، والاحتفاظ بها، وما شابه ذلك»[31].

وكان الرقص مبغوضاً بشكل خاص من قبل المسيحيين الأرثوذكس، فقد جرى في القرنين السادس والسابع تحريم الرقص الكنسي، لأنه مثير جداً، وممتع كثيراً بوساطة النساء، وقد ادعى قضاة محاكم التفتيش بأن كلاً من النساء وعباد الشيطان يرقصون معاً[32]، وعدّ الرقص علامة على انحطاط روحي بالنسبة لرجال اللاهوت المتطهرين في إنكلترا الجديدة، فهم الذين نشروا في عام 1684م منشوراً تحت عنوان «سهم ضد الرقص المدنس والمختلط سحب من جعبة الكتابات المقدسة»[33]، وحذرت ترنيمة تبشيريّة من القرن الثامن عشر من أن الشيطان:

. . . . ينزلق ويتغلغل خلال جسد
الراقصين من نساء ورجال
ليوقعهم في شباك
لهيب نيرانه الحامية والشبقية[34].

ومن المؤكد أن المسيحيين لم يوافقوا جميعاً على موقف الأرثوذكس ولم يتفقوا معهم، ففي أعمال يوحنا - على سبيل المثال - رقص يسوع وقال:

«إلى العالم يعود الرقص، والذي لا يرقص لا يعرف ماذا حدث، والآن إذا ما اتبعت رقصي، شاهد نفسك في رقصي»[35].

وبالنسبة إلى الأرثوذكس لا الطبيعة، ولا المتعة الجسدية، كانت غير موجودة مع الحضور الرباني، لأن كليهما كانا من الشيطان، وكانت الكنيسة قد أدانت منذ زمن طويل المتعة الجسدية على أنها عمل غير رباني، ووفق هذا أعلن في القرن الثاني عشر، أسقف أوف تشارترز Chartres السيرجون أوف سالسبري Salisbury :

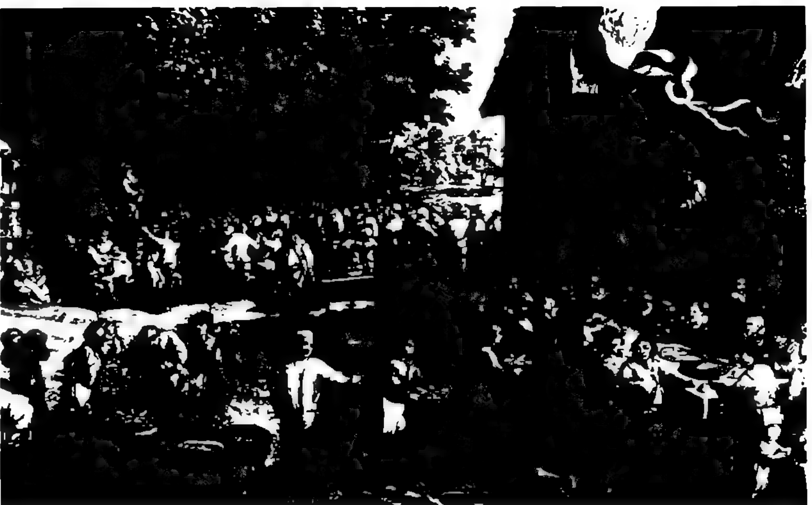
«إنه باستثناء المجرد من العقل والشاعر، هو الذي يقبل بالمتعة الجسدية نفسها، لأنها محرمة، وملطخة بالقذارة والدنس، وهي أمر يشجبه الناس، ويدينه الرب من دون أدنى ريب»[36].

وبشأن أيام العطل التي فيها مرح وسرور، كتب أسقف أوتون Autun في عام 1657م :

«إن من غير اللائق تكديس أيام العطل المتوجبة، خشية من تكديس مناسبات اقتراف الذنوب..»[37].

وجاء مع الإصلاح الكنسي طلب قطع أو إزالة الاحتفالات وأيام العطل ذوات السمات الطبيعية، وساد الاعتقاد بأن الضحك والمرح عمل لا يليق بالمسيحيين، لأنهم مشغولون في صراع يومي مع الشيطان، وقد أراد المسيحيون الأرثوذكس وطلبوا تحريم الرقص حول السارية في العراء مع رقص يوم الأحد، وحظر عزف موسيقى القرب والمهرجين الذين يرافقون مسيرة العرس إلى الكنيسة، ومنع رمي الحبوب، وتوزيع الدمى على الفقراء، على أساس «أن ذلك لا علاقة له بالدين وأوهام وكفر»[38]، ورأى قضاة إنكلترا الجديدة ورجال اللاهوت فيها أن احتفالات الزواج ينبغي أن لا تنتهي «بالفوضى والضجيج أو بانعدام النظام والانضباط غير المعتدل»[39]، ومنع قانون صدر في عام 1639م عادة «شرب نخب، أو الشرب بصحة، على أساس أن ذلك ممارسة كافرة مقيتة ومرذولة»[40]، ويتوجب على الإنسان عدم البقاء في الحانة بعد الاجتماعات، وينبغي عدم انحدار المناسبات ذوات التوجهات الطبيعية مثل قشر حبوب المحاصيل إلى مناسبات مرح وفرح[41].

وأمر البارلمان الإنكليزي في عام 1647م بوجوب التوقف عن الاحتفال بعيد الميلاد مع أيام العطل الوثنية الأخرى، وعدم مراعاتها، وجدد في عام 1652م



جرى منع المسيحيين الأرثوذكس، خاصة في عصر الإصلاح الكنسي من إقامة الكثير من الولائم الكبيرة والاحتفالات، وفي بعض البلدان جرى حتى تحريم الاحتفال بعيد الميلاد مع أعياد وعطل وثنية أخرى.

مرسوماً بارلمانياً بأنه «لن يكون هناك بعد الآن احتفال في الخامس والعشرين من كانون الأول، وهو ما يدعى عموماً باسم عيد الميلاد، وأن لا يكون هناك احتفال مهيب أو ممارسات في الكنيسة تتعلق بهذه المناسبة»[42]، وتوجب بقاء الأسواق والمخازن مفتوحة في يوم عيد الميلاد[43]، وفي إنكلترا الجديدة حيث عدّ الاحتفال بعيد الميلاد جريمة عدوانية، وبقي الحظر قائماً حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان إذا ما أمسك شخص وهو يحتفل بعيد الميلاد، كان هذا الشخص عرضة لأن ينتهي به الأمر على أداة التعذيب الخشبية، أو الربط إلى عمود الجلد[44]، وغير أصحاب المعامل والورشات بداية ساعة العمل إلى الساعة الخامسة صباحاً في يوم عيد الميلاد، وصدر تهديد بالإغلاق والطرد للذين يتأخرون، وحتى عام 1870م كان الطلاب في بوسطن، الذين لا يحضرون إلى المدرسة العامة في يوم عيد الميلاد، يعاقبون بالطرد العلني[45].

وجرى إيقاف الممارسات التي تتعلق بأيام عطل لها ارتباط بالطبيعة، وأوقف المسيحيون الأرثوذكس مسيرات الكنيسة حول المدن والحقول، التي كان المقصود منها مباركة المحاصيل، وطلب تغيير المناخ أو التماس الحماية ضد الحشرات، وقمعوا ممارسة جمع أغصان الأشجار، وأوراق الخضار، والورود لأخذها إلى الكنيسة[46]، وفي عام 1683م أضيف ملحق إلى دستور أسقفية آنسي Annecy، كان مما جاء فيه:

«نحن نأمر - تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي - بقمع والإزالة إزالة كاملة المشاعل والنيران التي جرت العادة بإشعالها في الأحد الأول من الصيام الكبير. . والحفلات التنكرية. . التي هي بقايا محضة ومهينة من الوثنية»[47].

ودخلت الجهود لإزالة الوثنية في محاولة لإبعاد - إبعاداً نهائياً - الاحترام والمتعة بكل من الطبيعة والنشاط النسائي، وليس مدهشاً أن صنع التماثيل ورسم الأيقونات التي لها علاقة باحترام الطبيعة وتبجيلها كانت لها نغمة عالية جداً بما يتعلّق بممارسة الجنس، وغالباً ما استخدم فرانسيس بيكون Francis Bacon الذي كان هدفه هو «السعي لتأسيس السلطة والتحكم من قبل الجنس البشري نفسه بالعالم»، ما استخدم مثل هذه التماثيل والأيقونات[48]، وكتب روبرت شيلدريك Rupert Sheldrake في كتابه «عودة ولادة الطبيعة»:

«إن استخدام المجازات المشتقة من التقنيات المعاصرة والمنبعثة منها، في أعمال الاستجواب والتعذيب الممارسة ضد السحرة، أعلن [فرانسيس بيكون] أن الطبيعة تظهر بذلك نفسها وتعرضها لنفسها، وينبغي أثناء التقصي والاستجواب الذي تقوم به محاكم التفتيش بحثاً عن الحقيقة، وعن أسرار الطبيعة، الدخول إلى الحفر والزوايا والولوج فيها، فالمتوجب هو ربط الطبيعة وتقييدها في الخدمة، وجعلها عبداً، ووضعها قيد الاعتقال، ومن الممكن - لا بل ينبغي - تشريحها وتحليلها بالفنون التقنية، وبيد الإنسان، ومن الممكن إرغامها على الخروج من حالتها الطبيعية، وعصرها وقولبتها، وبذلك تقابلها المعرفة البشرية والسلطة الإنسانية بمثابة قوة واحدة»[49].

وهكذا توجب الآن قهر الطبيعة وليس التمتع بها، وبلاشك عدم احترامها وتبجيلها.

وباتت نظرة التقطيب وانعدام الابتسامة وسيلة تميز المسيحيين، وكان سلفاً في القرن الثاني عشر أن حاول راعي الدير: روبرت أوف دوتز Rupert of Deutz أن يدافع عن كآبة أيام العطل المسيحية بقوله:

«إنه ليس صوماً هو الذي يجعلنا نشعر بالحزن، أو يجعل قلوبنا مظلمة، بل إنه بالحري هو الإشراق المقدس لوصول روح القدس، لأن حلاوة روح الرب وطلاوته تجعل المؤمنين يزدرون الطعام الأرضي»[50].

ومع القرن الثامن عشر ساد الاعتقاد بأن «الضجر» و«التقوى» هما متناظران[51]، ووصف ديدروت Diderot في عام 1764م الحالة القصوى لانعدام السعادة المسيحية بقوله:

«ما هذا الصراخ، وما هذا العويل، وما هذا البكاء، الذي سجن جميع هذه الجيف المخيفة؟، ما هي الجرائمُ التي اقترفها جميع هؤلاء التعساء؟ فبعضهم يضربون صدورهم بالحجارة، ويمزق آخرون أجسادهم بالكلاليب، ويضربون صدورهم بالحديد، فالندم، والألم، والموت كامن في أعينهم..»[52].



عندما وصل الناس أثناء عصر الإصلاح الكنسي إلى تصور بأن الأوقات الطبيعية، مرتبطة بخط مستقيم، وليس بالدورات الفصلية، صار الوقت مديرا وموجها لا يرحم. يتطلب من كل واحد صرف كل لحظة من وقته في اداء واجباته وما تقرر عليه. وتمثل هذه اللوحة العائدة إلى القرن السادس عشر قيام الوقت بمكافاة النشطاء ومعاقبة الكسالى. وقادت فكرة الوقت حسب خط مستقيم إلى إرعاب الكثيرين بجعلهم يعتقدون ان هناك فرصة واحدة في الحياة للالتفات نحو الرب. وليست هناك فرص متعددة، حسبما هو موجود في فكرة الوقت الدوراني.

وعقب أحد الناس أثناء الإصلاح الكنسي على أحوال إنكلترا بقوله: «إنها ليست انكلترا المرحة أبداً، منذ أن ضغط علينا للقدوم إلى الكنيسة»[53].

الوقت:

شجعت المسيحية مفهوماً جديداً عن الوقت، وهو مثل ما تقدم لا علاقة له بدورات الطبيعة. وكان معظم الناس حتى الإصلاح الكنسي قد فهموا الوقت على أنه دوراني، وعلى كل حال تبنى المسيحيون من أتباع الإصلاح الكنسي فكرة القديس أوغسطين بأن الوقت خط مستقيم، ووصف أوغسطين نظرية الكفار بالدورات Ciruitus Temporyum كما يلي:

«.. يستهدف الكافر بهذه المناقشات لغم إيماننا البسيط، وجرنا من الطريق المستقيم وإبعادنا عنه، وإرغامنا على السير معه على الدولاب»[54].

ومثلها مثل نظرية الحلول، أنكرت نظرية دوران الوقت فرادة يسوع المسيح، وسرمديته[55]، ذلك أنه إذا كان الوقت لولبياً دائرياً، فهو يقدم فرصاً متوالية للنمو والتغير، وعندها يمكن لروح يسوع المسيح وقيامته، يمكن نظرياً أن تنطبق على أي إنسان، وأن يجربها أي واحد في أي وقت، بصرف النظر عن التعاقب الرسولي، أو المرتبة اللاهوتية، وعلاوة على ذلك إذا كان الوقت دورانياً، يمكن للحياة أن لا تكون متضمنة لفرصة واحدة فقط للاستغفار، أو أن يبقى الإنسان ملعوناً مداناً إلى الأبد، بل بالحري هناك أمامه فرص غير محدودة حتى يطور علاقات أقرب مع الرب، والتحكم بالناس والإشراف عليهم أصعب بكثير عندما يؤمنون بأن هناك وسائل كثيرة، وفرصاً متعددة وكثيرة للعودة إلى الرب، وذلك أكثر بكثير من الفرصة التي قدمتها الكنيسة.

واستخف المسيحيون من أتباع الإصلاح الكنسي بالاعتقادات والممارسات المتعلقة بفكرة دوران الوقت، وعارضوا الاعتقاد بوجود أيام سعد، وأيام نحس، مثل أنه كان نحساً أن تتزوج أثناء اضمحلال القمر، أو أن الذنب الذي اقترف في يوم مقدس أسوأ من الذنب الذي اقترف في وقت آخر، فالوقت ينبغي أن يسير بشكل متوازن، ووفق خط مستقيم من دون انقطاع أو اضطراب، ومن دون تغير غير منتظم في الفصول، فستة أيام من العمل ينبغي أن يتبعها دائماً «يوم سابع Sabbath» يكون

يوماً للراحة، وذلك خلال العام كله[56]، وحسبما أعلن صك طهوري بلهجة هجائية معاصرة:

. . إنها حماقة عابرة.

أن تظن أن يوماً أكثر قداسة من يوم آخر. . .[57]

وجرى اختراع الساعة بالرقاص (البندلون) في عام 1657م، كدليل شاهد على الاعتقاد أن الدقائق كانت منتظمة في مرورها واستمرارها، ومع عام 1714م أصبحت الفكرة الجديدة القائلة بالوقت المتوازن ووفق خط مستقيم، عادية ومتداولة بما فيه الكفاية أن رجلاً كتب في إشارة منه إلى الاعتقاد بوجود أيام سعد وأيام نحس، أن «بعض الأشخاص الضعفاء والجهلة يمكن أن يؤمنوا بمثل هذه الأشياء، لكن الناس الذي يفهمون يزدرونهم. . »[58]، وفي هذه الحالة ومع وجود عناصر كثيرة من المسيحية الأرثوذكسية جرى تبني مفهوم الوقت المستقيم من قبل عامة الناس، فقط بعد الإصلاح الكنسي.

الموت:

كذلك أنكرت المسيحية الأرثوذكسية الطبيعة الدورانية للحياة المادية، وهناك نصوص في العهد الجديد تظهر الازدراء لدوران الحياة حيث نقرأ: «ثم عندما يجري تصور الشبق، أنَّهُ يجلب الذنب، وعندما ينتهي الذنب، يجلب الموت ويحضره»[59]، وبتشجيع الاقلاع من ممارسة الجنس، والولادة، والجسد المادي، وصلت المسيحية الأرثوذكسية إلى وضع توجب عليها فيه أن تركز بعناية فائقة على الموت، ليس فقط كأداة لإثارة الخوف، ولكن كنهاية في ذاته.

وفهم اللاهوتيّون المسيحيون ممارسة الجنس، على أنه في أحسن الحالات، مباح، إذا ما مورس فقط من أجل أهداف الإنجاب، أما غير ذلك في أسوأ الحالات، هو ذنب مميت، ومع هذا لقد آمنوا أيضاً أن انجاب مولود هو عمل غير رباني، ورفضت الكنيسة مع أطبائها المجازين، بازدراء ميدان عمل القابلات وكانت المرأة التي تموت أثناء المخاض، أو أثناء الولادة، قد حرمت أحياناً من الحصول على دفن مسيحي[60]، وكانت مدة التطهر، أو «Churching» للمرأة هي أربعين يوماً أو ثمانين بعد الولادة، وقد عدّ هذا ضرورياً من أجل إعادة قبولها في الكنيسة، وفي المجتمع

المسيحي الصحيح، حتى إنَّ العذراء مريم، احتاجت - في أعين بعض الناس - إلى التطهير بعدما جلبت يسوعاً إلى الدنيا.

وشجعت المسيحية الأرثوذكسية الانسلاخ عن الجسد المادي نفسه، وساد اعتقاد أن الحضور الرباني، لا يمكن العثور عليه في العالم المادي، وقد كتب بولص في الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس يقول: «فإذا نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد، فنحن متغربون عن الرب»[61]، وأكد الكتاب المقدس أن الحياة ذات المعنى، والحياة الروحية موجودة فقط عندما ينسلخ الإنسان عن الجسد المادي «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون. ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون»[62]، «لأن اهتمام الجسد هو موت، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام»[63]، فالحياة المادية متعادلة مع الذنب ومع الانحدار الروحي، بينما ساد اعتقاد أن الموت المادي، وإنكار الحالة الجسدية المادية الجسدية، سوف يجلب حياة روحية.

وكان عدم الاهتمام بالوضع الموائم للجسد المادي هو السمة التي اتسم بها السلوك المسيحي الأرثوذكسي منذ سقوط الامبراطورية الرومانية، عندما أهملت أنظمة قنوات جر المياه، وبيوت الاستحمام، وأحوال الصحة ورعايتها، ونظر إليها نظرة ازدراء، وحاول البروتستانت والكاثوليك الإصلاحيون التباري بين بعضهم بعضاً في إهمالهم للنظافة الجسدية، وذلك حسبما أعلن كاهن أوغسطيني، وشماس للملك بولندا قائلاً:

«اتبع مثل مولانا الرب، واكبَحْ جسدك، إذا كنت تحبه، وجاهد في سبيل فقدانه، فهذا ما تقوله الكتابات المقدسة، وذلك من أجل أن تنقذه، وإذا أردت أن تعقد سلاماً معه، اذهب دوماً وأنت مسلح، وآثر الحرب دوماً وشنها ضده، وعامله مثل عبد، أو أنك سوف تصبح على الفور أنت نفسك عبده غير السعيد»[64].

وفي العالم المسيحي نجد أن كلمة «جسدي» نفسه التي تعني ببساطة «ما يتعلق بالجسد»[65]، نجدها قد أخذت معنى ذنب، وخلود.

وغالباً ما أكد المسيحيون الأرثوذكس على أن الموت لم يكن جزءاً طبيعياً من الحياة، بل كان بالحري عقوبة، وحاجج القديس أوغسطين وقال بأن الموت قد وجد فقط بمثابة عقوبة على الذنب:

«وبناء عليه ينبغي أن نقول بأن الناس الأوائل هكذا خلقوا بالفعل: خلقوا أنهم إذا لم يقترفوا الذنوب، سوف لن يعانوا من أي نوع من الموت، ولكن بما أنهم أصبحوا مذنبين، جرى بناء عليه معاقبتهم بالموت، وصار الحال أن كل من جاء من ذريتهم سوف يعاقب أيضاً بالموت نفسه»[66].

وقال أيضاً:

«.. وبناء عليه هناك اتفاق بين جميع المسيحيين، الذين يتمسكون بالفعل بالإيمان الكاثوليكي، بأننا عرضة للخضوع لموت الجسد، ليس بموجب قانون الطبيعة، الذي قضى الرب بموجبه بعدم وجود الموت بالنسبة للإنسان، ولكن أنزله حقاً بسبب الذنوب..»[67].

ومثلما حاجج أوغسطين وأراد أن يبرهن على أن الذنب قد خلق الرغبة في ممارسة الجنس، لقد اعتقد أيضاً بأن الذنب قد خلق الموت.

وكان الموت في نظر الأرثوذكس ينبغي قهره، وقد كتب بولص في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس قائلاً: «آخر عدو يدمر هو الموت»[68]، ووصف القديس إغناطيوس - أسقف أنطاكية - كيف أن الرسل «قد استخفوا بالموت، ووجدوا وقد نهضوا فوق الموت»[69]، وساد اعتقاد بأن الإيمان المسيحي يشحن الإنسان بالسلطة على الموت، ففي إنجيل لوقا قال يسوع:

«ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يُزَوجون ولا يُزوَّجون إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هَم أبناء القيامة»[70].

وعوضاً عن قبول الموت على أنه جزء طبيعي من دورة الحياة، استخدم المسيحيون الأرثوذكس الموت كأداة لإثارة الخوف في الناس، ففي القرن الرابع نصح القديس باخوميوس Pachomius رهبانه قائلاً: «فوق كل شيء، دعونا دوماً نُبْق اليوم الآخر أمام أعيننا، ودعونا نَخَفْ دوماً من العذاب السرمدي»[71]، وأمر قانونَ القديس بندكت Benedict: «عليك الخوف دوماً من يوم الحساب، والخوف من النار، والرغبة في حياة سرمدية دائمة مع حرارة روحانية تماماً، وحافظ على إمكانية الموت دائماً أمام عينيك»[72]، وكان المفهوم القديم للعالم السفلي هو إلى حيث يذهب الإنسان بعد الموت للراحة ولاستعادة الشباب، وقد أصبح هذا المفهوم الفكرة

المسيحية المرعبة حول الجحيم، الذي هو مكان مليئ بالنار، وبحجارة الكبريت المحترقة، حيث يخلد الإنسان في عذاب دائم، وآلام مستمرة، وأصبح الموت، خاصة في إطار أن هناك حياة واحدة، وفرصة واحدة لصنع العمل الصالح، موضوعاً مرعباً متوقعاً.

واحتاجت الكنيسة - على كل حال - إلى وقت طويل، حتى تمكنت من تلقين هذا المفهوم الأرثوذكسي حتى الموت، وأقدمت الكنيسة على جعل المسيحية مفهومة من قبل الناس، بدمج عقائد ما قبل المسيحية وتبنيها، فمفهوم التطهر الذي تبنته الكنيسة في العصور الوسطى، قد لطف من خشونة العقيدة الأرثوذكسية وقسوتها، فعوضاً عن إرسال الإنسان بعد الموت مباشرة إلى الجنة أو إلى الجحيم، صار بإمكان روحه أن تتعرض للتطهر، في موضع وسط بين الجنة والنار، وذلك من أجل أن تقوم بالتوبة، ومن أجل أن تعاقب من أجل الذنوب، قبل الأمل بالسماح لها بالدخول إلى الجنة[73]، وقد تبرهن أيضاً أن هذا المفهوم مربح تماماً بالنسبة للكنيسة، فبتأكيد الكنيسة أنها يمكن أن تؤثر على مصير هذه الأرواح، جمعت كميات كبيرة من أموال مجتمع العصور الوسطى، مقابل خدماتها لصالح الذين كانوا في المطهرة.

ومع انتشار المسيحية الأرثوذكسية خلال حقبة الإصلاح الكنسي، حدث - على كل حال - أن جميع النشاطات التي تعاملت مع الموت على أنه جزء طبيعي من الحياة، قد توجب عزلها وشتمها، وما عاد لأحد أن يعتقد بأن الذين ماتوا، سوف يعرضون علىالمطهرة، فالناس سوف يحاكمون الآن مباشرة بعد الموت، ومن ثم سوف يرسلون مباشرة ومن دون توقف إما إلى الجنة أو إلى الجحيم، وبات لا يجوز بعد الآن عدّ موت أي شخص على أنه مناسبة مهمة، أو النظر إليه على أنه جزء من دورة الطبيعة، وانتقلت الجنائز من كونها حوادث اجتماعية كبيرة، إلى شؤون أسروية صغيرة[74]، وحاول المسيحيون الأرثوذكس تحريم قرع نواقيس الكنيسة، أثناء الجنائز، مع استخدام ملابس حزن خاصة[75]، وتوجب أن تصبح المقابر - التي كانت من قبل، أماكن لقاءات نشطة - معزولة تماماً عن النشاط اليومي للحياة، وبالنسبة، للرقص، ولأعمال اللعب، والنشاطات التجارية في المقابر، فقد باتت محظورة بشكل آلي[76]، وفي عام 1701م منع قرار صدر في المدن في انكلترا الجديدة،

صنع الأكفان والتوابيت، وحفر القبور، أو إقامة الجنائز في أيام «السبت»، على أساس أن هذه الأعمال تدنس اليوم المقدس[77].

ومثير للدهشة، أن المسيحية الأرثوذكسية في محاولة منها لقهر الموت، وعزله عن الحياة، رعت الانشغال بالموت، وتصور أوغسطين أن الحياة كلها مظللة ومحكومة من قبل الموت: «لأننا ما أن نبدأ بالعيش في هذا الجسد الميت، نأخذ على الفور بالتحرك من دون توقف نحو الموت»[78]، ويمكن للموت - تبعاً للأرثوذكس - أن يجلب الخلاص، وقد كتب أوغسطين:

«ولكن الآن بفضل النعمة الأعظم، والأكبر تقديراً للمخلص، تحولت عقوبة الذنب لخدمة الصلاح والاستقامة، لأنها وقتها سوف يعلن للإنسان: إذا كنت أنت مذنباً، فلسوف تموت، وسوف يقال للشهيد: مت أنت، إنك بلا ذنب، ثم سوف يقال له: إذا كنت قد خرقت الوصايا وخالفتها، فسوف تموت، وسوف يقال له الآن: إنك إذا رفضت الموت، فأنت تكون قد خرقت الوصايا وخالفتها»[79].

ولدى قيام المسيحيين الأرثوذكس ببذل جهودهم لقهر الموت، غالباً ما انتهوا بتمجيده، ذلك أن العمل الأعظم الذي قام به يسوع، هو فهمه أن يكون، وليس معجزاته في الشفاء، ولا رسالته في الحب والسلام، بل بالحري عمله بالموت، فقد ذكر الكتاب المقدس وأكد أن «يوم الوفاة [هو أفضل] من يوم ولادة الإنسان»[80]، وأصبح من المعتاد تسمية يوم وفاة الشهيد، بيوم ولادته [أو ولادتها][81]، وحاول أوغسطين أن يوضح لماذا نال الموت مثل هذه السمات السامية بقوله:

«ليس ذلك الموت، الذي كان من قبل شراً، هو الذي أصبح جيداً، بل هو فقط الموت الذي منحه الإيمان هذه النعمة، فذلك هو الموت الذي قبل على أنه مضاد للحياة، وهو الذي ينبغي أن يصبح الوسيلة والأداة التي يمكن بها الوصول إلى الحياة»[82].

وقد كتب القديس جون سيماكوس Cimacus في القرن السابع: «مثلما الخبز هو تماماً الأكثر حاجة بين جميع الأطعمة، كذلك التفكر حول الموت هو الأكثر أهمية من بين جميع الأعمال»[83]، وقد أعلن القديس يوحنا خريسوستوم Chyrsostom أن «السمة الأساسية للمسيحي هي الرغبة بالموت، وحبه»[84]، وأخذ المسيحيون الأرثوذكس بسمة طقوس الموت وتبنوها.

وظلَّلَ الانشغال بالموت، الميول المسيحية نحو الدنيا على اتساعها، وتقدر أن يكون الفهم الأرضي، والحياة المادية معادياً للروحانية التي رعت حماسات تقدمت على نهاية الدنيا، وقد توقع المسيحيون أن يزور الرب الأرض ثانية في القدوم الثاني، مبشراً ومشيراً إلى نهاية الأزمنة، وفي الإنجيل القانوني لمتى، أعطى يسوع الانطباع بأن مثل هذه النهاية باتت وشيكة الحدوث، حيث قال: «الحق أقول لكم إن من القيام هنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته»[85]، وكانت الموجات خلال المدد الزمنية في توقع تدمير العالم علامة رئيسية للتاريخ المسيحي، ففي انكلترا - على سبيل المثال - جرى أيام الإصلاح الكنسي نشر ثمانين كتاباً حول موضوع نهاية الدنيا[86].

وغيرت المسيحية الأرثوذكسية طريقة تفكير الناس حول الأرض، وحول المحيط الطبيعي، فعندما ساد الاعتقاد بأن الرب يحكم من الأعلى، فهمت الطبيعة على أنها بعيدة عن الرب، إن لم تكن منفصلة عن حضوره، وقاد مثل هذا الرأي والتصور إلى تغيرات هائلة في معنى أيام العطل، وفي سمات أيام العطل هذه، وفي تصور الوقت، وأدى هذا كله إلى الانسلاخ عن دورات الأرض الموسمية، أما أوجه الحياة البشرية التي تتحدث عن العلاقة بالدورات الموسمية، مثل الولادة، وممارسة الجنس والموت فقد جرى الاستخفاف بها وإهمالها، وعوضاً عن أن تقوم المسيحية الأرثوذكسية بتقدير دورات الحياة الطبيعية، أنكرت هذه الدورات إنكاراً كاملاً، وأصبحت مشغولة بالموت.

الفصل العاشر

عالم من دون رب
1600 حتى الوقت الحالي

رعت المسيحية الأرثوذكسية ابتعاداً بشرياً وتوجهاً نحو رأي يقدم قليلاً من الانتباه إلى فكرة القداسة، فبالتبشير وتعليم الناس أن المملكة الأرضية فارغة من القداسة، بنت المسيحية الأساس العقائدي للمجتمع الحديث، وخلّد المفكرون الحديثون مفاهيم المسيحية الأرثوذكسية، وقدموا شرعية علمية للإيمان بالمراتب الكهنوتية المتسلسلة، وبالتحكم والصراع، ومع حلول القرن الحادي والعشرين، هناك - على كل حال - وعي متزايد ليس فقط بتراجع مثل هذه المفاهيم، ولكن أيضاً بمحدودية صحّتها العلمية.

وحالما تَقبل الناس الاعتقاد بأن الرب لم يمتلك القدرة على إدارة القدرة المتفوقة في العالم المادي، أصبح شائعاً - خاصةً بين المثقفين - الاعتقاد بأن الشيطان أيضاً لم يعد يمارس مثل هذه السلطة، وما أن جرى رفض فكرة السحر المقدس، بات من السهل قبول أنه ليس هناك سحر مقدس أو شرير، يعمل في العالم المادي، وعوضاً عن ذلك جرى تصور الحقيقة المادية على عملية آلية لعناصر غير حية تعمل عملاً تاماً بناء على القوانين العقلانية والمحددة، شبه عمل ساعة هائلة الحجم، ومثلما فعل لافيو Lafew - أحد شخصيات شكسبير التمثيلية - في قوله عن العصر:

«لقد قالوا بأن المعجزات قد انتهت، ولدينا شخصياتنا الفلسفية، لتصنع الحداثة، والاعتياد، والأشياء المتفوقة، وبلا سبب»[1].

وكان هذا التصور الجديد، والرأي حول العالم، هو سمة ما بات يعرف باسم «عصر التنوير»، وكان عصر التنوير هذا الذي افتقر إلى الانفعالات الخلاقة لعصر النهضة، قد أوحى به مفكرو القرن السابع عشر مثل: غاليلو Galileo، ورينه ديسكارت Rene Descartes، وجوهانس كيبلر Johannes Kepler، واسحق نيوتن Isaac Newton، وفرانسيس بيكون Francis Bacon، وبيندكت سينوزا Benedict spinoza، وجون لوك Johan Locke، وفي الوقت ما زال فيه الكثيرون يعتقدون بأن الله قد خلق الدنيا، فإنهم الآن يرون بأن العالم يعمل وفقاً لقوانين شمولية مفهومة، لا تتطلب المزيد من التدخل من جهة الرب.

وعكست هذه الاعتقادات الجديدة والميول، عقائد وميول المسيحية الأرثوذكسية وذلك بحكم أن المسيحية الأرثوذكسية قد آمنت بأن هناك انفصالاً بين السماء والأرض، وعلى هذا الأساس تصور العلماء وجود انفصال مشابه، وهي فكرة أبدعت من قبل ديسكارت، مثل القول بوجود انفصال بين العقل والقضية، وكما آمن المسيحيون بأن الرب قد انفصل عن العالم المادي، مثل ذلك آمن العلماء بأن الإدراك، والحقيقة العلمية قد انفصلا عن بعضهما بعضاً، ومع أن المسيحيين الأرثوذكس والمفكرين الحديثين، يختلفون في عقائدهم حول الشيطان، إنهما معاً يفهمون العالم المادي على أنه فارغ من اللاهوت والقداسة.

ووجد الاعتقاد بأن العالم المادي يعمل بصورة مستقلة عن الإدراك، قبولاً شرعياً في قوانين نيوتن، ولقد صورت قوانيه عن الحركة والجاذبية، العالم على أنه يعمل على أساس قاعدة حيادية ومستقلة تماماً، وآلية، ومقررة، وأسس نيوتن عمله كله وأقامه على براهين مجربة، جاءت بمثابة شاهد لصالح الاعتقاد بأن الموضوع منفصل عن التأثير من القوى الخارقة، وعن الإدراك، ومنذ أن الاعتقاد بأن الإنسان الذي يدير التجربة، لن يكون له تأثير أو نفوذ على الموضوع، فإن نتيجة كل تجربة يمكن أن تكون مزدوجة(2)، وبكلمات أخرى، لقد اعتقد أنه من الممكن لأي شخص إدراك الظواهر المادية من دون أن يؤثر عليها، فبقبول الفكرة المسيحية الأرثوذكسية، اتفق المفكرون الحديثون على أن الإدراك هو مثل ذلك لا يؤثر على التصورات المادية.



توضح هذه اللوحة الخشبية فكرة نأي البشرية وابتعادها عن الكون. وتقترح الصورة هنا ان الناس انتقلوا من العالم السحري ذي القوى المتجسدة، إلى عالم مختلف، عالم الي يعمل مثل ساعة كبيرة، وبات عمل الكون معزواً ليس إلى تدخل فوق طبيعي أو سحري بل إلى قوانين نيوتن في الجاذبية والحركة.

وتبنى رجال العلم والفلاسفة أيضاً مفهوم المراتب اللاهوتية المتسلسلة، وطبقوها على عملهم، وقد تطلب نظام المراتب اللاهوتية المتسلسلة، أن تكون جميع العناصر منفصلة عن بعضها بعضاً، ومرتبة وفقاً لتفوقها أو تدنيها. وتم التركيز على الفوارق بين العناصر أكثر من التركيز على علاقة تفوقها، وارتباطها بالجميع، ومثل هذا ركز رجال العلم على الانفصال، والانعزال والتحليل بإنشاء المزيد من العناصر الأصغر، ومنح القليل من الانتباه إلى العلاقة الرابطة للعنصر بالعناصر الأولية المحيطة به أو بالمحيط العام.



السير إسحق نيوتن، قدمت قوانينه في الجاذبية والحركة تغطيه للاعتقاد الأرثوذكسي المسيحي بأن الرب لم يعد يعمل معجزات أو يتدخل في العالم المادي.

ورددت الفلسفة الحديثة أصداء الفكرة نفسها، مع الاعتقاد بأن الحقيقة تصدر عن - وعما - كان قد تسبب بعدم الأهمية. ركزت على الأحداث العشوائية أكثر من تركيزها على من أين، وبوساطة أي شأن أكبر جاءت الإدراكات المقصودة، وكان ديسكارت هو الذي ابتكر هذا الاعتقاد بعبارته والمشهورة: Cogito ergo sum أي: «أنا أفكر ولذلك إنني أنا»، فعمل التفكير الأصغر، والأقل أهمية يقود إلى الأكبر.

وإلى حقيقة الوجود الأعظم أهمية، وفي الوقت الذي ما يزال فيه الكثيرون يؤمنون أن الله قد خلق بالأصل العالم، يرى معظم الناس الآن بأن الحقيقة يمكن أن توجد، ليس بوساطة التركيز - أو محاولة - فهم خطة الرب أو نيته، بل بفهم الأجزاء الآلية، المنفصلة، في العالم.

ووجد الاعتقاد بضرورة التحكم والصراع، وكذلك بغياب التدخل اللاهوتي، وجد تسويغاً جديداً في نظرية شارل داروين حول الارتقاء، ومثلما ألحت المسيحية الأرثوذكسية، خاصة أثناء الإصلاح الكنسي على نبل الصراع، وعلى إثم السحر، وعلى المساعدة المتفوقة، صور داروين العالم الطبيعي بمثابة مكان حيث الصراع والتباري هي سمة كل جانب من جوانب «معركة الحياة الكبيرة والمعقدة»، والصراع بالنسبة لداروين، كان ضرورياً للحفاظ على النظام الطبيعي، وللحيلولة دون أي انفجار مأوساوي يصيب أيٍّ من الناس.

وفي الوقت الذي أصر فيه المسيحيون الأرثوذكس على أن التحكم والصراع كانا ضرورين لدعم وتماسك المراتب اللاهوتية المتسلسلة، آمن داروين أن الصفات نفسها ضرورية للحفاظ على المراتب اللاهوتية المتسلسلة للطبيعة، حيث قال:

«إن الإنسان مثله مثل أي حيوان آخر، تقدم - بلا شك - إلى وضعه الرفيع الحالي، من خلال الصراع من أجل الوجود، وذلك نتيجة لمضاعفته السريعة، وإذا كان سوف يصعد متقدماً أكثر، يخشى أنه لابد أن يبقى خاضعاً لخدمة الصراع، وإلاّ فإنه سوف يغرق في الكسل والعطالة والناس الموهوبون أكثر من سواهم سوف لن يكونوا أكثر نجاحاً في معركة الحياة من الذين هم أقل موهبة»[3].

ورأى كل من المسيحيين الأرثوذكس، والمفكرين الحديثيين أن المراتب اللاهوتية المتسلسلة هي ضرورية، سواء أقامت تلك المراتب اللاهوتية المتسلسلة بالتفريق بين الكائنات البشرية بالنسبة لقربها من الرب، أو تبعاً لقدرتها على البقاء، وقدمت نظريات داروين عقلانية جديدة لإخضاع الناس، تبعاً لجنسهم أو كونهم ذكوراً أو نساء، فمن المعتقد أنهم أصبحوا الآن أضعف «طبيعياً».



السير شارل داروين: لقد وجد الاعتقاد الأرثوذكسي المسيحي بضرورة وجود التسلسل الطبقي، والتحكم والصراع، تسويغاً جديداً في أعمال داروين.

وعلى الرغم من التشابه، غالباً ما فكرت المسيحية الأرثوذكسية بمعارضة العلم الحديث، والتفكير واستمرت الكنيسة الكاثوليكية في سلوكها التقليدي بإعاقة الأعمال العلمية بالتنكيل بغاليلو Galilo من خلال محاكم التفتيش، وبالمعارضة الكبيرة لعمل نيوتن[*]، وفي الحقيقة هناك فوارق عقائدية بين المسيحيين الأرثوذكس، والمفكرين الحديثين، فالمفكرون الحديثون - على سبيل المثال - نفوا فكرة أن الشيطان قد مارس نفوذاً متفوقاً، في حين أصر الأرثوذكس بحرارة كبيرة عليها، ولم تختلف نظرية داروين حول الارتقاء عن المفهوم المسيحي حول الخليقة، ومع ذلك فإن فذلكة التفكير الحديث، بأن العالم يعمل من دون تدخل لاهوتي، أو سحر، كانت واحدة من المسائل التي قام كل من الكاثوليك والبروتستانت بتأيدها بشدة متناهية.

حتى شارل داروين نفسه لم يعتقد بأن عمله يعارض عقائد المسيحية الأرثوذكسية، ومن المؤكد أن مسيحيي الإصلاح الكنسي سيتفقون على أن الأعمال الحقيقية للمادة «لا تتم بوساطة عمل إعجازي للخليقة»، بل بالحري تتم خلال الصراع والتباري[4]، وقد كتب داروين في «أصل الأنواع»: «إنني لا أرى وجود سبب جيد لماذا هذه الآراء المقدمة في هذا المجلد سوف تسبب صدمة للمشاعر الدينية لأي واحد»، وقد وصف كيف أن رجلاً دينياً:

«. . قد تعلم ليرى أنه مفهوم صحيح ونبيل عن الرب، أن تؤمن أنه خلق عدداً قليلاً من الأشكال الأصيلة، القادرة على التطور الذاتي إلى أشكال أخرى ومحتاجة، مثل أن تعتقد أنه يطلب عملاً جديداً للخلق لتزويد الفراغ الذي تسبب بعمل قوانينه»[5].

ويؤيد التفكير الحديث المفاهيم الأرثوذكسية المسيحية، أكثر بكثير من معارضته لها.

(*) في الوقت الذي تحدَّتْ فيه نظرية غاليلو حول مركزية الشمس، نظرية الكنيسة بأن الشمس تدور حول الأرض، وتحدى عمل نيوتن الأسس من أجل السلطة الكاثوليكية، ووضع إصراره حول إمكانية تجارب مختلف أنواع الظواهر المادية، موضع الشك والتساؤل قاعدة الكنيسة من أجل إدعاء السلطة، فقد رست سلطة الكنيسة الكاثوليكية على الخلافة الرسولية، وعلى فكرة أن الحقيقة الصادقة قد نشرت مرة واحدة فقط، خلال الحادثة الوحيدة، عندما قام يسوع في الجسد والعظم، وبناء عليه يمكن الوصول إلى الحقيقة من خلال خلافة الرسل، الذين شهدوا القيامة.

وعلى كل حال، إنه في الوقت الذي اعتقد فيه داروين بأن عمله لا يعارض فكرة وجود رب قدير، فإن نظرياته قد استخدمت من قبل آخرين، لإنكار حتى وجود خالق بعيد جداً، وقام الإلحاد، بكل بساطة، بتوسيع نشر الفكرة المسيحية بأن الرب بعيد، وقد أقصي عن العالم المادي، وما أن قبل الناس هذا، حتى لم يعد من الصعب الاعتقاد بأن الرب غير موجود على الإطلاق، ونمت بذور الإلحاد أيضاً بين أوساط الناس، أيضاً كردة فعل ضد وحشية مطاردات السحرة، وبدأ الناس يحاججون بأن الدين لم يضمن المشاعر الأخلاقية، وأن غياب الاعتقاد الديني لم يقد إلى الانحطاط الأخلاقي، والتجرد من الأخلاق، وفي أواخر القرن السابع عشر أكد «المعجم التاريخي والنقدي» - على سبيل المثال - بأن «الإلحاد لا يقود بالضرورة إلى فساد الأخلاق»[6].

وهدد الإلحاد على كل حال أساسات الخوف القائم على النظام الاجتماعي، ومع أن الرب قد أقصي إلى موقع ومكان أكثر بعداً في السموات، بقي اعتقاد الخوف من عقوبته يضغط مؤثراً على الأخلاق الفردية، فكثير من الناس يعتقدون أن النظام القضائي يعتمد على الخوف، ففي كتابه «إعاقة العدالة بالدين»، رأى فرانك سوانكارا Frank Swancara أن:

«.. القضاة الذين صاغوا القانون العام، قد اعتقدوا أن الإنسان الذي لا يؤمن، ولا يخاف من العقوبة الربانية بعد الموت، لا يمكن الوثوق به كشاهد في المحكمة القانونية»[7].

وقد وجد معظم المفكرين في عصر التنوير أن الإلحاد مهدد مثلما وجده المسيحيون الأرثوذكس، وتساءل فولتير Voltaire قائلاً:

«ما هو الضابط، الذي بعد كل شيء، يمكن فرضه على الجشع، وعلى الجرائم وأعمال العدوان التي اقترفت من دون قصاص، سوى فكرة وجود سيد سرمدي، عيناه علينا، هو الذي سوف يحكم حتى على أفكارنا الخاصة»[8].

وكتب جون لوك Jhon Locke يقول:

«إن الذين لا يجوز التساهل معهم هم الذين ينكرون وجود الرب، حيث لا يمكن للوعود، ولا للعهود والمواثيق والأيمان، التي تربط المجتمع الإنساني، أن يكون لها أية تأثير كابح على الملحد»[9].

وفي الوقت الذي ما يزال فيه كل من المسيحيين الأرثوذكس، والمفكرين الحديثين على استعداد للتخلي عن الإيمان بالسحر وبالمعجزات، هم ما برحوا يعتمدون على الإيمان بوجود عقوبة ربانية مرعبة.

وغالباً ما صادق التفكير الحديث على العقائد المسيحية، فقد أيد مفهوم أن العالم يعمل مثل آلة، أو ساعة رأي القديس أوغسطين وقناعته بأن الكائن البشري لا يمتلك حرية الإرادة، وكتب غاري زوكاف Gary Zukav: في كتابه «رقص سادة وولي Wuli» يقول:

«إذا كان علينا قبول التدبير الآلي حسب فيزياء نيوتن - بأن العالم هو في الحقيقة آلة كبيرة - بناء على ذلك إنه من اللحظة التي خلق فيها العالم وأقلع بالحركة، فإن كل شيء كان قد وقع، كان مقرراً من قبل.

ووفقاً لهذه الفلسفة، يمكن أن يبدو بأننا امتلكنا الإرادة الخاصة بنا والقدرة على تغيير مجرى الأحداث في حياتنا، لكننا لا نفعل ذلك، فكل شيء منذ بداية الزمان قد جرى تقريره، بما في ذلك توهمنا أننا نمتلك حرية الإرادة، فالعالم هو شريط جرى تسجيله من قبل، وهو يشغل نفسه في الطريق الوحيد الذي يمكنه، ووضع الناس هو أكثر بكثير كآبة مما كان عليه قبل مجيء العالم، فالآلة الكبيرة تركض متحركة بشكل أعمى، وكل شيء فيها هم ليسوا سوى أجزاء صغيرة»[10].

وسواء بسبب وجود التقدير المتقدم، أو بسبب تدني وضع الإنسانية في داخل مراتب التسلسل اللاهوتي، فإن الناس استمروا يعتقدون بأن الفرد يمتلك قليلاً من القوة الموروثة أو الإرادة الحرة.

وتبنى العلم المعاصر الأفكار نفسها، وشجع المسيحيين على معالجة المحيط الطبيعي بمثابة مملكة فارغة من القداسة، ووصف فيريتجوف كابرا Fritjof Capra كيف أن الإنقسام بين العقل والموضوع:

«. . قد سمح لرجال العلم بمعالجة الموضوع وكأنه ميت، ومنفصل تماماً عنهم أنفسهم، وأن ينظر إلى العالم وكأنه حشد هائل من الأشياء المختلفة قد تجمعت في آلة عملاقة . . ومنذ النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر قامت الآلية . . بصياغة العالم، وتحكمت بجميع التفكير العلمي، وصارت متناظرة مع صورة الرب الوحيد الذي حكم من الأعلى بفرض قانونه اللاهوتي عليه»[11].

وبالتبشير والقول بوجود انشطار بين المملكتين الأرضية والسماوية، أو بين العقل والموضوع، سلخ كل من المسيحيين والمفكرين الحديثين أنفسهم عن العالم المادي.

وكثير من المفاهيم والأفكار التي كانت متأصلة في اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي، ووجدت قبولاً وتصديقاً بين المفكرين الحديثين، هي الآن في مطلع القرن الحادي والعشرين، قد تبرهن أنها ذات صحة علمية محدودة، وأظهرت الاكتشافات العلمية، وبشكل خاص جداً في «ميكانيكا الكم»، أن الفيزياء الكلاسيكية ذات قدرة محدودة جداً، في شرح عمل العالم، فالمبادئ والقوانين التي ظهر أنها تحكم الميكانيكيا، وتقرر آلية العالم، لا تنطبق بكل بساطة على الجسيمات الدون ذرية، فقد رفضت الجسيمات الدون ذرية المحاولات لتثبيتها تماماً داخل الوقت والمكان، وبين الفيزيائي ستيفن هوكنغ Stephen Haw King أن هذه الظاهرة تدعى المبدأ غير المؤكد، وقال:

«.. إنها تشير إلى نهاية لحلم نظرية العلم، وإلى نمط من العالم سوف يكون متحكماً به تماماً: والإنسان لا يستطيع توقع الأحداث المستقبلية تماماً، إذا كان المرء لا يستطيع حتى أن يقيس الحالة الحاضرة للعالم بدقة تامة»[12].

والاعتقاد بأن العالم يعمل بناء على قوانين منطقية ومحددة، هو الآن موضع تساؤل وشك، ففي الوقت الذي اعتقد فيه نيوتن ذلك، إن إعطاء ما يكفي من المعلومات، تجعل الإنسان يقرر تماماً نتيجة الحادثة، فقد أظهرت ميكانيكيا الكم أنه في أحسن الأحوال يستطيع المرء أن يعرف فقط إمكانية واحتمالات أية محصلة[13]، ووصف غاري زوكاف ما بات يعرف باسم تفسير كوبنهاغن بقوله:

«.. أرغم العلماء لدى محاولتهم لصياغة فيزيا مثابرة مستمرة، أرغموا بوساطة ما وجدوه هم أنفسهم على الاعتراف أن فهماً كاملاً للحقيقة موجود فوق قدرات التفكير العقلاني»[14].

وتحدى العلم المعاصر أيضاً الاعتقاد بأن الموضوع المادي هو تماماً بلا حياة، وغير حساس، ودائم في أعمال تقصّيهم واكتشافهم لأعمال الأمواج، ولقد أوجد العلماء حقيقة فيزيائية مادية لكل من «مؤيدي الفكرة»، و«مؤيدي الموضوع»[15]، والانقسام بين العقل والموضوع الذي أيد الفصل المسيحي بين السماء والأرض، ليس

صحيحاً علمياً، فالعالم المادي ليس مؤلفاً من جامد وصلب، وموضوع ليس بذي حياة، كما كان يعتقد في الفيزياء الكلاسيكية، وقد كتب الفيزيائي هنري ستاب Henry Stapp يقول:

«إذا كانت توجهات ميكانيكيا الكم صحيحة.. عندها ليس هناك عالم مادي من دون حياة، حسبما هو المعنى الرائج للاصطلاح، والمحصلة هنا ليست المحصلة الضعيفة، أي أنه من الممكن ليس هناك عالم مادي من دون حياة، بل بالحري ليس بالتحديد هناك عالم مادي من دون حياة»[16].

وكتب فيزيائي آخر هو إ. هـ ووكر E.H. Walker، يقول:

«من الممكن للإدراك أن يتعايش مع جميع إجراءات ميكانيكيا الكم.. مادام كل شيء يقع هو بالنهاية نتيجة إحدى - أو أكثر - حوادث ميكانيكيا الكم، فالعالم بالحري مسكون بعدد لا يحصى تقريباً من المدركات المنفصلة، هي بالعادة وحدات لا يظن أنها مسؤولة عن العمل التفصيلي للكون»[17].

ويتعارض مثل هذا الاكتشاف مع الاعتقاد بالفصل بين العقل والموضوع.

وبات كل من الانفصال بين العقل والموضوع، وأن الأرض خالية من الإدراك موضع تساؤل أيضاً من قبل نظرية الغايا Gaia الأكثر حداثة، والتي جرى عرضها بشكل رئيسي من قبل لوفلوك Lovelock، وتقترح الغايا أن الأرض من الممكن أن تكون ذات نظام تحكم ذاتي، وتوضح مثل هذه النظرية وتشرح الاستمرارية النسبية لمناخ الأرض، والكميات المدهشة المعتدلة للملح في المحيطات، والمستوى الثابت للأوكسجين، وتسمح هذه كلها للحياة بالنمو والازدهار[18]، ولربما إنه ليس بالصدفة، أو أنه نتيجة حظ عشوائي غير مدبر، أن الأرض حافظت على محيط قادر على دعم الحياة، وبالحري إنَّ نشاط الأرض من الممكن أن يكون نتيجة سلوك تحكم ذاتي، مما يقترح وجود إدراك.

وبلغ الحال الآن إلى درجة أنه حتى الوسائل الكلاسيكية في تأكيد الحقيقة، تعدّ الآن مخطئة وغير صائبة، واعتقد نيوتن أنه بما أن التجارب المتعلقة بالموضوع الفيزيائي تشرك ممارسات غير حية، تفتقر إلى الإدراك، فإن جميع المحصلات من مثل هذه التجارب ينبغي أن تكون متكررة، فالشخص الذي يمارس التجربة، يمكنه أن يعمل بمثابة مراقب غير متحيز، دون أن يكون له أي تأثير على الموضوع المادي،

وإمكانية مثل هذا المراقب غير المتحيز، هي الآن - على كل حال - لم تعد كما يبدو ممكنة، فقد أظهرت ميكانيكيا الكم أن العمل البسيط للمراقبة له تأثير ضاغط على الموضوع المراقب، وقد كتب الفيزيائي جون ويلر John Wheeler يقول:

«هل من الممكن أن الكون جاء إلى الوجود، بموجب بعض المشاعر الغريبة، وبمشاركة الذين شاركوا؟ والمشاركة هي بلا جدال المفهوم الجديد الذي أعطته ميكانيكا الكم، فقد حطمت اصطلاح «مراقب» في النظرية الكلاسيكية، فالإنسان هو الذي يقف آمناً خلف جدار زجاجي سميك يراقب الذي يحدث دون أن يشارك في ذلك، وتقول ميكانيكيا الكم، ذلك لا يمكن أن يعمل»[19].

وتبرهن الاكتشافات العلمية الأكثر حداثة أن مفهوم النيوتونية، والكارتيسية Cartesian حول ميكانيكية الكون، التي تطورت صدوراً عن الاعتقاد بأن الرب لم يعد ساكناً في العالم، أنها ذات صحة محدودة.

والمذهب العلمي الحديث، الذي يلح على الفحص بدقة، وعلى تحليل حتى أصغر العناصر، ويردد أصداء المحاولة المسيحية لعزل مراتب تسلسل العناصر، قد أعيد تقديره، ويقترح العلم الحديث أن الحقيقة يمكن أن يعثر عليها بشكل أفضل، ليس بمجرد التركيز على انفصال وانعزال العناصر، بل أيضاً بوساطة فهم العلاقة الداخلية لمثل هذه العناصر في داخل نظام أوسع، و«الأجزاء» كما أوضح العالم الفيزيائي ديفيد بوهم David Bohm:

«.. ينظر على أنها في حال ارتباط مباشر، فيها تعتمد علاقاتها الديناميكية - بطريقة يتعذر اختزالها - على وضع النمط كله (وفي الواقع على وضع الأنماط الأوسع التي هي فيها موجودة، وتتوسع نهائياً، ومن حيث المبدأ إلى الكون كله)، وبذلك يقاد المرء إلى مفهوم جديد لكل غير مجزأ، قائم على إنكار الفكرة الكلاسيكية بتحليل الكون إلى أجزاء منفصلة، وموجودة بشكل مستقل»[20].

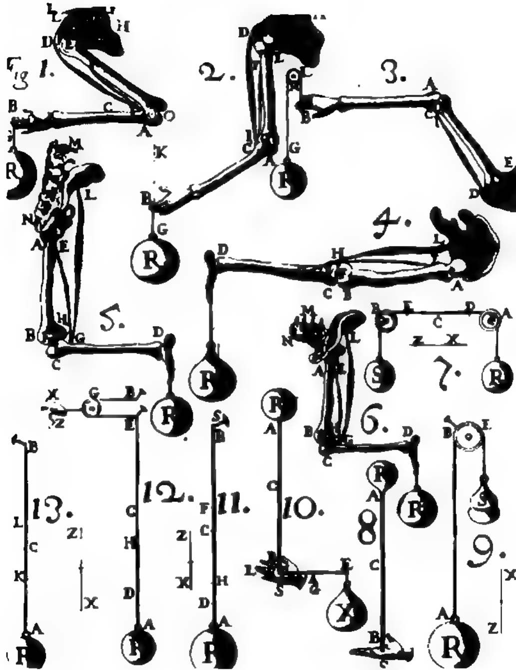
وفهم علاقة الموضوع بجهاز النمط كله يمكن أن تظهر المزيد من الحقيقة، أكثر من القيام بتحليل العناصر المنعزلة لذلك الموضوع، ويمكن لفهم كيف تعمل العناصر مع بعضها، أن يكون أكثر عطاء من ترتيب هذه العناصر وفق درجات متسلسلة.

ويمكن أيضاً لإصرار الأرثوذكس على القيمة المستمرة للصراع، التي يمكن أن تجد تسويغاً متجدداً في أفكار داروين، ويمكن أيضاً أن تجيز إعادة التقدير، ويمكن

لنظرية الغايا، التي تفترض أن الأرض يمكن أن تكون ذات نظام إدارة ذاتية، وتقترح أن التنظيم الحيوي يشكل أسساً حيوية متعايشة، من أجل تأمين أحوال ذات منافع متبادلة، وهي تقترح أن النظام، والإرتقاء من الممكن حدوثهما، ليس فقط من خلال التحكم، والصراع، والتباري، حسبما تلمح كل من المسيحية الأرثوذكسية، والنظريةُ الداروينية ولكن من خلال التعاون.

والتأثير الفاعل للعقائد المسيحية، والعلم الحديث على الحياة الحديثة هو بلا نهاية، وتبنى الطب الأوربي الحديث رأياً حول الجسم البشري مشابهاً لرأي الفيزيائيين الكلاسيكيين حول الكون، وتوصل الأطباء إلى فهم للجسم البشري على أنه عملية ميكانيكية لعناصر غير حية مع قليل - أو من دون - ارتباط بالإدراك، وكان توماس هوبس Thomas Hobbes مناصر مبكر لتصور الجسم كآلة، وقد كتب في عام 1615م يقول: «لأنه ما هو القلب، سوى أنه نبع، وما هي الأعصاب، سوى الكثير من الخيوط، وما هي الأربطة، سوى الكثير من الدواليب، تعطي الحركة إلى الجسد كله»[21]، ومثلما فهم المسيحيون الأرثوذكس الرب على أنه منفصل عن العالم المادي بناء عليه فهم الطب الغربي عمل الجسم البشري على أنه غير مرتبط لا بالعقل أو بالإدراك، ونظر إلى المرض ببساطة على أنه عجز أو قصور في ميكانيكية الأعضاء، وسببه كله موجود في العالم المادي.

ووفق الطريقة نفسها حاول المسيحيون الأرثوذكس إخضاع العناصر الأدنى في الترتيب المتسلسل، وسعى الأطباء الغربيون إلى السيطرة على الجسم، بدلاً من العمل معه، بوساطة تشجيع مقدرته على مداواة نفسه وشفائها، ومثال على هذه الممارسات موجود في التعامل مع تهديد المرض غير الحي ومعالجته بوساطة المضاد الحيوي، وقد أخضع المضاد الحيوي نظام المناعة الجسدية، ومقدرة الجسد الخاصة على الدفاع عن ذاته ضد المرض، وفي الوقت الذي تبين فيه أن المضادات الحيوية ذات قيمة عالية جداً في معالجة الأمراض المهددة للحياة، فإنَّ الاستخدام المتوالي لها في أحوال أقل خطراً، قد قاد إلى نشوء مجموعة كبيرة جداً من الأمراض، وأنتجت مقاومة جديدة للجراثيم التي لا تستجيب إلى أي نوع معروف من المعالجة، ويدعو الآن كثيرون إلى إعادة النظر في المفهوم الطبي الحديث، من أن الجسد هو أداة ميكانيكية مفرغة من أي ارتباط بالإدراك، وهي أداة من الأفضل إخضاعها.



نشرت هذه اللوحة المحفورة عام 1680، وهي تمثل الجسم البشري وهو يعمل بشكل آلي على شكل وحدات مستقلة تماماً عن المشاعر الإنسانية، ويعكس هذا الفهم الذي جرى تبنيه من قبل الطب الغربي الاعتقاد الأرثوذكسي المسيحي بأن الرب بات مبعداً عن العالم المادي.

وأثرت العقيدة المسيحية الأرثوذكسية على التجارة الحديثة وعلى الصناعة، ففي تقليد ومحاكاة مراتب التسلسل الكهنوتي، بنيت الأعمال على أساس إيداع السلطة وتحويلها إلى سلطة فردية على رأس التنظيم، ونظر إلى الاعتقاد أن الخوف، والتحكم، والتنافس الضروري جداً للحفاظ على مراتب التسلسل اللاهوتي، أنه سمة ضرورية للعمل، ومثلما كان الاعتقاد أن الاتساق ينتج وحدة، مثل ذلك أعطى رجال الأعمال القيمة إلى التكيف والانسجام، وتشكيل أنفسهم من أناس من عرق واحد، وجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) متشابه وعقيدة متماثلة.

وحديثاً أكثر، وجد - على كل حال - عدد من الشركات بناء أفضل وعقيدة أحسن، لتكون أكثر ربْحاً، وذلك في أعمال جرى فيها تقدير العاملين وتثمينهم، ومنحوا سلطات مع الملاك، ومسؤوليات غالباً ما عملت في سبيل إنتاج أكبر من إنتاج الذين التزموا بدقة بنمط المراتب المتسلسلة فالتعاون في كل من داخل الشركة، وكذلك أيضاً مع مورديها الخارجين، قد تبرهن أنه أكثر من التنافس الذي كان صاحب قدر كبير من قبل، وبالإضافة إلى ذلك يعيد بعضهم النظر في الاتساق والتماثل في مكان العمل، ففي محيط يمتلك فيه الناس عدم تماثل منظوري، وطرقاً متنوعة ومختلفة لحل المشاكل، هو محيط فيه إمكانات أفضل لإيجاد حلول خلاقة، من المحيط الذي فيه يفكر كل واحد بالطريقة نفسها.

وبصرف النظر عن تأثير العلم، نجد أن الفلسفة، والطب، والعمل، والمسيحية الأرثوذكسية كان لها تأثير هائل، على البناء الاجتماعي الحديث، والحكومة، فالاعتقاد بتفوق فردي، وبالمراتب المتسلسلة، والطبيعة الإنسانية المتأصلة بالذنوب، قد أعاقت الجهود لإيجاد مجتمعات تعددية، تقدر عالياً الإدارة الذاتية للفرد، فالقدرة والسلطة في داخل مثل هذا البناء العقائدي، ينبغي أن تنزل من الذروة الفردية، لا أن ترتفع من جذور تعددية، وأي شيء يمكن أن يقوي الفردية، يستطيع في النهاية أن يتحدى مثل هذا البناء السلطوي.

ولم يكن على سبيل المثال - على الإطلاق في نية قادة المتطهرين في إنكلترا الجديدة تأسيس حكومة تمثل آراء الناس ورغباتهم[22]، وقد كتب المتطهر جون كوتون John Cotton يقول: «أنا لا أتصور أن الديموقراطية قد أمر الرب بها لتكون حكومة موائمة لكل من الكنيسة أو للصالح العام، وإذا كان أفراد الشعب هم

الحكام، فمن الذي سوف يحكمون؟»[23]، وكما كتب المؤرخان يوسف غير Caer، وبن سيغيل Siegel يقولان:

«استنبط المتطهرون اعتقاد أن العمل الرئيسي للحكومة هو: ضبط فساد الإنسان، كما ينبغي إطاعة قادتها المعينين إلهياً من دون سؤال أو اعتراض، وأن مصالح الدولة وازدهارها أهم بكثير من الأفراد»[24].

وكانت المبادئ الديموقراطية، التي تأسست في الولايات المتحدة، قد خلقت على الرغم من المسيحية الأرثوذكسية، وليس بسببها، بحكم أن المعاهدة التي كتبت خلال إدارة جورج واشنطن، وجرى التصديق عليها من قبل مجلس شيوخ الولايات المتحدة في عام 1797م، قد بينت أن «حكومة الولايات المتحدة، ليست بأي معنى من المعاني، قد تأسست على الديانة المسيحية»[25].

وباستمرار عارض المسيحيون الأرثوذكس الحرية الدينية في أمريكا، وقد عبر المتطهر جون نورتون John Norton عن رأي الأرثوذكس في حرية العبادة بأنها مثل «حرية الكفر، والحرية لتضليل الآخرين عن الرب الحقيقي، والحرية لقول الكذب باسم الرب»، وعندما أجاز فيرمونت Vermont مرسوماً أباح فيه الحرية الدينية، رددت مجلة دارتماوث Dartmouth Gazette (18 تشرين الثاني 1807) أصداء مشاعر الأرثوذكس، الذين دعوا المرسوم ووصفوه بأنه مثل صارخ «على الخبث المميت، والألم الرهيب، ونتائجه اللعينة لابد أن تفضي إلى هدم روح الديموقراطية»[26]، وفي أثناء ذلك بَذَلَ كل من توماس جيفرسون Thomas Jefferson وجيمس ماديسون James Madison جهودهما لفصل الكنيسة، أشار ماديسون إلى التاريخ، وحاجج أنه في كل مرة قامت فيها «مؤسسات كنسية» بتشكيل مجتمع مدني قاموا بتأييد الدكتاتورية، ولم يقوموا قط بحماية حريات الشعب[27].

ولم تبذل التنظيمات الكاثوليكية جهوداً أكبر من جهود البروتستانت لتأييد الحرية الفردية، والديموقراطية، وحين قاومت الكنيسة الكاثوليكية الماغنا كارتا Magnacarta في القرن الثالث عشر، ثم أسست سابقة الدول الاستبدادية المطلقة مع محاكم التفتيش، وبعد ذلك رفضها الاعتراض على محاولة النازية إبادة اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية[29]، حين قامت بهذا كله صارت بطلة الفاشية ونصيرتها، والمعارضة للديموقراطية والحرية، وذلك حسبما كتب في القرن التاسع عشر البابا غريغوري السادس عشر يقول:



في الوقت الذي شعر فيه بعض الأمريكيين بالتهديد الصادر عن الكنيسة الكاثوليكية لمبادئ دستورهم (كما هو واضح في المنحوتة هذه التي تاريخها هو عام 1855) قليلون جداً هم الذين كانوا على دراية بالتهديد المماثل الذي صدر عن فروع البروتستانتية في تزييف الدستور وقانون الحريات ومن ثم قيام الآباء المؤسسين للولايات المتحدة برفض عقيدة المسيحية الأرثوذكسية، وذلك حسب القرار الذي صدق عليه مجلس الشيوخ الأمريكي في 1797م وجاء فيه: «إن حكومة الولايات المتحدة ليست قائمة بأي حال من الأحوال على الديانة المسيحية».

«إنه ليس بحال من الأحوال شرعياً، لأن تطالب، أو أن تدافع، أو أن تمنح الحرية غير مشروطة للتفكير، أو للتعبير، أو للكتابة، أو للديانة، وكأنهم بين حريات كثيرة، قد منحتها الطبيعة إلى الإنسان»[30].

وبنظر الأرثوذكس ينبغي ممارسة القوة والسلطة فقط من قبل الذين على رأس المراتب اللاهوتية المتسلسلة.

وقدمت المسيحية الأرثوذكسية الأسس العقائدية للعلم الحديث والمجتمع، وذلك منذ أن قبل الناس فكرة أن الرب موجود في السموات وليس على الأرض، وأنه ليس هناك تدخل غير اعتيادي أو سحر، بدأ العلماء والفلاسفة يؤكدون صحة وجود مثل هذا العالم، وهم أيضاً أيدوا الاعتقاد المسيحي الأرثوذكسي بضرورة الصراع والتحكم، وباتت هذه العقائد والمفاهيم الآن - على كل حال - موضع شك وتساؤل، ليس فقط بسبب ممارساتها الارتدادية إلى الوراء، بل أيضاً بسبب محدودية صحتِها العلمية.

الفصل الحادي عشر

خاتمة

كان الجانب المظلم في التاريخ المسيحي موجوداً، ومازال مستمراً بموجب التحكم، والإشراف على الروحانية، والحرية الإنسانية، وقد شيدت المسيحية الأرثوذكسية بناء، لم يشجع - منذ بدايته - الحرية، والإدارة الذاتية، بل الطاعة والخضوع، وللوصول إلى هذه الغاية، كانت أية وسيلة من الوسائل مسوغة، وأوجدت المسيحية الأرثوذكسية، وهي متمكنة من الاعتقاد برب واحد، مستبد بسلطته، وعقوبته، أوجدت كنيسة طلبت سلطة فردية، وعاقبت الذين رفضوا الطاعة.

وتهاوت الحضارة وسقطت، خلال العصور الوسطى، عندما تولت الكنيسة الإشراف على التعليم، والعلم، والطب، والتقنية، والفنون، وزحف الصليبيون في الشرق الأوسط يقتلون، ويدمرون باسم الرب المسيحي الواحد، وأسست محاكم التفتيش سابقة في العصور الوسطى من أجل الأعمال البوليسية المنظمة ولتعذيب المجتمع والتنكيل به، وأشعلت البروتستانتية والإصلاحية الكنسية الكاثوليكية المضادة، الحروب، حيث ذبح المسيحيون مسيحيين آخرين، وكان كل فريق منهم يعتقد أن طريقه هو الطريق الصحيح والوحيد، وسبرت محارق مطاردة السحرة أعماق الرعب، عندما استأصلت أعداداً لا تحصى من النساء والرجال، وكذلك أيضاً الإيمان بأن الأرض مؤسسة على الربانية، وفي عام 1785م كتب توماس جيفرسون يقول:

«كانت ملايين من الرجال الأبرياء، والنساء، والأطفال، قد تعرضوا منذ تقديم المسيحية، للحرق، والتعذيب، والتغريم، والسجن، ومع ذلك لم نتقدم ولا إنش واحد نحو الاتساق، فما هي نتائج القسر والإكراه؟ سوى أن تعمل النصف الأول من العالم حمقى، والنصف الآخر منافقين، وأن تؤيد الخطيئة، والخبث عبر الأرض كلها»[1].

ولربما كان التأثير المسيحي على العالم الحديث هو الأكثر إغواء وغدراً، فبإخافة الناس وإرغامهم على الاعتقاد بعدم وجود مساعدة متفوقة في العالم المادي، خلقت المسيحية الأرثوذكسية محيطاً اعتقد فيه الناس أن الكون، قد تقرر من قبل، وأنه آلي، وليس فيه إدراك، وقام الناس الآن عوضاً عن عزو مثل هذا الفهم إلى الاعتقاد الديني. بمنح الثقة إلى العلم على أنه قد تولى بشكل إيجابي البرهنة على مثل هذا العالم، ووصل معظم الناس إلى درجة الاعتقاد بأن الصراع، والتحكم، والإشراف المستبد، ربما لم يكونوا قد قضي بهم إلهياً، ولكنّها سمات طبيعية وضرورية للحياة في مثل هذا الكون اللاشخصي، ومفيد أن نعرف أن العلم الذي أكد فيما مضى المفاهيم المسيحية الأرثوذكسية، هو الآن قد اكتشف محدودية الرأي الآلي حول الكون.

وإن إنكار الجانب المظلم في التاريخ المسيحي يخلد فكرة أن الظلم والوحشية الشنيعة، نتائج ومحصلات لابد منها، لأن الشر أو الوحشية جزء متأصل في الطبيعة البشرية، فلقد كان هناك - خاصة في العصر الحجري الحديث - ثقافة سلمية، وحضارة، عملت - على كل حال - من دون هياكل ظالمة من المراتب اللاهوتية المتسلسلة، ومن المؤكد أنها ليست الطبيعة البشرية هي التي جعلت الناس يؤذون بعضهم بعضاً، فالناس ذوي الثقافات الأكثر دماثة ولطفاً، شاركوا في الطبيعة البشرية نفسها، مثلما نحن في الحضارة الغربية، ومعتقداتنا هي التي تختلف، وقد احترمت الثقافات المعتدلة والأكثر سلاماً كلا من الأوجه الذكرية والأنثوية للرب، وكلا من التمثيل السماني والأرضي للقداسة والربانية، وكان الاعتقاد المحدود في قوة متفوقة واحدة، وبوجه واحد فقط للرب هو الذي جاءت محصلاته في الطغيان والوحشية.

وتجاهل الجانب المظلم في التاريخ المسيحي هو الذي يسمح للعقائد التي تثير الوحشية ويجعلها تمضي من دون تفحص، كما أن الاعتقاد بوجه واحد للرب الذي

يحكم من فوق ذروة المراتب اللاهوتية المتسلسلة، قد تدعم وتمتن بوساطة الخوف الذي كان له نتائج مدمرة، وعلى الناس أن يقرروا باستمرار من هو المتفوق على من، وأصبح كل جانب يفرق بين الناس سواء في الجنس (ذكورة أو أنوثة) أو العرق، أو الاعتقاد، أو التفضيل في التذوق الجنسي، أو الوقع الاقتصادي - السياسي، معياراً، لتقدير مرتبة فرد من الأفراد، على أنها أعلى أو أقل من مرتبة فرد آخر، ويرتبط المعيار الذي يرفع من مرتبة شخص أو يخفضها بإنسانية هذا الشخص، وتقديره لشمولية الجنس، والعرق، وعدم التعصب للفوارق.

وتم تصور الوحدة، والفردية داخل نمط الاعتقاد المسيحي الأرثوذكسي، على أنه صادر عن التشابه والتطابق، وليس عن تعاون وتواؤم الفوارق، وغالباً ما جرى فهم تنوع مجتمع من المجتمعات على أنه عائق أكثر منه مصدر قوة، وساد اعتقاد أن المجتمع الذي يتمتع بالسلام هو المجتمع الذي فيه كل واحد هو الآخر نفسه، وفي داخل مثل هذا النمط من الاعتقاد، الذي فيه نهاية للجنس والعرق، قد أسيء فهمه لأن يعني بكل بساطة تبديل الأدوار، أي عوضاً عن أن يتحكم الرجال بالنساء، تتحكم النساء بالرجال، وعوضاً عن أن يتحكم البيض بالسود، يتحكم السود بالبيض، وليس هناك فهم وتقدير للسلطة المشتركة والتعاون، والتأييد.

وكان للاعتقاد بوجود رب هو سماوي بكل دقة، أو متمركز بالسماء، وأنه منفصل عن الأرض ولا علاقة له بها، عواقب هائلة على معاملة البشرية للمحيط الطبيعي، ومع انتشار المسيحية الأرثوذكسية، بترت وسائط دمج النشاط الإنساني مع دورات المواسم والفصول، وأصبحت أيام العطل والأعياد فقط لإحياء ذكرى حوادث توراتية، وليست طوراً من أطوار العام، وحل مفهوم التوقيت القمري محل التوقيت الدائري، وقد زاد هذا في إبعاد الناس عن طبيعة المدّ والجزر، وعندها أكد العلم الحديث وأجاز المفهوم الأرثوذكسي بأن الأرض تفتقر تماماً للقداسة، وذلك بتصوير العالم المادي على أنه مجرد مملكة آلية، خاوية تماماً من الإدراك.

وعلى كل حال، بما أن اللحظات المظلمة في التاريخ المسيحي قد وقعت، فإنّ إدراكها لا يقود بالضرورة إلى رفض كلي للمسيحية، فلقد كان هناك مسيحيون خلال التاريخ المسيحي قد قاتلوا ضد طغيان العقائد الأرثوذكسية، وسلوكياتها وتصرفاتها، كما كانت هناك أعداد لا تحصى من المسيحيين الذين قدروا عالياً الحب،

والمغفرة، وآثروا ذلك على الخوف والعقوبة، ومثل ذلك الذين شجعوا القدرة الفردية والفهم الذاتي، وفضلوا ذلك على الخضوع والإيمان الأعمى.

ولم يكن الجانب المظلم في التاريخ المسيحي محصلة لا يمكن تجنبها للطبيعة البشرية، بل كان نتيجة البناء العقائدي وليس سواه، والإيمان الأعمى، وبإهمالنا لرعب التاريخ المسيحي نكون قد أهملنا انعام النظر في المسيحية وتضليلنا في عالمنا الحديث، الذي على ما يبدو ومن دون ريب، ومن دون إنعام النظر، سوف تستمر الأنماط والأساسات المدمرة في إبعاد الناس عن الرب، وعن المحيط الطبيعي، وعن بعضهم بعضاً.

ومع ذلك إنه بالفهم، وبالعناية يمكن إيقاف هذه الأنماط المؤذية، ويمكننا أن ندرك أن الجهود لاقناعنا بأن الرب يطلب خوفنا والطاعة العمياء، هي في الحقيقة جهود للتحكم بنا، ولاحتواء روحانيّتنا، ويمكننا أن ندرك أن الإيمان بقوة متفوقة واحدة موجود في جذور الشوفينية، والعنصرية، والدكتاتورية الاستبدادية، ويمكننا الانتقال نحو عالم يقدر التنوع، والحرية، والكرامة الإنسانية، ويمكننا احتضان الأمل، والنضال من أجل تحقيق حلم بأن تكون الإنسانية حرة حتى تعمل بصورة إنسانية.

حواشي التوثيق

Notes

Preface

1. Peggy Polk, "Papal State" (*Chicago Tribune*, June 5, 1995, "Tempo" p. 2.)
2. Ibid., 2.

Chapter One - Seeds of Tyranny

1. Ecclesiastes 12:13.
2. Psalms 128.
3. Luke 12:5.
4. *Tertullianus against Marcion*, Book I, Ch. XXVII. *Ante-Nicene Christian Library* (Edinburgh: T&T Clark)
5. Elaine Pagels, *Adam, Eve and the Serpent* (New York: Random House, 1988) 92.
6. *Tertullianus against Marcion*, Book I, Ch. XXVI.
7. Elaine Pagels, *The Gnostic Gospels* (New York: Random House, 1979) 28.
8. Ibid., 35.
9. Ignatius, *Magnesians* VI and *Trallians* III. *Ante-Nicene Christian Library* (Edinburgh: T&T Clark)
10. "Tripartite Tractate" I,5 79.21-32 from *The Nag Hammadi Library*, James M. Robinson, Director (New York: Harper & Row, 1977) 69.
11. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 50.
12. *The Secret Teachings of Jesus*, translated by Marvin W. Meyer (New York: Random House, 1984) 56.
13. *The Excerpta Ex Theodoto of Clement of Alexandria*, translated by Robert Pierce Casey (London: Christophers, 1934) 59.
14. *Irenaeus Against Heresies*, 4.33.3.
15. Ignatius, *Magnesians* VI and *Trallians* III.
16. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 42-43.
17. Ibid., 42.
18. Pagels, *Adam, Eve and the Serpent*, 113-114.
19. I Corinthians 11:8-9.
20. Riane Eisler, *The Chalice and the Blade* (San Francisco: Harper & Row, 1987) 131-132.
21. I Timothy 2:11-13.
22. Riane Eisler, *The Chalice and the Blade*, 132-133.

23. *The Essene Gospel of Peace*, edited and translated by Edmond Bordeaux Szekely (San Diego: Academy of Creative Living, 1971) 7.
24. "On the Origin of the World" II.116.2-8 from *The Nag Hammadi Library*, 172.
25. Tertullian, "On Prescription Against Heretics" Chapter XLI, *Ante-Nicene Fathers; Translations of the Writings of the Fathers down to A.A. 325*, Vol. III (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Publishing Company, 1951) 263.
26. Tertullian, "On the Flesh of Christ" Chapter V, Ibid., 525.
27. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 10 and Hans von Campenhausen *Ecclesiastical Authority and Spiritual Power: In the Church of the First Three Centuries*, Translated by J.A. Baker (Stanford University Press, 1969) 18-24.
28. *Irenaeus Against Heresies*, 4.26.2. Volume I (Buffalo: The Christian Literature Publishing Co., 1885)
29. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 11.
30. Ibid., 11.
31. Mark 16:9, John 20:11-17.
32. John 20:17.
33. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 3-17.
34. *Irenaeus Against Heresies*, 2.27.1-2.
35. Ibid., 2.27.2.
36. Tertullian, "On Prescription Against Heretics" Chapter VII, 246.
37. Ibid., Chapter XIII, 249.
38. Ibid., Chapter XXXVII, 261.
39. Pagels, *The Gnostic Gospels*, xix-xx.
40. *Hippolytus Philosophumena* 6.9, Volume II, Translated by F. Legge (London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1921) 5.
41. "Authoritative Teaching" VI, 3 34.32-35.2 from *The Nag Hammadi Library*, 283.
42. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 126.
43. "The Gospel of Truth" 29.2-6 from *The Nag Hammadi Library*, 43.
44. "The Gospel of Truth" 17.10-15 from *The Nag Hammadi Library*, 40.
45. Matthew 7:7 and Luke 17:21.
46. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 25.
47. Ibid., xxiii.
48. *Irenaeus Against Heresies*, 3.4.1.
49. Ignatius, *Ephesians* V.
50. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 34.

Chapter Two - Political Maneuvering

1. Elaine Pagels, *The Gnostic Gospels* (New York: Random House, 1979) 100.
2. John Holland Smith, *The Death of Classical Paganism*, (New York: Charles Scribner, 1976) 49.
3. *St. Irenaeus, Proof of the Apostolic Preaching*, translated and annotated by Josephy P. Smith (Westminster, Maryland: The Newman Press, 1952) 106.

NOTES

4. Smith, *The Death of Classical Paganism*, 5.
5. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 21.
6. Joel Carmichael, *The Birth of Christianity* (New York: Hippocrene Books, 1989) 170-171.
7. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 104.
8. Ibid., 104.
9. Michael Baigent, Richard Leigh & Henry Lincoln, *Holy Blood, Holy Grail* (New York: Dell, 1982) 364, 318.
10. Barbara Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 467.
11. Ibid., 469.
12. Lloyd M. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible* (New York: Citadel Press, 1975) 445.
13. Ibid., 445.
14. Baigent, Leigh, Lincoln, *Holy Blood, Holy Grail*, 327-329.
15 Ibid., 317-318.
16 Ibid., 317.
17. Riane Eisler, *The Chalice and the Blade* (San Francisco: Harper & Row, 1987) 131.
18. Luke 23:2.
19. Baigent, Leigh, Lincoln, *Holy Blood, Holy Grail*, 326-327.
20. Carmichael, *The Birth of Christianity*, 35, 177, 178.
21. See both *Holy Blood, Holy Grail* and Joel Carmichael's *The Birth of Christianity* for further discussion.
22. Walter Nigg, *The Heretics: Heresy Through the Ages*, Edited and translated by Richard and Clara Winston (New York: Dorset Press, 1962) 127. The quoted material is by E. Schwarz and is taken from the same page of text.
23. *The Secret Teachings of Jesus*, translated by Marvin W. Meyer (New York: Random House, 1984) 56.
24. "The Sophia of Jesus Christ" III,4, from *The Nag Hammadi Library* edited by James M. Robinson (New York: Harper & Row, 1977) 217.
25. Geoffrey Ashe, *The Virgin: Mary's Cult and the Re-emergence of the Goddess* (London: Arkana, 1976, 1988) 206.
26. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 52.
27. Francis X. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs* (New York: Harcourt, Brace & Co., 1952) 257.
28. Robert W. Ackerman, *Backgrounds to Medieval English Literature* (New York: Random House, 1966) 92.
29. Ashe, *The Virgin*, 224-225.
30. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 663.
31. Arthur Cotterell, *Myths and Legends* (New York: MacMillan Publishing Company, 1989) 131.
32. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 663-665.
33. Sir James George Frazer, *The Golden Bough* Vol.1 abridged edition (New York: Collier Books, 1922) 415.

NOTES

34. Ashe, *The Virgin*, 179.
35. Ibid., 8, 125.
36. Ibid., 139, 150-151.
37. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 611.
38. Ashe, *The Virgin*, 129.
39. Ibid., 151.
40. Ibid., 191.
41. Ibid., 192.
42. Ibid., 192-193.
43. Charles Merrill Smith, *The Pearly Gates Syndicate* (New York: DoubleDay, 1971) 27-28.
44. J.N. Hillgarth, *The Conversion of Western Europe* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1969) 49.
45. Ibid., 46.
46. Smith, *The Death of Classical Paganism*, 218.
47. Ibid., 166-167.
48. Hillgarth, *The Conversion of Western Europe*, 44-48.

Chapter Three - Deciding Upon Doctrine

1. Evrett Ferguson, Michael P. McHugh & Frederick W. Norris, *Encyclopedia of Early Christianity* (New York & London: Garland Publishing, 1990) 420.
2. Walter Nigg, *The Heretics: Heresy Through the Ages* (New York: Dorset Press, 1962) 138.
3. Ibid., 138.
4. Elaine Pagels, *Adam, Eve and the Serpent* (New York: Random House, 1988) 107.
5. Saint Augustine, *The City of God*, Book XIV, Ch.4, translated by Marcus Dods (New York: The Modern Library, 1950) 445.
6. Pagels, *Adam, Eve and the Serpent*, 141.
7. Augustine, *The City of God*, Book XIV, Ch. 16, 465.
8. Pagels, *Adam, Eve and the Serpent*, 131-134.
9. Nigg, *The Heretics*, 37.
10. Barbara Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 910.
11. Pagels, *Adam, Eve and the Serpent*, 28.
12. Ibid., 45.
13. Ibid., 107.
14. Augustine, *The City of God*, Book XIV, Ch. 15, 462.
15. Pagels, *Adam, Eve and the Serpent*, 125.
16. Ibid., 129-130, 134.
17. Quincy Howe, Jr., *Reincarnation For The Christian* (Philadelphia: Westminster Press, 1974) 65-72.
18. Ibid., 66.
19. *Reincarnation*, compiled and edited by Joseph Head and S.L. Cranston (New

York: The Julian Press, 1961) 38.

20. Howe, *Reincarnation For The Christian*, 81.

21. Ibid., 67.

22. *The New Columbia Encyclopedia* edited by William H. Harris and Judith S. Levey (New York & London: Columbia University Press, 1975) 782.

23. Nigg, *The Heretics*, 117.

24. Ibid., 116.

25. Lloyd M. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible* (New York: Citadel Press, 1975) 468.

26. Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic* (New York: Charles Scribner's Sons, 1974) 477.

Chapter Four - The Church Takes Over

1. Charles Panati, *Panati's Extraordinary Endings of Practically Everything* (New York: Harper & Row, 1989) 225-228.
2. Ibid., 225.
3. Ibid., 225.
4. Ibid., 264-265.
5. Charles Panati, *Extraordinary Origins of Everyday Things* (New York: Harper & Row, 1987) 201-202.
6. Ibid., 131.
7. Ibid., 328.
8. *The New Columbia Encyclopedia* edited by William H. Harris and Judith S. Levey (New York & London: Columbia University Press, 1975) 2331.
9. Lloyd M. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible* (New York: Citadel Press, 1975) 448.
10. Ibid., 449.
11. Daniel J. Boorstin, *The Discoverers* (New York: Random House, 1983) 573.
12. Ibid., 572.
13. Ibid., 573.
14. Ibid., 573.
15. Riane Eisler, *The Chalice and the Blade* (San Francisco: Harper & Row, 1987) and Merlin Stone, *When God Was a Woman* (New York: Dorset Press, 1976).
16. Boorstin, *The Discoverers*, 573.
17. *The New Columbia Encyclopedia*, 61, and Eisler, *The Chalice and the Blade*.
18. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible*, 444.
19. Jeffrey Burton Russell, *A History of Medieval Christianity* (New York: Thomas Y. Cromwell, 1968) 103.
20. Ibid., 40.
21. Charles Homer Haskins, *The Renaissance of the 12th Century* (Cleveland & New York: Meridian Books, 1927) 96.
22. Barbara G. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 208.

23. Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 95.
24. John H. Smith, *The Death of Classical Paganism* (New York: Charles Scribner's Sons, 1976) 223.
25. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 208.
26. Smith, *The Death of Classical Paganism*, 247.
27. Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 34.
28. Ibid., 43.
29. Boorstin, *The Discoverers*, 581.
30. H. Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade* (New York: E.P.Dutton & Company, Inc., 1957) 273.
31. Ibid., 274.
32. Malachi Martin, *Decline and Fall of the Roman Church* (New York: G.P. Putnam's Sons, 1981) 141.
33. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible*, 464.
34. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 92, and Graham, *Deceptions and Myths of the Bible*, 470.
35. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 92.
36. Ibid., 65.
37. Ibid., 93.
38. Joan O'Grady, *The Prince of Darkness* (Longmead: Element Books, 1989) 62.
39. Smith, *The Death of Classical Paganism*, 229.
40. Ibid., 246.

Chapter Five - The Church Fights Change

1. Jeffrey Burton Russell, *A History of Medieval Christianity* (New York: Thomas Y. Cromwell, 1968) 106.
2. Charles Homer Haskins, *The Renaissance of the 12th Century* (Cleveland & New York: Meridian Books, 1927) 62.
3. Albert Clement Shannon, *The Medieval Inquisition* (Washington D.C.: Augustinian College Press, 1983) 141.
4. Ibid., 141.
5. Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 45.
6. Ibid., 364.
7. Walter Nigg, *The Heretics: Heresy Through the Ages* (New York: Dorset Press, 1962) 169.
8. Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 96.
9. Ibid., 97.
10. Ibid., 55-56.
11. Jacob Burckhardt, *The Civilization of the Renaissance in Italy*, edited by Irene Gordon (New York: Mentor Books, 1960) 336.
12. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 97-98.
13. Barbara W. Tuchman, *A Distant Mirror* (New York: Ballantine Books, 1978) 327.

NOTES

14. Henri Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade* (New York: E.P. Dutton & Company, Inc., 1957) 246.
15. Henry C. Lea, *History of Sacerdotal Celibacy in the Christian Church*, 4th edition revised (London: Watts & Co., 1932) 264, 279.
16. Barbara G. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 438.
17. Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade*, 521.
18. Theodore Nottingham, "The Birth Within: Meister Eckhart and the Knowing of God" *GNOSIS*, No.18 (Winter 1991) 19.
19. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 212.
20. Jeffrey Burton Russell, *Witchcraft in the Middle Ages* (Ithaca & London: Cornell University Press, 1972) 102.
21. Geoffrey Ashe, *The Virgin: Mary's Cult and the Re-emergence of the Goddess* (London: Arkana, 1976, 1988) 219.
22. Ibid., 217.
23. Ibid., 217, 221.
24. Ibid., 154.
25. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 124-126, 150.
26. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 149, and Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 207.
27. Henry Charles Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, Abridgement by Margaret Nicholson (New York: MacMillan, 1961) 24.
28. Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 217-218.
29. Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade*, 240.
30. Ibid., 241.
31. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 165.
32. Ibid., 75.
33. Lloyd M. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible* (New York: Citadel Press, 1975) 470.
34. Ibid., 470.
35. Phillip Schaff, *History of the Christian Church* Vol. V: The Middle Ages (Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans, 1952) 775-6.
36. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 168-169.
37. Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade*, 433-435.
38. Malachi Martin, *Decline and Fall of the Roman Church* (New York: G.P. Putnam's Sons, 1981) 134, and Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade*, 276.
39. James A. Haught, *Holy Horrors* (Buffalo: Prometheus, 1990) 25-26.
40. Martin, *Decline and Fall of the Roman Church*, 134.
41. Haskins, *The Renaissance of the 12th Century*, 280.
42. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 75.
43. Ibid., 64.
44. Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade*, 439-441.
45. G.G. Coulton, *Inquisition and Liberty* (Glouster, MA: Peter Smith, 1969) 165.
46. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 159-160.

NOTES

47. Karen Armstrong, *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (New York: Doubleday, 1988) 387.
48. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 164-165.
49. Luke 19:27.
50. Martin, *Decline and Fall of the Roman Church*, 134.
51. The common belief that the crusaders returned from their exploits with literature and learning is mistaken. To quote Charles H. Haskins, "The Crusaders were men of action, not men of learning, and little can be traced in the way of translations in Palestine or Syria." (*The Renaissance of the 12th Century*, 282.)
52. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible*, 444.
53. For more discussion, see Karen Armstrong, *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World*.
54. Russell, *A History of Medieval Christianity*, 75.
55. Ibid., 156.
56. Ibid., 155.
57. Ibid., 157.
58. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 510.
59. Ibid., 510.
60. Martin, *Decline and Fall of the Roman Church*, 146.
61. Tuchman, *A Distant Mirror*, 321-322.
62. Ibid., 322.
63. *The New Columbia Encyclopedia* edited by William H. Harris and Judith S. Levey (New York & London: Columbia University Press, 1975) 2442.
64. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 59.
65. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 27.
66. Timothy O'Neill, "Century of Marvels, Century of Light" 14-18 and Judith Mann, "The Legend of the Cathars" *GNOSIS*, No.4, 28.
67. Ian Begg, *The Cult of the Black Virgin* (London: Arkana, 1985) 136 and Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 43.
68. Otto Rahn, *Kreuzzug gegen den Gral*, as quoted in Nigg, *The Heretics*, 182-183.
69. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 74.
70. Russell, *Witchcraft in the Middle Ages*, 125.
71. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 46.
72. Ibid., 54.
73. Ibid., 54.
74. Ibid., 57-59.
75. Ibid., 64.
76. John Kimsey, "The Code of Love," *GNOSIS*, No.18 (Winter 1991) 27.
77. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 75.
78. Friedrich Heer, *The Medieval World*, translated by Janet Sondheimer, (New York: NAL, 1961) 214.
79. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 75.

NOTES

Chapter Six - Controlling the Human Spirit

1. Henry Kamen, *Inquisition and Society in Spain* (Bloomington: Indiana University Press, 1985) 161.
2. G.G. Coulton, *Inquisition and Liberty* (Glouster, MA: Peter Smith, 1969) 81.
3. Peter Tompkins, "Symbols of Heresy" in *The Magic of Obelisks* (New York: Harper, 1981) 57.
4. Henry Charles Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, Abridgement by Margaret Nicholson (New York: MacMillan, 1961) 221-222.
5. Henri Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade* (New York: E.P.Dutton & Company, Inc., 1957) 547 and Jeffrey Burton Russell, *Witchcraft in the Middle Ages* (Ithaca & London: Cornell University Press, 1972) 155.
6. Rossell Hope Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology* (New York: Bonanza Books, 1981) 13.
7. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 216.
8. Ibid., 211.
9. Ibid., 214.
10. Ibid., 215.
11. Ibid., 214.
12. Ibid., 177-179.
13. Ibid., 177.
14. Ibid., 174.
15. Ibid., 226-227.
16. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 132.
17. Barbara G. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 439.
18. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 248.
19. Ibid., 226-227.
20. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 271.
21. Ibid., 271.
22. Barbara W. Tuchman, *A Distant Mirror* (New York: Ballantine Books, 1978) 36.
23. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 438.
24. Daniel J. Boorstin, *The Discoverers* (New York: Random House, 1983) 275.
25. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 70.
26. Ibid., 248.
27. Ibid., 232-233.
28. Ibid., 222.
29. Ibid., 224-225.
30. Ibid., 233-236.
31. Walter Nigg, *The Heretics: Heresy Through the Ages* (New York: Dorset Press, 1962) 220.
32. John 15:16.
33. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 443.
34. Lea, *The Inquisition of the Middle Ages*, 252.

NOTES

35. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 154-155.
36. Ibid., 148.
37. Jean Plaidy, *The Spanish Inquisition* (New York: Citadel Press, 1967) 139.
38. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 154-155.
39. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 1007.
40. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 155.
41. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 445.
42. Plaidy, *The Spanish Inquisition*, 138-145.
43. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 169.
44. Kamen, *Inquisition and Society in Spain*, 163.
45. Ibid., 164.
46. John Bossy, *Christianity in the West 1400-1700* (Oxford: Oxford University Press, 1985) 84-85.
47. Jeffrey Burton Russell, *A History of Medieval Christianity* (New York: Thomas Y. Cromwell, 1968) 157.
48. Kamen, *Inquisition and Society in Spain*, 161.
49. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 472.
50. Kamen, *Inquisition and Society in Spain*, 14-29.
51. Hugh A. Mulligan, "Columbus Saga Sinking Fast" (Associated Press, March 8, 1992).
52. Jon Margolis, "War of words over Columbus rages on", *The Sunday Denver Post*, July 28, 1991, p.7.
53. Ibid., 7,20.
54. Cecil Roth, *The Spanish Inquisition* (New York: W. W. Norton & Company, 1964) 210.
55. Plaidy, *The Spanish Inquisition*, 165.
56. Roth, *The Spanish Inquisition*, 221.
57. Jean Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire* (London: Burns and Oats, 1977) 90.
58. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 447.
59. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 79.
60. "Tripartite Tractate" I,5 - 79.21-32 from *The Nag Hammadi Library*, James M. Robinson, Director (New York: Harper & Row, 1977) 69.
61. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 82.
62. Forrest Wood, *The Arrogance of Faith* (New York: Alfred A. Knopf, 1990) 13.
63. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 82.
64. Ibid., 85.
65. Ibid., 85.
66. Leviticus 25:44-46.
67. Ephesians 6:5, I Timothy 6:1, Titus 2:9-10.
68. Daniel-Rops, *Cathedral and Crusade*, 263.
69. Elaine Pagels, *Adam, Eve and the Serpent* (New York: Random House, 1988) 114.
70. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 88.

71. Wood, *The Arrogance of Faith*, 119.
72. Ibid., 127.
73. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 447.

Chapter Seven - The Reformation

1. Lloyd M. Graham, *Deceptions and Myths of the Bible* (New York: Citadel Press, 1975) 461.
2. John Bossy, *Christianity in the West 1400-1700* (Oxford: Oxford University Press, 1985) 97.
3. Ibid., 94, 109.
4. Ibid., 95.
5. Ibid., 28.
6. Jean Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire* (London: Burns and Oats, 1977) 9.
7. Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic* (New York: Charles Scribner's Sons, 1974) 56.
8. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 10.
9. Ibid., 15.
10. *The "Natural Inferiority" of Women* compiled by Tama Starr (New York: Poseidon Press, 1991) 36.
11. *The New Columbia Encyclopedia* edited by William H. Harris and Judith S. Levey (New York & London: Columbia University Press, 1975) 1631.
12. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 86.
13. Walter Nigg, *The Heretics: Heresy Through the Ages* (New York: Dorset Press, 1962) 304-305 and James A. Haught, *Holy Horrors* (Buffalo: Prometheus, 1990) 111.
14. Jean Delumeau, *Sin and Fear*, translated by Eric Nicholson (New York: St. Martins Press, 1990) 536.
15. Brian P. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe* (London: Longman, 1987) 103.
16. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 59-62.
17. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 47, 134, and Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 155.
18. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 117-118.
19. Ibid., 35, 116.
20. Joseph Gaer and Ben Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible* (New York: Mentor Books, 1964) 74-76.
21. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 125, 134.
22. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 161.
23. Ibid., 161.
24. Ibid., 162.
25. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 44.
26. Charles Panati, *Extraordinary Origins of Everyday Things* (New York: Harper & Row, 1987) 202.

NOTES

27. Delumeau, *Sin and Fear*, 437.
28. Ibid., 437.
29. Ibid., 438-439.
30. Heinrich Kramer and James Sprenger, *The Malleus Maleficarum*, Translated by Montague Summers (New York: Dover Publications, 1971) 167.
31. Reay Tannahill, Sex In History (Michigan: Scarborough House, 1992) 161 and Karen Armstrong, *The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West* (New York: Doubleday, 1986) 329.
32. Delumeau, *Sin and Fear*, 438.
33. Ibid., 438.
34. Gaer and Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible*, 87.
35. Ibid., 31.
36. Ibid., 31.
37. Ibid., 88.
38. Ibid., 87.
39. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 43.
40. Delumeau, *Sin and Fear*, 27.
41. Jonathan Edwards, "The Justice of God in the Damnation of Sinners," from *The Works of Jonathan Edwards, A.M.* (London: Henry G. Bohn) 673.
42. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 126.
43. Gaer and Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible*, 118.
44. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 47.
45. Delumeau, *Sin and Fear*, 457.
46. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 278.
47. Ibid., 52, 269-270.
48. Ibid., 278.
49. Ibid., 278.
50. Ibid., 277.
51. Bossy, *Christianity in the West 1400-1700*, 68.
52. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 29, 44.
53. Ibid., 503.
54. Ibid., 53.
55. Ibid., 52.
56. Ibid., 56.
57. Ibid., 57.
58. Delumeau, *Sin and Fear*, 460.
59. Ibid., 461.
60. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 97.
61. Ibid., 97.
62. Ibid., 97.
63. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 471.
64. Joan O'Grady, *The Prince of Darkness* (Longmead: Element Books, 1989) 110.
65. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 476.
66. Ibid., 476.

67. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 173.
68. Delumeau, *Sin and Fear*, 496.
69. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 472.

Chapter Eight - The Witch Hunts

1. Rossell Hope Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology* (New York: Bonanza Books, 1981) 3.
2. I Peter 3:7.
3. *The "Natural Inferiority" of Women* compiled by Tama Starr (New York: Poseidon Press, 1991) 45.
4. Joan Smith, *Misogynies: Reflections on Myths and Malice* (New York: Fawcett Columbine, 1989) 66.
5. *The "Natural Inferiority" of Women*, Starr, 45.
6. Karen Armstrong, *The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West* (New York: Doubleday, 1986) 71.
7. Smith, *Misogynies*, 61.
8. Saint Thomas Aquinas, *Summa Theologica* (New York & London: Blackfriars, McGraw-Hill, Eyre & Spottswoode) Question 92, 35.
9. Armstrong, *The Gospel According to Woman*, 69.
10. Apocrypha, Ecclesiasticus 25:13-26.
11. Walter Nigg, *The Heretics: Heresy Through the Ages* (New York: Dorset Press, 1962) 277.
12. Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic* (New York: Charles Scribner's Sons, 1974) 520.
13. Carol F. Karlsen, *The Devil in the Shape of a Woman* (Vintage Books: New York, 1987) 266.
14. Barbara W. Tuchman, *A Distant Mirror* (New York: Ballantine Books, 1978) 211.
15. Ibid., 211.
16. Joan O'Grady, *The Prince of Darkness* (Longmead: Element Books, 1989) 84.
17. Henry Kamen, *Inquisition and Society in Spain* (Bloomington: Indiana University Press, 1985) 163.
18. Jean Plaidy, *The Spanish Inquisition* (New York: Citadel Press, 1967) 143.
19. Heinrich Kramer and James Sprenger, *The Malleus Maleficarum*, Translated by Montague Summers (New York: Dover Publications, 1971) 121.
20. Ibid., 121.
21. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 568-569.
22. *The Merriam-Webster Dictionary* (New York: Pocket Books, 1974) 215.
23. Julio Caro Baroja, *The World of Witches* (Chicago: University of Chicago Press, 1961) 60-61 and Brian P. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe* (London: Longman, 1987) 45.
24. Jeffrey Burton Russell, *Witchcraft in the Middle Ages* (Ithaca & London: Cornell University Press, 1972) 76-77.
25. O'Grady, *The Prince of Darkness*, 62.

NOTES

26. Baroja, *The World of Witches*, 81.
27. Bengt Ankarloo and Gustav Henningsen, *Early Modern European Witchcraft Centres and Peripheries* (Oxford: Clarendon Press, 1990) 25.
28. Russell, *Witchcraft in the Middle Ages*, 164.
29. Ibid., 134.
30. Margot Adler, *Drawing Down the Moon* (New York: Beacon Press, 1979) 49.
31. Baroja, *The World of Witches*, 149-150.
32. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 43.
33. Nigg, *The Heretics*, 280 and Jean Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire* (London: Burns and Oats, 1977) 174.
34. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 174.
35. Baroja, *The World of Witches*, 165.
36. Ibid., 165.
37. Jeffrey Burton Russell, *A History of Medieval Christianity* (New York: Thomas Y. Cromwell, 1968) 173.
38. Ibid., 173.
39. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 49.
40. Smith, *Misogynies*, 68.
41. Montague Summers, *The History of Witchcraft and Demonology* (New York: New Hyde Park, 1956) 12.
42. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 9.
43. Exodus 22:18.
44. Barbara G. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 1088.
45. Ibid., 1088.
46. Summers, *The History of Witchcraft and Demonology*, 63.
47. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 271.
48. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 1086.
49. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 16.
50. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 110.
51. Nigg, *The Heretics*, 281.
52. Baroja, *The World of Witches*, 168-169.
53. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 502.
54. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 1004.
55. Ibid., 445.
56. Russell, *Witchcraft in the Middle Ages*, 151.
57. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 445-446.
58. Ibid., 445.
59. Ibid., 1004.
60. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 229.
61. Ibid., 4.
62. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 105.
63. Ibid., 59.
64. Ibid., 59.
65. Ibid., 59.

NOTES

66. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 102, and Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 493-495.
67. Shakespeare, *The Tempest*, epilogue, written in 1610-1611.
68. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 149-150.
69. Ibid., 150.
70. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 551, and Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 1008.
71. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 1083.
72. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 4.
73. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 555.
74. Ibid., 554.
75. Ibid., 436.
76. Ibid., 177.
77. Ibid., 265-266.
78. Ibid., 266.
79. Ibid., 266.
80. Ibid., 178.
81. Ibid., 479.
82. Ibid., 265.
83. Ibid., 479.
84. Ibid., 85.
85. Ibid., 264.
86. Ibid., 264.
87. Jeanne Achterberg, *Woman As Healer* (Boston: Shambala, 1991) 105.
88. Ibid., 106.
89. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 14.
90. Ibid., 537.
91. Ibid., 537.
92. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 540.
93. Ibid., 540.
94. John T. Noonan, Jr., *Contraception* (New York and Toronto: The New American Library, 1965) 42.
95. Achterberg, *Woman As Healer*, 92.
96. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 540.
97. Baroja, *The World of Witches*, 125.
98. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 4.
99. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 655.
100. Genesis 3:16.
101. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 656.
102. Ibid., 656.
103. Armstrong, *The Gospel According to Woman*, 69.
104. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 444.
105. Ibid., 444.
106. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 4-5.
107. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 1087.

108. Levack, *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*, 229.
109. Ibid., 229.
110. Ibid., 229.
111. Robbins, *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*, 17.
112. Ibid., 17.

Chapter Nine - Alienation from Nature

1. Colossians 3:5-6.
2. James 3:14-15.
3. Philippians 3:18-19.
4. Genesis 3:17-18.
5. Lewis Regenstein, *Replenish the Earth* (New York: Crossroad, 1991) 72.
6. Ibid., 75.
7. Barry Holstun Lopez, *Of Wolves and Men* (New York: Charles Scribner's Sons, 1978) 238-239.
8. Regenstein, *Replenish the Earth*, 73.
9. Ibid., 74-76.
10. Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic* (New York: Charles Scribner's Sons, 1974) 9.
11. John Holland Smith, *The Death of Classical Paganism*, (New York: Charles Scribner, 1976) 240-241.
12. Ibid., 246.
13. William Anderson, *Green Man* (London and San Francisco: Harpercollins, 1990) 51,52-53,50.
14. Ibid., 52.
15. Ibid., 63.
16. Sir James George Frazer, *The Golden Bough* Vol.1 Abridged Edition (New York: Collier Books, 1922) 416.
17. Francis X. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs* (New York: Harcourt, Brace & Co., 1952) 53.
18. Jeffrey Burton Russell, *Witchcraft in the Middle Ages* (Ithaca & London: Cornell University Press, 1972) 51.
19. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs*, 141.
20. Daniel J. Boorstin, *The Discoverers* (New York: Random House, 1983) 599.
21. Barbara G. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983) 116-118.
22. Frazer, *The Golden Bough*, 419.
23. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs*, 215-216.
24. Ibid., 290.
25. Ibid., 291.
26. Ibid., 278, 309.
27. Barbara G. Walker, *The Woman's Dictionary of Symbols and Sacred Objects* (San Francisco: Harper & Row, 1988) 344-345.
28. Jean Delumeau, *Sin and Fear*, translated by Eric Nicholson (New York: St.

NOTES

Martins Press, 1990) 457.

29. Anderson, *Green Man*, 31.
30. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*, 759.
31. Jean Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire* (London: Burns and Oats, 1977) 177.
32. Walker, *The Woman's Dictionary of Symbols and Sacred Objects*, 176.
33. Joseph Gaer and Ben Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible* (New York: Mentor Books, 1964) 92.
34. Delumeau, *Sin and Fear*, 437.
35. Walker, *The Woman's Dictionary of Symbols and Sacred Objects*, 176.
36. *The "Natural Inferiority" of Women* compiled by Tama Starr (New York: Poseidon Press, 1991) 46.
37. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 197.
38. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 66.
39. Gaer and Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible*, 86.
40. Ibid., 86-87.
41. Ibid., 86.
42. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs*, 64.
43. Ibid., 65.
44. Gaer and Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible*, 85.
45. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs*, 65-66.
46. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 169-197.
47. Ibid., 177.
48. Rupert Sheldrake, *The Rebirth of Nature: The Greening of Science and God* (Park Street Press, Rochester, Vermont, 1991) 40.
49. Ibid., 43.
50. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs*, 35.
51. Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire*, 228.
52. Ibid., 206.
53. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 151.
54. Boorstin, *The Discoverers*, 571.
55. Ibid., 571.
56. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 619-622.
57. Ibid., 621.
58. Ibid., 623.
59. James 1:15.
60. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 38-39.
61. 2 Corinthians 5:6.
62. Romans 8:13.
63. Romans 8:6.
64. Delumeau, *Sin and Fear*, 448.
65. *The Merriam-Webster Dictionary* (New York: Pocket Books, 1974) 118.
66. Saint Augustine, *The City of God* translated by Marcus Dods (New York: The Modern Library, 1950) Book 13, Ch.3, 413.
67. Ibid., Book 13, Ch. 15, 423.

68. 1 Corinthians 15:26.
69. J.H. Strawley, *The Epistles of St. Ignatius, Bishop of Antioch* (London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1900) 92-93.
70. Luke 20:34-36. (Underline added)
71. Delumeau, *Sin and Fear*, 54.
72. Ibid., 54.
73. John Bossy, *Christianity in the West 1400-1700* (Oxford: Oxford University Press, 1985) 26.
74. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 603-604.
75. Ibid., 66.
76. Delumeau, *Sin and Fear*, 39.
77. Gaer and Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible*, 92.
78. Augustine, *The City of God*, Book 13, Ch. 10, 419.
79. Ibid., Book 13, Ch. 4, 415.
80. Ecclesiastes 7:1.
81. Weiser, *Handbook of Christian Feasts and Customs*, 277.
82. Augustine, *The City of God*, Book 13, Ch. 4, 415.
83. Delumeau, *Sin and Fear*, 53.
84. Ibid., 352.
85. Matthew 16:28.
86. Thomas, *Religion and the Decline of Magic*, 142.

Chapter Ten - A World Without God

1. Shakespeare, *All's Well that Ends Well*, Act II, Scene iii.
2. Gary Zukav, *The Dancing Wu Li Masters* (Toronto: Bantam Books, 1979) 21-25.
3. Charles Darwin, *The Descent of Man and Selection in Relation to Sex* Part One, Volume III (New York, P.F. Collier & Son, 1871) 642.
4. Charles Darwin, *The Origin of Species by Means of Natural Selection or the Preservation of Favored Races in the Struggle for Life* Volume II (New York: D. Appleton & Co., 1897) 303.
5. Ibid., 294.
6. Jean Delumeau, *Catholicism Between Luther and Voltaire* (London: Burns and Oats, 1977) 204.
7. Frank Swancara, *Obstruction of Justice By Religion* (Denver: W. H. Courtwright Publishing Co., 1936) 27.
8. Frank E. Manuel, *The Changing of the Gods* (Hanover, NH: University Press of New England, 1983) 66.
9. John Locke, "A Letter Concerning Toleration," 1689 as printed in *The Founders' Constitution*, Volume 5 (Chicago: University of Chicago, 1987) 69.
10. Zukav, *The Dancing Wu Li Masters*, 26.
11. Fritjof Capra, *The Tao of Physics* (Toronto: Bantam Books, 1984) 8.
12. Stephen W. Hawking, *A Brief History of Time* (Toronto: Bantam Books, 1988) 55.

13. Zukav, *The Dancing Wu Li Masters*, 27.
14. Ibid., 38.
15. Ibid., 80-83.
16. Ibid., 82.
17. Ibid., 63.
18. "Gaia: the Veiled Goddess", *The Economist*, December 22, 1990.
19. Zukav, *The Dancing Wu Li Masters*, 29.
20. Ibid., 297.
21. Andrew Kimbrell, "Body wars", *Utne Reader* (May/June 1992) 59.
22. Joseph Gaer and Ben Siegel, *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible* (New York: Mentor Books, 1964) 29.
23. Ibid., 77.
24. Ibid., 78.
25. *Treaties and Other International Acts of the United States of America*, edited by Hunter Miller, Volume 2 (Washington: United States Government Printing Office, 1931) 349-385, and Peter McWilliams, *Aint Nobody's Business If You Do: The Absurdity of Consensual Crimes in a Free Society* (Los Angeles: Prelude Press, 1993) 153.
26. Ibid., 103-104.
27. Ibid., 102.
28. See note #25.
29. Lawrence Lader, *Politics, Power & the Church* (New York: Macmillan Publishing Company, 1987) 135-140, "World Watch" *The Rocky Mountain News*, April 14, 1992, and "Vatican denies helping Nazis flee after war", The Associated Press, February 15, 1992.
30. John Dollison, *Pope-Pourri* (New York: Simon & Schuster, 1994) 9.

Chapter Eleven - Conclusion

1. Forrest G. Wood, *The Arrogance of Faith* (New York: Alfred A. Knopf, 1990) 27.

جريدة المصادر والمراجع

Selected Bibliography

Ackerman, Robert W. *Backgrounds to Medieval English Literature.* New York: Random House, 1966.

Achterberg, Jeanne. *Woman As Healer.* Boston: Shambala, 1991.

Adler, Margot Adler *Drawing Down the Moon.* New York: Beacon Press, 1979.

Anderson, William. *Green Man.* London and San Francisco: Harpercollins, 1990.

Ankarloo, Bengt and Henningsen, Gustav. *Early Modern European Witchcraft Centres and Peripheries.* Oxford: Clarendon Press, 1990.

Aquinas, Saint Thomas. *Summa Theologica.* New York & London: Blackfriars, McGraw-Hill, Eyre & Spottiswoode.

Armstrong, Karen. *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World.* New York: Doubleday, 1988.

————. *The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West.* New York: Doubleday, 1986.

Ashe, Geoffrey. *The Virgin: Mary's Cult and the Re-emergence of the Goddess.* London: Arkana, 1976, 1988.

Augustine, Saint. *The City of God*, Book XIV, Ch.4, translated by Marcus Dods. New York: The Modern Library, 1950.

Baigent, Michael; Leigh, Richard; Lincoln, Henry, *Holy Blood, Holy Grail* New York: Dell, 1982.

Baroja, Julio Caro. *The World of Witches.* Chicago: University of Chicago Press, 1961.

Begg, Ian. *The Cult of the Black Virgin.* London: Arkana, 1985.

Boorstin, Daniel J. *The Discoverers.* New York: Random House, 1983.

Bossy, John. *Christianity in the West 1400-1700.* Oxford: Oxford University Press, 1985.

Burckhardt, Jacob. *The Civilization of the Renaissance in Italy.* edited by Irene Gordon. New York: Mentor Books, 1960.

Capra, Fritjof. *The Tao of Physics.* Toronto: Bantam Books, 1984.

Carmichael, Joel. *The Birth of Christianity.* New York: Hippocrene Books, 1989.

Cotterell, Arthur. *Myths and Legends.* New York: MacMillan Publishing Company, 1989.

BIBLIOGRAPHY

Coulton, G.G. *Inquisition and Liberty.* Glouster, MA: Peter Smith, 1969.

Daniel-Rops, H. *Cathedral and Crusade.* New York: E.P.Dutton & Company, Inc., 1957.

Darwin, Charles. *The Descent of Man and Selection in Relation to Sex.* Part One, Volume III. New York, P.F. Collier & Son, 1871.

————. *The Origin of Species by Means of Natural Selection or the Preservation of Favored Races in the Struggle for Life* Volume II. New York: D. Appleton & Co., 1897.

Delumeau, Jean. *Catholicism Between Luther and Voltaire.* London: Burns and Oats, 1977.

————. *Sin and Fear*, translated by Eric Nicholson. New York: St. Martins Press, 1990.

Dollison, John. *Pope-Pourri.* New York: Simon & Schuster, 1994.

Edwards, Jonathan. "The Justice of God in the Damnation of Sinners," from *The Works of Jonathan Edwards, A.M.* London: Henry G. Bohn.

Eisler, Riane. *The Chalice and the Blade.* San Francisco: Harper & Row, 1987.

Essene Gospel of Peace, The. edited and translated by Edmond Bordeaux Szekely. San Diego: Academy of Creative Living, 1971.

Excerpta Ex Theodoto of Clement of Alexandria, The. translated by Robert Pierce Casey. London: Christophers, 1934.

Frazer, Sir James George. *The Golden Bough.* Vol.1 abridged edition. New York: Collier Books, 1922.

Ferguson, Evrett; McHugh, Michael P.; Norris, Frederick W. *Encyclopedia of Early Christianity.* New York & London: Garland Publishing, 1990.

Gaer,Joseph and Siegel, Ben. *The Puritan Heritage: America's Roots in the Bible.* New York: Mentor Books, 1964.

Graham, Lloyd M. *Deceptions and Myths of the Bible.* New York: Citadel Press, 1975.

Haskins, Charles Homer. *The Renaissance of the 12th Century.* Cleveland & New York: Meridian Books, 1927.

Haught, James A. *Holy Horrors.* Buffalo: Prometheus, 1990.

Hawking, Stephen W. *A Brief History of Time.* Toronto: Bantam Books, 1988.

Heer, Friedrich. *The Medieval World.* translated by Janet Sondheimer. New York: NAL, 1961.

Hillgarth, J.N. *The Conversion of Western Europe.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1969.

Hippolytus Philosophumena 6.9, Volume II, Translated by F. Legge. London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1921.

BIBLIOGRAPHY

Howe Jr., Quincy. *Reincarnation For The Christian*. Philadelphia: Westminster Press, 1974.

Ignatius. *Magnesians* and *Trallians*. In the *Ante-Nicene Christian Library*. Edinburgh: T&T Clark.

Irenaeus. *Irenaeus Against Heresies*. In the *Ante-Nicene Christian Library*. Edinburgh: T&T Clark.

Irenaeus. *Irenaeus Against Heresies*. In the *Ante- Nicene Christian Library*. Buffalo: The Christian Literature Publishing Co., 1885.

Kamen, Henry. *Inquisition and Society in Spain*. Bloomington: Indiana University Press, 1985.

Karlsen, Carol F. *The Devil in the Shape of a Woman*. Vintage Books: New York, 1987.

Kimbrell, Andrew. "Body wars", *Utne Reader* (May/June 1992).

Kimsey, John. "The Code of Love," *GNOSIS*, No.18 (Winter 1991).

Kramer, Heinrich and James Sprenger, *The Malleus Maleficarum*. Translated by Montague Summers. New York: Dover Publications, 1971.

Lader, Lawrence. *Politics, Power & the Church*. New York: Macmillan Publishing Company, 1987.

Lea, Henry C. *History of Sacerdotal Celibacy in the Christian Church*. 4th edition revised. London: Watts & Co., 1932.

————. *The Inquisition of the Middle Ages*. Abridgement by Margaret Nicholson. New York: MacMillan, 1961.

Levack, Brian P. *The Witch-Hunt in Early Modern Europe*. London: Longman, 1987.

Locke, John. "A Letter Concerning Toleration," 1689 as printed in *The Founders' Constitution*, Volume 5. Chicago: University of Chicago, 1987.

Lopez, Barry Holstun. *Of Wolves and Men*. New York: Charles Scribner's Sons, 1978.

Margolis, Jon. "War of words over Columbus rages on" *The Sunday Denver Post*, July 28, 1991.

Martin, Malachi. *Decline and Fall of the Roman Church*. New York: G.P. Putnam's Sons, 1981.

Mauel, Frank E. *The Changing of the Gods*. Hanover, NH: University Press of New England, 1983.

McWilliams, Peter. *Aint Nobody's Business If You Do: The Absurdity of Consensual Crimes in a Free Society*. Los Angeles: Prelude Press, 1993.

Mulligan, Hugh A. "Columbus Saga Sinking Fast" Associated Press, March 8, 1992.

Nag Hammadi Library, The. James M. Robinson, Director. New York: Harper & Row, 1977.

BIBLIOGRAPHY

New Columbia Encyclopedia, The. edited by William H. Harris and Judith S. Levey (New York & London: Columbia University Press, 1975.

Nigg, Walter. *The Heretics: Heresy Through the Ages*. Edited and translated by Richard and Clara Winston. New York: Dorset Press, 1962.

Noonan, Jr., John T. *Contraception*. New York and Toronto: The New American Library, 1965.

Nottingham, Theodore. "The Birth Within: Meister Eckhart and the Knowing of God" *GNOSIS*, No.18 (Winter 1991).

O'Grady, Joan. *The Prince of Darkness*. Longmead: Element Books, 1989.

O'Neill, Timothy. "Century of Marvels, Century of Light" 14-18 and Judith Mann. "The Legend of the Cathars" *GNOSIS*, No.4.

Pagels, Elaine. *Adam, Eve and the Serpent*. New York: Random House, 1988.

————. *The Gnostic Gospels*. New York: Random House, 1979.

Panati, Charles. *Panati's Extraordinary Endings of Practically Everything*. New York: Harper & Row, 1989.

Panati, Charles. *Extraordinary Origins of Everyday Things*. New York: Harper & Row, 1987.

Plaidy, Jean. *The Spanish Inquisition*. New York: Citadel Press, 1967.

Regenstein, Lewis. *Replenish the Earth*. New York: Crossroad, 1991.

Robbins, Rossell Hope. *The Encyclopedia of Witchcraft and Demonology*. New York: Bonanza Books, 1981.

Roth, Cecil. *The Spanish Inquisition*. New York: W. W. Norton & Company, 1964.

Russell, Jeffrey Burton. *A History of Medieval Christianity*. New York: Thomas Y. Cromwell, 1968.

————. *Witchcraft in the Middle Ages*. Ithaca & London: Cornell University Press, 1972.

Schaff, Phillip. *History of the Christian Church*. Vol. V: The Middle Ages Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans, 1952.

Secret Teachings of Jesus, The. translated by Marvin W. Meyer. New York: Random House, 1984.

Shannon, Albert Clement. *The Medieval Inquisition*. Washington D.C.: Augustinian College Press, 1983.

Sheldrake, Rupert Sheldrake. *The Rebirth of Nature: The Greening of Science and God*. Park Street Press, Rochester, Vermont, 1991.

Smith, Charles Merrill. *The Pearly Gates Syndicate*. New York: Doubleday, 1971.

Smith, Joan. *Misogynies: Reflections on Myths and Malice*. New York: Fawcett Columbine, 1989.

BIBLIOGRAPHY

Smith, John Holland. *The Death of Classical Paganism*, New York: Charles Scribner, 1976.

St. Irenaeus, Proof of the Apostolic Preaching. translated and annotated by Josephy P. Smith. Westminster, Maryland: The Newman Press, 1952.

Starr, Tama. *The "Natural Inferiority" of Women*. New York: Poseidon Press, 1991.

Stone, Merlin. *When God Was a Woman*. New York: Dorset Press, 1976.

Strawley, J.H. *The Epistles of St. Ignatius, Bishop of Antioch*. London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1900.

Summers, Montague. *The History of Witchcraft and Demonology*. New York: New Hyde Park, 1956.

Swancara, Frank. *Obstruction of Justice By Religion*. Denver: W. H. Courtwright Publishing Co., 1936.

Tannahill, Reay. *Sex In History*. Michigan: Scarborough House, 1992.

Tertullian, "On Prescription Against Heretics" and "On the Flesh of Christ". *Ante-Nicene Fathers; Translations of the Writings of the Fathers down to A.A. 325*, Vol. III. Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Publishing Company, 1951.

Tertullian. *Tertullianus against Marcion*. In the *Ante-Nicene Christian Library*. Edinburgh: T&T Clark.

Thomas, Keith. *Religion and the Decline of Magic*. New York: Charles Scribner's Sons, 1974.

Tompkins, Peter. "Symbols of Heresy" in *The Magic of Obelisks*. New York: Harper, 1981.

Tuchman, Barbara W. *A Distant Mirror*. New York: Ballantine Books, 1978.

von Campenhausen, Hans. *Ecclesiastical Authority and Spiritual Power: In the Church of the First Three Centuries*, Translated by J.A. Baker. Stanford University Press, 1969.

Walker, Barbara G. *The Woman's Dictionary of Symbols and Sacred Objects* San Francisco: Harper & Row, 1988.

————. *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets*. San Francisco: Harper & Row, 1983.

Weiser, Francis X. *Handbook of Christian Feasts and Customs*. New York: Harcourt, Brace & Co., 1952.

Wood, Forrest. *The Arrogance of Faith*. New York: Alfred A. Knopf, 1990.

Zukav, Gary. *The Dancing Wu Li Masters*. Toronto: Bantam Books, 1979.

المحتوى

في هذا الكتاب الوثائقي والحيادي :

- دور الكنيسة في الغرب الأوربي في إزالة جميع مظاهر الحضارة وإدخال القارة الأوربية في عصور الظلام وإكراه الأوروبيين بالسيف والنار على اعتناق العقيدة المسيحية.

- تاريخ المؤسسة البابوية وتطورها والحروب الآثمة التي شنتها، خاصة الحروب الصليبية والحروب ضد من عدّتهم هراطقة، لا بل ضد بعض الكاثوليك أنفسهم.

- دور محاكم التفتيش ضد جميع الناس وخاصة المسلمين في الأندلس، والجرائم التي مارسوها بتخويل من البابوية.

- كيف نظرت الكنيسة إلى المرأة وعدتها وعاء للدنس والآثام، و عدّوا أن الرب قد اقترف خطأ في خلقه للمرأة.

هذا الكتاب كما قال عنه النقاد الغربيون : يجب على كل إنسان أن يقرأه ليعرف كيف أن الكنيسة الكاثوليكية قد حاولت في الماضي إنقاذ المجتمعات البشرية فدمرتها وأغرقتها في الجهل.